بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الكهف

وهي مكيَّة في قول جميعِ المفسرين. ورُويَ عن فرقة أنَّ أوَّلَ السورةِ نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرُزًا﴾ [الآية:٨]، والأوَّل أصحُّ.

ورُوي في فضلِها من حديث أنسٍ أنَّه قال: مَن قَرَأَ بها أُعْطِيَ نوراً بين السماء والأرض، ووُقيَ بها فتنةَ القبر[١].

وقال إسحاقُ بنُ عبد الله بنِ أبي فَرْوةَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا أَدُلُّكم على سورة شيَّعها سبعون ألف مَلَكٍ، مَلأ عِظَمُها ما بين السماء والأرض، لتاليها مِثْلُ ذلك». قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: «سورةُ أصحابِ الكهف، مَن قَرَأَها يومَ الجمعة، غُفِرَ له إلى الجمعة الأُخرى وزيادةُ ثلاثةِ أيَّام، وأُعطِيَ نوراً يبلغ السماءَ، ووُقِيَ فتنةَ الدجال» ذكره الثعلبيُّ، والمهدويُّ أيضاً بمعناه[٢]. وفي «مسند الدَّارِمِيِّ»[٣] عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ قال: مَن قَرَأَ سورةَ الكهف ليلةَ الجمعة، أَضاءَ له من النُّور

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٤ .

(٢) وأخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٠٣) عن إسماعيل بن أبي رافع قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض...» الخبر بنحوه. وإسماعيل بن أبي رافع يروي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وكلاهما ضعيف، تنظر ترجمتهما في تهذيب الكمال وغيره من كتب التراجم.

(٣) برقم (٣٤١٠)، وأخرجه أيضاً القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص١٣١ ، وابن الضريس في فضائل القرآن (٢١١). وأخرجه مرفوعاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٦٨ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فيما بينَه وبينَ البيت العتيقِ.

وفي «صحيح مسلم»[١] عن أبي الدّرْدَاءِ أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «مَن حَفِظَ عَشْر آيات من أوَّل سورةِ الكهف، عُصِمَ من الدجال». وفي رواية: «من آخر الكهف»[٢]. وفي «مسلم»[٣] أيضاً من حديث النواسِ بن سَمْعان: «فمن أدركه ـ يعني الدجالَ ـ فليَقرأ عليه فواتحَ سورةِ الكهف». وذكره الثعلبيُّ.

قال سَمُرةُ بنُ جُنْدُب: قال النبيُّ ﷺ: «مَن قَرَأَ عَشْر آياتٍ من سورةِ الكهف حِفْظاً، لم تضرَّه فتنةُ الدَّجَّال، ومن قَرَأَ السورةَ كلَّها، دخل الجنَّة[٤]».

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاً ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاً ۜ قَيِّمًا﴾ ذكر ابنُ إسحاق[٥] أنَّ قريشاً بعثوا النَّضْر بنَ الحارث وعُقبةَ بنَ أبي مُعَيْطٍ إلى أحبارِ يهودَ وقالوا لهما: سَلاهم عن محمَّد، وصِفَا لهم صِفَتَه، وأَخبِراهم بقوله، فإنَّهم أهلُ الكتاب الأوَّل، وعندهم عِلْمٌ ليس عندنا من عِلْم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينةَ، فسألا أحبارَ يهودَ عن رسولِ الله ﷺ، ووَصَفا لهم أَمْرَه، وأَخبراهم ببعضِ قوله، وقالا لهم: إنَّكم أهلُ التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبِنا هذا. فقالت لهما أَحبارُ يهودَ: سَلُوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ، فإنْ أخبركم بهنَّ، فهو نبيٌّ مرسَلٌ، وإن لم يفعل فالرجلُ مُتَقَوِّل، فرَوْا فيه رأيكم، سَلُوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوَّل، ما كان

---

(١) برقم (٨٠٩).

(٢) مسلم (٨٠٩) إثر الرواية السابقة.

(٣) في كتاب الفتن وأشراط الساعة برقم (٢١٣٧) إثر الحديث (٢٩٣٦).

(٤) لم نقف عليه.

(٥) ونقله عنه ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٣٠٠ - ٣٠٦ بتمامه.

أَمرهم، فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عَجَبٌ؟ وسَلُوه عن رجل طوَّاف قد بلغَ مشارقَ الأرض ومغاربَها، ما كان نَبَؤه؟ وسَلُوه عن الروح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتَّبعوه؛ فإنَّه نبيٌّ، وإن لم يفعل، فهو رجلٌ متقوِّل، فاصنعوا في أَمْرِه ما بَدَا لكم.

فأَقبل النضرُ بنُ الحارث وعقبةُ بنُ أبي مُعَيط حتى قدما مكَّة على قريش فقالا: يا معشرَ قريشٍ! قد جئناكم بفَصْل ما بينَكم وبين محمَّد ﷺ، قد أَمَرَنا أحبارُ يهودَ أنْ نسأله عن أشياءَ أَمَرُونا بها، فإنْ أخبركم عنها فهو نبيٌّ، وإن لم يفعل، فالرجل متقوِّل، فرَوْا فيه رأيكم.

فجاؤوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمَّد، أَخبِرنا عن فِتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوَّل، قد كانت لهم قصةٌ عَجَبٌ؟ وعن رجل كان طوَّافاً قد بلغَ مشارقَ الأرض ومغاربَها؟ وأَخْبرنا عن الروح ما هي؟

قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «أُخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثنِ. فانصرفوا عنه، فمكثَ رسولُ الله ﷺ فيما يزعمون خَمْسَ عشْرة ليلةً، لا يُحْدِث اللهُ إليه في ذلك وَحْياً، ولا يأتيه جبريلُ، حتى أَرْجفَ[1] أهلُ مكَّة وقالوا: وَعَدَنا محمَّدٌ غداً، واليوم خمسَ عشْرة ليلةً، وقد أَصبحنا منها لا يُخبِرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أَحزن رسولَ الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهلُ مكَّة، ثم جاءه جبريلُ عليه السلام من عندِ الله عزَّ وجلَّ بسورةِ أصحاب الكهف، فيها معاتبتُه إيَّاه على حزنِه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أَمْرِ الفِتْية، والرجلِ الطوَّاف، والرُّوح.

قال ابنُ إسحاق: فذُكر لي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لجبريلَ: «لقد احتبستَ عنِّي يا جبريلُ حتى سُؤت ظنًّا» فقال له جبريلُ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

فافتتح السورةَ تبارك وتعالى بحمده، وذِكْرِ نبوَّة رسولِه ﷺ لِمَا أنكروا عليه من

---

(١) أرجفَ القومُ: إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن. لسان العرب (رجف).

ذلك فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: محمَّداً، إنَّك رسولٌ مِنِّي، أي: تحقيقٌ لِمَا سألوا عنه من نبوَّتك. ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ قَيِّمًا﴾ أي: معتدلاً لا اختلافَ فيه.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: عاجلَ عقوبته في الدنيا، وعذاباً أليماً في الآخرة، أي: من عندِ ربِّك الذي بعثك رسولاً.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: دارَ الخُلد لا يموتون فيها، الذين صدَّقوك بما جئتَ به مما كذَّبك به غيرُهم، وعَمِلوا بما أَمرتهم به من الأعمال.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني: قريشاً في قولهم: إنَّا نعبدُ الملائكةَ وهي بناتُ الله. ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين أعظموا فراقَهم وعَيْبَ دينهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: لقولهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ لحزنِه عليهم حين فاتَه ما كان يَرجوه منهم، أي: لا تفعل. قال ابنُ هشام[1]: «باخع نفسك» أي: مُهْلكٌ نفسَك، فيما حدَّثني أبو عبيدة[2]. قال ذو الرُّمَّة[3]:

ألا أيُّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نفسَه بشيءٍ نَحَتْه عن يَدَيْه المَقادِرُ

وجمعها: باخعونَ وبَخَعة. وهذا البيت في قصيدةٍ له. وتقول العربُ: قد بَخَعْتُ له نُصْحِي ونَفْسي، أي: جَهَدت له[4].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال ابنُ إسحاق[5]:

---

(١) في السيرة النبوية ١/ ٣٠٢.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٩٣.

(٣) ديوانه ٢/ ١٠٣٧.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٣.

(٥) ونقله عن ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٣٠٣.

أي: أيُّهم أَتبعُ لأَمري، وأَعملُ بطاعتي.

﴿وَإِنَّا لَجَعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: الأرض، وإنَّ ما عليها لفانٍ وزائل، وإنَّ المرجعَ إليَّ فأجْزِي كلًّا بعمله، فلا تأسَ ولا يَحْزُنْك ما ترى وتسمع فيها. قال ابنُ هشامٍ: الصَّعيد: وَجْهُ الأرض، وجمعه: صُعُد. قال ذو الرُّمّة يصف ظَبْياً صغيراً:

كأنه بالضُّحَى تَرمِي الصعيدَ به دبَّابةٌ في عِظام الرأسِ خُرْطوم[1]

وهذا البيت في قصيدة له. والصعيد أيضاً: الطريق، وقد جاء في الحديث: «إيَّاكم والقعودَ على الصُّعُدات»[2] يريد: الطُّرُق. والجُرُز: الأرض التي لا تُنبِت شيئاً، وجمعها: أجراز. ويقال: سَنَةٌ جُرُز، وسِنُونَ أَجراز؛ وهي التي لا يكون فيها مطرٌ، وتكون فيها جُدوبةٌ ويبس وشِدَّة[3]. قال ذو الرمّة يصف إبلاً:

طَوَى النَّحْزُ والأَجرازُ ما في بطونها فما بقِيتْ إلا الضُّلوعُ الجراشِعُ[4]

قال ابنُ إسحاق: ثم استقبل قصَّةَ الخبرِ فيما سألوه عنه من شَأْنِ الفتية فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: قد كان من آياتي فيما وضعتُ على العباد مِن حجَّتي ما هو أعجبُ من ذلك. قال ابنُ هشام[5]: والرَّقيم: الكتابُ الذي رُقِم بخبرهم، وجمعه: رُقُم. قال العَجَّاج[6]:

---

(١) ديوان ذي الرمة ١/ ٣٨٩، وقال شارحه: والدبابة: الخمر، والخرطوم: أول ما ينزل ويؤخذ من الدَّنِّ، والمعنى: كأن هذا الولدَ ـ يعني الظبيَ ـ بالضحى تبطحه خمر من النعاس، وإنما ينام لريِّه من اللبن.

(٢) أورده بهذا اللفظ ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (صعد)، وأخرجه أحمد (٢٧١٦٣) عن أبي شريح الخزاعي بلفظ: «إياكم والجلوس على الصعدات...» مطولاً، وعنون له البخاري في كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات، وأخرج حديث أبي سعيد الخدري (٢٤٦٥) عن النبي ﷺ قال: إياكم والجلوس على الطرقات.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٠٣، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ص٣٩٥ - ٣٩٦.

(٤) ديوان ذي الرمة ٢/ ١٢٩٦ بنحوه، قال شارحه: والنحز: ضرب الأعقاب والاستحثاث في السير، والجراشع: المتنفخ الجنبين.

(٥) في السيرة النبوية ١/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٦) ديوانه ص٢٨٥، والعجَّاج هو: عبد الله بن رؤبة بن لبيد.

ومُسْتَقَرَّ المُصْحفِ المُرَقَّمِ

وهذا البيت في أُرْجوزة له.

قال ابنُ إسحاق: ثم قال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾. ثم قال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بصِدْقِ الخبر: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم. قال ابنُ هشام[1]: والشَّطَطُ: الغُلُوُّ ومجاوزةُ الحقِّ. قال أعشى بني[2] قيس بنِ ثَعْلبة[3]:

أتنتهونَ ولا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ ... كالطَّعْنِ يَذهبُ فيه الزَّيْت والفُتُلُ

وهذا البيت في قصيدة له، قاله ابنُ إسحاق.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾. قال ابن إسحاق: أي: بحجَّة بالغة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا . وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا . وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾. قال ابنُ هشام: تزاوَرَ: تميَّل، وهو من الزَّوَر. وقال أبو الزحف الكُلَيْبِيُّ يصف بلداً:

جَدْب المُنَدَّى عن هَوانَا أَزْوَرُ ... يُنْضِي المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ[4]

---

(١) في السيرة النبوية ١/ ٣٠٤.

(٢) في (ظ): بن.

(٣) ديوانه ص١١٣.

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٠٤ - ٣٠٥، وهو في الصحاح: (عشزر)، والمندَّى: حيث يُرتَع، والخِمْس من أظماء الإبل: أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع. الصحاح (خمس).

وهذان البيتان في أرجوزة له.

و﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ تجاوزُهم وتتركهم عن شمالها. قال ذو الرُّمَّة:

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضْنَ أقوازَ مُشْرِفٍ شِمالاً وعن أيْمانِهنَّ الفوارِسُ[1]

وهذا البيت في قصيدةٍ له. والفَجْوة: السَّعةُ، وجمعها: الفِجاء. قال الشاعر:

ألبسْتَ قومَك مَخْزاةً ومنقصةً حتى أُبِيحُوا وحَلُّوا فَجْوةَ الدار[2]

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الحجَّة على من عَرَفَ ذلك من أمورهم من أهلِ الكتاب ممَّن أَمَرَ هؤلاء بمسألتك عنهم في صِدْقِ نبوَّتك بتحقيق الخبر عنهم.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ﴾ قال ابنُ هشام: الوصيد: الباب. قال العبسيُّ، واسمه عبدُ بنُ وهب:

بأرضٍ فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ[3]

وهذا البيت في أبيات له. والوصيد أيضاً: الفِناء، وجمعه: وصائد، ووُصُد، ووُصْدان.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أهلُ السلطان والمِلْكِ منهم. ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا . سَيَقُولُونَ﴾ يعني: أحبارَ اليهود الذين أَمروهم بالمسألة عنهم. ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ . [وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: لا تُكابرهم. ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ فإنَّهم لا عِلْم لهم بهم.

---

(١) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥، والبيت في ديوان ذي الرمة ٢/ ١١٢٠، وجاء فيه: أجواز، بدل: أقواز، والقَوْز: الكثيب الصغير من الرمل، والفوارس: رملٌ بالدهناء. وينظر الصحاح (قوز).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥، وفيه: وخَلُّوا، بدل: وحَلُّوا.

(٣) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥ وفيه وفي (ظ): عبيد، بدل: عبد، وأورده أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ١/ ١١٩ ونسبه إلى زهير بن أبي سلمى، ولم نقف عليه في ديوانه.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ[(١)] إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: لا تقولنَّ لشيء سألوك عنه كما قلتَ في هذا: إنِّي مخبركم غداً، واستثنِ مشيئةَ الله، واذْكُر ربَّك إذا نسِيتَ، وقل عسى أن يهديني ربِّي لخيرٍ ما سألتموني عنه رَشَداً، فإنَّك لا تدري ما أنا صانعٌ في ذلك.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ أي: سيقولونَ ذلك. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: لم يَخْفَ عليه شيءٌ مما سألوك عنه[(٢)].

قلت: هذا ما وقَع في السيرة من خبرِ أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه. ويأتي خبرُ ذي القرنين، ثم نعود إلى أوَّل السورةِ فنقول:

قد تقدَّم معنى «الحمد لله»[(٣)].

وزعم الأخفش والكسائيُّ والفرَّاء وأبو عبيد وجمهورُ المتأوِّلين أنَّ في أوَّل هذه السورة تقديماً وتأخيراً، وأنَّ المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجاً[(٤)].

و﴿قَيِّمًا﴾ نصب على الحال[(٥)] ـ وقال قتادة: الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير، ومعناه: ولم يجعل له عوجاً ولكن جعلناه قَيِّماً[(٦)] ـ وقول الضحَّاك فيه حسن، وأن المعنى: مستقيم، أي: مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فسادَ ولا

---

(١) ما بين حاصرتين في (ظ).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥ - ٣٠٦، والخبر أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ١٤٣ - ١٤٤ عن ابن عباس مختصراً.

(٣) ١/ ٢٠٢ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٦، وللفراء ٢/ ١٣٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٤٤.

تناقضَ[١]. وقيل: «قيِّماً» على الكتب السابقة يُصدِّقها. وقيل: «قَيِّماً» بالحُجج أبداً.

﴿عِوَجًا﴾ مفعول به، والعِوَج، بكسر العين: في الدِّين والرأي والأمر والطريق. وبفتحها في الأجسام كالخشب والجدار، وقد تقدَّم[٢]. وليس في القرآن عِوَجٌ، أي: عيبٌ، أي: ليس متناقضاً مختلفاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقيل: أي: لم يجعله مخلوقاً، كما روي عن ابنِ عباس في قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] قال: غير مخلوق[٣]. وقال مقاتل: «عِوَجاً»: اختلافاً. قال الشاعر:

أدوم بـودِّي لـلـصـديـق تـكـرُّمـاً ولا خيرَ فيمن كان في الودِّ أعْوَجَا[٤]

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي: لينذر محمَّدٌ أو القرآنُ. وفيه إضمارٌ، أي: لينذرَ الكافرين عقابَ اللهِ. وهذا العذابُ الشديدُ قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة.

﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عندِه[٥]. وقرأ أبو بكرٍ عن عاصم: «من لدْنه» بإسكان الدَّالِ وإشمامِها الضَّمَّ وكسرِ النون، والهاء موصولةٌ بياء. الباقون «لدُنْهُ» بضمِّ الدَّالِ وإسكانِ النون وضمِّ الهاء[٦]. قال الجوهريُّ: وفي «لدن» ثلاثُ لغات: لَدُن، ولَدَى، ولَدُ. وقال:

مِـن لَـدُ لَـحْـيَـيْـه إلـى مُـنْـحُـورِهِ[٧]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ١٤١ .

(٢) ٥/ ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وينظر النكت والعيون ٤/ ٢٨٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٩٤ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٤٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٨٣ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٨٣ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٤٥ وعزاه إلى قتادة.

(٦) السبعة ص٣٨٨ ، والتيسير ص١٤٢ .

(٧) الصحاح (لدن)، وأورد البيت ابن منظور في لسان العرب (لدن) ونسبه إلى غيلان بن حريث، وقال: قال ابن بري: وأنشده سيبويه: إلى منخوره، أي: منخزه. اهـ، وكذا جاء في الصحاح، وفي (ظ) و(د).

المُنْحُور: لغةٌ في المَنْحَر[١].

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهي الجنَّة. ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ دائمين. ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾ لا إلى غايةٍ. وإن حملتَ التبشيرَ على البيان، لم يحتج إلى الباء في «بأن». والأَجْر الحسن: الثوابُ العظيمُ الذي يؤدِّي إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهودُ، قالوا: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله. وقريشٌ قالت: الملائكةُ بناتُ الله[٢]. فالإنذار في أوَّل السورة عامٌّ، وهذا خاصٌّ فيمن قال لله ولد.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ «مِن» صِلَةٌ، أي: ما لهم بذلك القولِ عِلْم؛ لأنَّهم مقلِّدة، قالوه بغير دليل. ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: أسلافهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ «كلمة» نصبٌ على البيان، أي: كَبُرَت تلك الكلمةُ كلمةً. وقرأ الحسنُ ومجاهدٌ ويحيى بنُ يَعْمَر وابنُ أبي إسحاق «كلمةٌ» بالرفع، أي: عَظُمتْ كلمةٌ، يعني قولَهم: «اتَّخذ الله ولداً»[٣]. وعلى هذه القراءة فلا حاجةَ إلى إضمار. يقال: كبر الشيء: إذا عَظُمَ. وكَبِرَ الرجلُ: إذا أَسنَّ[٤]. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ في موضعِ الصفة. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي: ما يقولون إلا كذباً.

---

(١) في (ظ) و(د): المنخور لغة في المنخر.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٥ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٧٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ - ٤٤٨ ، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٤ ، ومختصر شواذ القرآن لابن خالويه ص٧٨ .

(٤) الصحاح (كبر).

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ «باخع» أي: مُهلِكٌ وقاتلٌ، وقد تقدَّم[١]. «آثارِهِمْ»: جمع أثَر، ويقال: إثْر[٢]. والمعنى: على أثَر تولِّيهم وإعراضِهم عنك. ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ أي: حزناً وغضباً على كفرهم، وانتصبَ على التفسير[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ «ما» و«زينةً» مفعولان[٤]. والزينةُ: كلُّ ما على وجه الأرض، فهو عمومٌ؛ لأنَّه دالٌّ على بارئه. وقال ابن جُبير عن ابنِ عباس: أراد بالزينة الرجالَ، وقاله مجاهد. وروى عكرمةُ عن ابنِ عباس أنَّ الزينةَ الخلفاءُ والأمراءُ[٥]. وروى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهد عن ابنِ عباس في قوله تعالى: «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها» قال: العلماءُ زينةُ الأرض[٦]. وقالت فرقةٌ: أراد النَّعَم والملابس والثمارَ والخُضْرةَ والمياه، ونحوَ هذا مما فيه زينةٌ، ولم يدخل فيه الجبالُ الصُّمُّ، وكلُّ ما لا زينة فيه كالحياتِ والعقارب. والقول بالعموم أَوْلى، وأنَّ كلَّ ما على الأرض فيه زينةٌ من جهة خَلْقه وصنْعه وإحكامه[٧]. والآيةُ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٨، وينظر ما تقدم أول السورة ص٢٠٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٨.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٨.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦.

(٦) ينظر زاد المسير ٥/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦ - ٤٩٧.

بَسْطٌ في التسلية، أي: لا تهتمَّ يا محمد للدنيا وأهلِها؛ فإنَّا إنَّما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلِها، فمنهم من يتدبَّر ويؤمن، ومنهم من يَكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظُمنَّ عليكَ كفرُهم، فإنَّا نُجازيهم.

الثانية: معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبيِّ ﷺ: «إنَّ الدنيا خَضِرةٌ حُلوةٌ، والله مستخلفُكم فيها، فينظرُ كيف تعملون». وقوله ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم ما يُخرج اللهُ لكم من زَهرةِ الدنيا» قالوا: وما زهرةُ الدنيا؟ قال: «بركاتُ الأرض» خرَّجهما مسلمٌ وغيرُه مِن حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ[1]. والمعنى: أنَّ الدنيا مستطابَةٌ في ذَوْقِها، مُعجِبةٌ في منظرها، كالثمر المُسْتَحْلَى[2] المُعْجِب المرأى[3]، فابتلى اللهُ بها عبادَه؛ لينظرَ أيَّهم أحسنُ عملاً. أي: مَن أزهدُ فيها وأتركُ لها، ولا سبيلَ للعباد إلى معصية ما زيَّنه اللهُ إلا أن يعينه على ذلك. ولهذا كان عمرُ يقول فيما ذكر البخاريُّ[4]: اللَّهُمَّ إنَّا لا نستطيعُ إلا أن نفرحَ بما زيَّنته لنا، اللَّهُمَّ إني أسألكَ أن أنفقَه في حقِّه. فدعا اللهَ أن يعينه على إنفاقه في حقِّه. وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن أَخَذَه بطيبِ نَفْسٍ، بُورِكَ له فيه، ومن أَخَذَه بإشراف نفسٍ، كان كالذي يأكلُ ولا يشبع»[5]. وهكذا هو المكثِر من الدنيا لا يَقنَعُ بما يَحصلُ له منها، بل همَّته جَمْعُها؛ وذلك لعدمِ الفَهْم عن الله تعالى ورسوله، فإنَّ الفتنةَ معها حاصلةٌ، وعدمَ السلامة غالبةٌ، وقد أَفلحَ من أَسلم، ورُزِقَ كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه.

وقال ابنُ عطية[6]: كان أبي ﷺ يقول في قوله: «أحسن عملاً»: أَحسنُ العملِ

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٤٢) و(١٠٥٢): (١٢٢) على الترتيب، والأول أخرجه أيضاً أحمد (١١١٤٣)، والترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٠)، والثاني أحمد (١١٠٣٥)، وابن ماجه (٣٩٩٥). وهما عند البخاري (١٤٦٥) و(٢٨٤٢) بنحوهما.

(٢) في (د) و(ظ): كالتمر المستجلي.

(٣) في (ظ): للرأي. والكلام من المفهم ٧/ ٣١٢ .

(٤) في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: هذا المال خضرة حلوة، قبل حديث (٦٤٤١).

(٥) تقدم آنفاً.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ .

أخذٌ بحقٍّ، وإنفاقٌ في حقٍّ مع الإيمان، وأداءُ الفرائضِ، واجتنابُ المحارم، والإكثارُ من المندوب إليه.

قلت: هذا قولٌ حسنٌ، وجيزٌ في ألفاظه، بليغٌ في معناه، وقد جمعَه النبيُّ ﷺ في لفظٍ واحد، وهو قوله لسفيانَ بنِ عبدِ الله الثَّقَفِيِّ لما قال: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أَسألُ عنه أحداً بعدك ـ في رواية: غيرك ـ قال: «قل: آمنتُ بالله ثم استقِم» خرَّجه مسلم(١). وقال سفيان الثّورِيُّ: «أحسنُ عملاً»: أزهدُهم فيها(٢). وكذلك قال أبو عصام العسقلانيُّ: «أحسنُ عملاً»: أَتْرُكُ لها(٣).

وقد اختلفت عباراتُ العلماء في الزهد فقال قوم: قِصَرُ الأمل وليس بأكل الخشِن ولبسِ العَباء، قاله سفيان الثّوْرِيُّ(٤). قال علماؤنا: وصدَق ﷺ! فإنَّ مَن قَصُر أملُه، لم يتأنَّق في المطعوماتِ، ولا يتفنَّن في الملبوسات، وأَخَذَ من الدنيا ما تيسَّر، واجتزأَ منها بما يُبَلِّغ.

وقال قومٌ: بُغْضُ المحمدةِ وحُبِّ الثناء. وهو قول الأوزاعِيِّ ومن ذهب إليه.

وقال قومٌ: تَرْكُ الدنيا كلِّها هو الزهد، أحَبَّ تَرْكَها أم كَرِه. وهو قول فُضيلٍ. وعن بشرِ بنِ الحارث قال: حُبُّ الدنيا: حبُّ لقاءِ الناس، والزهدُ في الدنيا: الزهد في لقاء الناس. وعن الفضيلِ أيضاً: علامةُ الزهدِ في الدنيا الزهدُ في الناس. وقال قومٌ: لا يكون الزاهدُ زاهداً حتى يكون تَرْكُ الدنيا أحبَّ إليه من أخذها، قاله إبراهيمُ بنُ أدهم(٥). وقال قومٌ: الزهد: أن تزهدَ في الدنيا بقلبِك، قاله ابنُ المبارك. وقالت فرقةٌ: الزهدُ: حبُّ الموت(٦). والقول الأوَّل يعمُّ هذه الأقوالَ بالمعنى، فهو أَولى.

---

(١) برقم (٣٨)، وهو عند أحمد (١٥٤١٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٤٥ (١٢٧٠٧).

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ١٥٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ٢/ ١٦٦ - ١٦٨ .

(٥) أخرجه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٩ .

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٠٦ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

تقدَّم بيانه[١]. وقال أبو سهلٍ: تراباً لا نباتَ به، كأنَّه قُطع نباتُه. والجَرْز: القَطْع، ومنه سنة جُرُزٌ. قال الراجز:

قد جَرفَتْهنَّ السِّنُونُ الأَجْرَاز[٢]

والأرضُ الجُرُز: التي لا نباتَ فيها ولا شيءَ من عمارةٍ وغيرها، كأنَّه قُطِعَ وأُزيل. يعني: يومَ القيامة، فإنَّ الأرضَ تكون مستويةً لا مستتَر فيها[٣]. النحاس[٤]: والجُرْزُ في اللغة: الأرضُ التي لا نباتَ بها. قال الكسائيُّ: يقال: جُرِزَت الأرضُ تَجْرَز، وجرزها القوم يَجْرُزونها: إذا أكلوا كلَّ ما جاء فيها من النباتِ والزرع، فهي مَجْرُوزة وجُرُز[٥].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾

مذهب سيبويه أنَّ «أَمْ» إذا جاءت دون أن يتقدَّمها ألفُ استفهامٍ أنَّها بمعنى «بل» وألف الاستفهام، وهي المنقطعة. وقيل: «أَمْ» عطف على معنى الاستفهام في «لعلك»، أو بمعنى ألف الاستفهامِ على الإنكار. قال الطبريُّ: وهو تقريرٌ للنبيِّ ﷺ على حسابِه أنَّ أصحابَ الكهف كانوا عجباً، بمعنى إنكار ذلك عليه، أي: لا يعظم ذلك بحسَب ما عظمه عليك السائلونَ من الكَفَرة، فإنَّ سائرَ آياتِ اللهِ أعظمُ من قصَّتهم وأشيعُ، هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابنِ إسحاق[٦]. والخطاب

---

(١) في بداية هذه السورة.

(٢) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٩٤، والطبري ١٥/ ١٥٤، والجوهري في الصحاح (جرز) ولم ينسبوه.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧، والتعريف والإعلام ص١٠٠، وزاد المسير ٥/ ١٠٦ - ١٠٧.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢١٦، والجرز فيها أربع لغات كما في الصحاح (جرز).

(٥) ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٦٠٧.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧، وينظر الكتاب لسيبويه ٣/ ١٧٢ - ١٧٨، وتفسير الطبري ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦، وتفسير مجاهد ١/ ٣٧٣.

للنبيِّ ﷺ، وذلك أنَّ المشركين سألوه عن فِتْيةٍ فُقدوا، وعن ذي القرنين، وعن الروح، وأبطأ الوَحْيُ على ما تقدَّم[١]. فلما نزل قال اللهُ تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: أحسبتَ يا محمدُ أنَّ أصحابَ الكهف والرَّقِيمِ كانوا من آياتنا عجباً، أي: ليسوا بعَجَب من آياتنا، بل في آياتنا ما هو أعجبُ مِن خبرهم[٢]. الكلبي: خَلْقُ السماواتِ والأرضِ أعجبُ من خبرهم. الضحاك: ما أَطْلَعتُكَ عليه من الغيبِ أعجبُ. الجُنيد: شأنُكَ في الإسراء أعجبُ. الماورديُّ: معنى الكلام النفيُ، أي: ما حسبت لولا إخبارنا[٣]. أبو سهل: استفهامُ تقريرٍ، أي: أحسبتَ ذلك فإنَّهم عجبٌ.

والكهف: النَّقْب المتَّسعُ في الجبل، وما لم يتَّسع منها فهو غارٌ. وحكى النَّقاش عن أنس بنِ مالك أنَّه قال: الكهفُ: الجبلُ، وهذا غيرُ شهير في اللغة[٤].

واختلف الناسُ في الرَّقيم، فقال ابنُ عباس: كلُّ شيءٍ في القرآن أعلمه إلا أربعةً: غِسْلين وحَنَان والأوَّاه والرَّقيم[٥]. وسُئِلَ مرَّة عن الرَّقيم فقال: زعَم كعبٌ أنَّها قريةٌ خرجوا منها[٦]. وقال مجاهد: الرقيمُ: وادٍ[٧]. وقال السُّدِّيُّ: الرقيمُ: الصخرةُ التي كانت على الكهف. وقال ابنُ زيد: الرقيمُ: [كتابٌ غَمَّ اللهُ علينا أمرَه، ولم يشرحْ لنا قصَّته. وقالت فرقةٌ: الرقيم][٨]: كتابٌ في لوح مِن نُحاس. وقال ابنُ عباس: في لوح من رَصاصٍ كَتب فيه القومُ الكفارُ ـ الذين فرَّ الفتيةُ منهم ـ قصَّتَهم وجعلوها

(١) في أول السورة.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٨٧ ، والوسيط ٣/ ١٣٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٤٥ ، وزاد المسير ٥/ ١٠٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٨٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ ، وفيه: وحكى النحاس، بدل: وحكى النقاش.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٧ ، وذكره أبو الليث في التفسير ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ بنحوه.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٧ ، والطبري ١٥/ ١٥٨ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٦ - ٣٩٧ ، والطبري ١٥/ ١٥٨ .

(٨) ما بين حاصرتين ليس في (ظ).

تاريخاً لهم، ذكروا وقتَ فَقْدِهم، وكم كانوا، وبين من كانوا[١]. وكذا قال الفرَّاء، قال: الرقيمُ: لوحٌ من رَصاص، كُتب فيه أسماؤهم وأنسابُهم ودينُهم وممَّن هربوا[٢]. قال ابنُ عطيَّة[٣]: ويظهر من هذه الرواياتِ أنَّهم كانوا قوماً مؤرِّخين للحوادث، وذلك من نبل المملكة، وهو أمرٌ مفيدٌ. وهذه الأقوالُ مأخوذةٌ من الرَّقْم، ومنه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٢٠] ومنه الأَرقمُ؛ لتخطيطه. ومنه رَقْمة الوادي، أي: مكان جَرْي الماء وانعطافه.

وما رُوي عن ابنِ عباس ليس بمتناقضٍ؛ لأنَّ القولَ الأوَّلَ إنَّما سمعه مِن كَعْب. والقولَ الثانيَ يجوز أن يكونَ عَرَفَ الرقيمَ بعده. وروى عنه سعيدُ بنُ جُبير قال: ذكَر ابنُ عباس أصحابَ الكهف فقال: إنَّ الفتيةَ فُقِدوا، فطلبهم أهلُوهم فلم يجدوهم، فرُفع ذلك إلى الملك فقال: ليكوننَّ لهم نبأٌ، وأَحضر لوحاً من رصاصٍ فكَتب فيه أَسماءَهم وجعله في خِزانته، فذلك اللوحُ هو الرقيمُ[٤].

وقيل: إنَّ مؤمِنَيْن كانا في بيت الملك فكتبا شأنَ الفتية وأسماءَهم وأنسابَهم في لوح من رصاص، ثم جعلاه في تابوتٍ من نُحاس وجعلاه في البنيان، فالله أعلم[٥].

وعن ابن عباس أيضاً: الرقيمُ: كتابٌ مرقومٌ كان عندهم فيه الشَّرْعُ الذي تمسَّكوا به من دِيْنِ عيسى عليه السلام. وقال النقَّاش عن قَتادةَ: الرقيمُ: دراهمهم. وقال أنسُ ابنُ مالك والشَّعْبيُّ: الرقيمُ: كلبُهم. وقال عكرمة: الرقيمُ: الدّواةُ[٦].و قيل: الرقيمُ: اللوحُ من الذهب تحت الجدارِ الذي أقامه الخَضر. وقيل: الرقيمُ: أصحابُ الغارِ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ .

(٢) معاني القرآن ٢/ ١٣٤ .

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ - ٤٩٨ .

(٤) زاد المسير ٥/ ١٠٩ بنحوه.

(٥) عرائس المجالس ص٤٢٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ - ٤٩٨ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٨٧ ، وزاد المسير ٥/ ١٠٨ .

الذي انطبقَ عليهم، فذكر كلُّ واحدٍ منهم أَصلح عمله[١].

قلت: وفي هذا خبرٌ معروفٌ أخرجه الصحيحان[٢]، وإليه نحا البخاريُّ. وقال قوم: أَخبر اللهُ عن أصحاب الكهف، ولم يُخبِر عن أصحاب الرقيم بشيء. وقال الضحاك: الرقيمُ: بلدةٌ بالرُّوم فيها غارٌ فيه أَحَدَ وعشرونَ نَفْساً، كأَنَّهم نيامٌ على هيئة أصحابِ الكهف، فعلى هذا هم فِتْيةٌ آخرونَ جرى لهم ما جَرى لأصحاب الكهف[٣]. والله أعلم. وقيل: الرقيم: وادٍ دونَ فلسطين فيه الكهف[٤]، مأخوذ من رَقْمة الوادي: وهي موضعُ الماء، يقال: عليك بالرَّقْمة وَدَعِ الضِّفَّة، ذكره الغزنوي[٥]. قال ابنُ عطيَّة[٦]: وبالشام ـ على ما سمعتُ به من ناسٍ كثير ـ كهف فيه موتى، يزعم مجاوِروه أَنَّهم أصحابُ الكهف، وعليهم مسجدٌ وبناءٌ يسمَّى الرقيم، ومعهم كلبٌ رِمَّة. وبالأندلس في جهة غَرْناطة بقرب قريةٍ تسمَّى «لَوْشة» كهفٌ فيه موتى ومعهم كلبٌ رِمَّة، وأكثرهم قد تجرَّد لحمه، وبعضُهم متماسك، وقد مضتِ القرونُ السالفةُ، ولم نجد من عِلْم شأنهم أَثَارة، ويزعم ناسٌ أَنَّهم أصحابُ الكهف، دخلتُ إليهم ورأيتُهم سنة أربع وخمس مئة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجدٌ، وقريبٌ منهم بناء رُوميٌّ يسمَّى الرقيم، كأَنَّه قَصْرٌ مُخْلِق قد بقي بعض جدرانه، وهو في فلاةٍ من الأرض خَرِبة،

---

(١) أخرج أحمد (١٨٤١٧) ، والطبراني في الأحاديث الطوال (٤١)، وفي الأوسط (٢٣٢٨)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٧٩ عن النعمان بن بشير أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن الرقيم: أن ثلاثة نفر دخلوا في كهف فوقع قطعة من الجبل على باب الكهف فأوصد عليهم... الحديث. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٤٠ : رواه أحمد والطبراني في الأوسط والكبير، والبزار بنحوه من طرق، ورجال أحمد ثقات.

(٢) أخرج البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم... الحديث.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٨٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ١٥٧ - ١٥٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وينظر عرائس المجالس ص٤١٥ - ٤١٦ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٦١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ بنحوه.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١ .

وبأعلى غَرناطة مما يلي القبلةَ آثارُ مدينة قديمة روميَّة يقال لها: مدينة دَقْيُوس، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها.

قلت: ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنَّما هم غيرهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقول في حقِّ أصحابِ الكهف: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾. وقال ابنُ عباس لمعاوية لما أرادَ رؤيتَهم: قد منَع اللهُ من هو خيرٌ منك عن ذلك، وسيأتي في آخر القصَّة[1].

وقال مجاهدٌ في قوله: «كانوا من آياتنا عَجَباً» قال: هم عَجَبٌ.كذا روى ابنُ جُريج عنه، يذهب إلى أنَّه ليس بإنكار على النبيِّ ﷺ أن يكون عنده أنَّهم عَجَب. وروى ابنُ نجيح عنه قال: يقول ليس بأعجبِ آياتنا[2].

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ رُوي أنَّهم قومٌ من أبناء أشرافِ مدينة دقيوس الملكِ الكافر، ويقال فيه: دقينوس. ورُوي أنَّهم كانوا مطوَّقين مسوَّرين بالذهب ذوي ذوائب، وهم من الرُّوم واتَّبعوا دينَ عيسى. وقيل: كانوا قبلَ عيسى، والله أعلم[3].

وقال ابنُ عباس: إنَّ مَلِكاً من الملوك ـ يقال له: دقيانوس ـ ظهرَ على مدينة من مدائنِ الرُّوم يقال لها: أُفْسُوس. وقيل هي: طَرَسوس، وكان بعد زمنِ عيسى عليه السلام فأمر بعبادةِ الأصنام، فدعا أهلَها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعةُ أحداثٍ يعبدون اللهَ سراً، فرُفع خبرُهم إلى الملك وخافوه، فهربوا ليلاً، ومرُّوا براعٍ معه كلبٌ

(١) عند تفسير الآية (٢٧) من هذه السورة، وتخريج كلام ابن عباس هناك.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ .

فتَبعهم، فآوَوْا إلى الكهف، فتبعهم الملك إلى فَمِ الغارِ، فوجد أثرَ دخولهم ولم يجد أثَر خروجهم، فدخلوا فأعمى اللهُ أبصارَهم فلم يَرَوا شيئاً، فقال الملك: سُدُّوا عليهم بابَ الغارِ حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً[١].

وروى مجاهد عن ابنِ عباس أيضاً أنَّ هؤلاء الفتية كانوا في دِيْنِ مَلِكٍ يعبد الأصنامَ ويذبح لها ويَكفرُ بالله، وقد تابعه على ذلك أهلُ المدينة، فوقع للفتية عِلْم من بعض الحواريين ـ حسبما ذكر النقَّاش، أو: من مؤمني الأُمم قبلهم ـ فآمنوا بالله ورأوا ببصائرِهم قبيحَ فعل الناس، فأخذوا نفوسَهم بالتزام الدِّين وعبادةِ الله، فرُفع أمرُهم إلى الملك، وقيل له: إنهم قد فارقوا دينك واستخفُّوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضَرهم الملِكُ إلى مجلسه، وأمرهم باتباع دينِه والذَّبح لآلهته، وتوعَّدهم على فِراق ذلك بالقتل، فقالوا له فيما روي: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾. وروي أنَّهم قالوا نحوَ هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملِكُ: إنَّكم شبانٌ أَغمار لا عقولَ لكم، وأنا لا أَعجل بكم بل أَستأني، فاذهبوا إلى منازلِكم ودبِّروا رأيكم وارجعوا إلى أمري، وضرَب لهم في ذلك أجلاً، ثم إنَّه سافر خلال الأَجَلِ، فتشاور الفِتيةُ في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدُهم: إنِّي أَعرف كهفاً في جبل كذا، كان أبي يُدخِل فيه غنمَه، فَلْنذهب فَلْنَخْتَفِ فيه حتى يفتحَ اللهُ لنا، فخرجوا فيما رُوِيَ يلعبون بالصَّوْلجان والكُرَة، وهم يدحرجونها إلى نحوِ طريقهم؛ لئلا يشعرَ الناسُ بهم. ورُوي أنهم كانوا مُتَّفِقين[٢]، فحضر عيدٌ خرجوا إليه، فركبوا في جملة الناس، ثم أَخذوا باللَّعبِ بالصَّوْلجان حتى خَلَصوا بذلك[٣].

وروى وهبُ بنُ منبِّه أنَّ أولَ أمرهم إنَّما كان حواريٌّ لعيسى ابنِ مريم جاء إلى مدينة أصحابِ الكهف يريد دخولَها، فأَجَرَ نفسَه من صاحب الحمَّام وكان يعمل فيه، فرأَى صاحبُ الحمام في أعماله بركةً عظيمةً، فألقى إليه بكلِّ أمره، وعرف ذلك

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٠ - ٢٩١.

(٢) في (ز) و(م) والمحرر الوجيز: «مثقفين».

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨.

الرجلَ فتيانٌ من المدينة، فعرَّفهم اللهَ تعالى، فآمنوا به واتَّبعوه على دينه، واشتهرت خلطتُهم به، فأتى يوماً إلى ذلك الحمَّام وَلَدُ الملِك بامرأةٍ أراد الخَلْوةَ بها، فنهاه ذلك الحوارِيُّ، فانتهى، ثم جاء مرَّة أُخرى فنهاه، فشتَمه، وأَمضى عَزْمه في دخول الحمَّام مع البَغِيِّ، فدخل فماتا فيه جميعاً، فاتُّهِم ذلك الحواريُّ وأصحابُه بقتلهما، ففرُّوا جميعاً حتى دخلوا الكهفَ[١]. وقيل في خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فرُوِيَ أنَّه كان كلبَ صيدٍ لهم، ورُوِيَ أنَّهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلبٌ فاتَّبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلبُ معهم، قاله ابن عباس. واسمُ الكلب: حمران، وقيل: قطمير[٢].

وأما أسماءُ أهل الكهف فأعجميَّة، والسَّنَدُ في معرفتها واهٍ. والذي ذكره الطبريُّ[٣] هي هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلِّم عنهم، ومحسيميلينينا ويمليخا، وهو الذي مضى بالوَرِقِ إلى المدينة عند بَعْثهم مِن رقدتهم، ومرطوس، وكشوطوش، ودينموس، ويطونس، وبيرونس. قال مقاتل: وكان الكلبُ لمكسلمينا، وكان أسنَّهم وصاحبَ غنم.

الثانية: هذه الآية صريحةٌ في الفرار بالدِّين وهجرةِ الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوفَ الفتنة وما يلقاهُ الإنسانُ من المحنة. وقد خرج النبيُّ ﷺ فارًّا بدِيْنه، وكذلك أصحابُه، وجلس في الغار حسبما تقدَّم في سورة النحل[٤]. وقد نصَّ اللهُ تعالى على ذلك في «براءة» وقد تقدَّم[٥]. وهجروا أوطانَهم، وتركوا أرضَهم وديارَهم وأهاليهم وأولادَهم وقراباتهم وإخوانَهم، رجاءَ السلامة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٩، وعرائس المجالس ص٤٢٣، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٧ - ٣٩٩، والطبري ١٥/ ١٧٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٩، وينظر المحبَّر ص٣٥٦، وعرائس المجالس ص٤١٩.

(٣) في التفسير ١٥/ ١٦٥ - ١٦٦، وينظر المحبّر ص٣٥٦، وعرائس المجالس ص٤١٩.

(٤) ١٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٥) ١٠/ ٢١٠ وما بعدها.

بالدِّين والنجاةِ من فتنة الكافرين. فسُكْنَى الجبال ودخول الغِيران، والعزلة عن الخَلْق والانفراد بالخالق، وجواز الفِرارِ من الظالم هي سُنَّة الأنبياءِ صلوات الله عليهم والأولياءِ. وقد فضَّل رسولُ الله ﷺ العزلةَ، وفضَّلها جماعةُ العلماء لا سيما عند ظهور الفتنِ وفساد الناس، وقد نصَّ اللهُ تعالى عليها في كتابه فقال: «فَأْوُوا إلى الْكَهْفِ»[١].

قال العلماء: الاعتزالُ عن الناس يكون مرَّة في الجبال والشِّعاب، ومرَّة في السواحل والرِّباط، ومرَّة في البيوت، وقد جاء في الخبر: «إذا كانت الفتنةُ فأَخْفِ مكانَك وكُفَّ لسانَك». ولم يخصَّ موضعاً مِن موضع[٢]. وقد جعلت طائفةٌ من العلماء العزلةَ اعتزالَ الشَّرِّ وأهلِه بقلبِك وعملِك، وإن كنتَ بين أظهرهم. وقال ابنُ المبارك في تفسير العزلة: أن تكونَ مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فَخُضْ معهم، وإن خاضوا في غيرِ ذلك فاسكت[٣].

وروى البَغَوِيُّ عن ابنِ عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «المؤمن الذي يُخالط الناسَ ويَصبِرُ على أذاهم أفضلُ من المؤمن الذي لا يُخالِطهم ولا يَصبِرُ على أذاهم»[٤]. ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ قال: «نِعْمَ صوامعُ المؤمنين بيوتُهم» من مراسيل الحسن وغيره[٥].

---

(١) التمهيد ١٧/ ٤٤٠ ، وينظر العزلة للخطابي ص٦٢ - ٦٣ .

(٢) التمهيد ١٧/ ٤٤٠ ، وأورد الحديث بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد (٦٩٨٧) ، وأبو داود (٤٣٤٣)، والخطابي في العزلة ص٦٣ - ٦٤ من حديث عبد الله بن عمرو بنحوه.

(٣) التمهيد ١٧/ ٤٤٦ .

(٤) أبو القاسم البغوي في الجعديات (٧٤٤)، وأبو محمد البغوي في شرح السنة (٣٥٨٥)، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢). وحسَّن الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٥١٢ إسناد ابن ماجه، مع أن فيه عبد الواحد بن صالح، وهو مجهول، كما ذكر ذلك ابن حجر في التقريب، وينظر التمهيد ١٧/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٧٩ ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٩ من مرسل الحسن، وأخرجه أيضاً ابن عدي مرفوعاً من حديث أنس، وقال: وهذا زاد فيه ابن بنت مطر هذا أنس والنبي ﷺ، وإنما هذا من قول الحسن... وابن بنت مطر هذا أظهر أمراً في الضعف، وأحاديثه عامتها مسروقة سرقها من قوم ثقات ويوصل أحاديثه. اهـ، وهو عند ابن المبارك في زوائد الزهد ص٤ ، وابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٩ ، والخطابي في العزلة ص٧٠ - ٧١ عن أبي الدرداء موقوفاً بنحوه، وينظر التمهيد ١٧/ ٤٤٢ .

وقال عقبةُ بنُ عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاةُ يا رسول الله؟ فقال: «يا عقبةُ أَمسِك عليك لسانَك، ولْيَسَعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتك»[١]. وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ خير مالِ الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقعَ القطر، يَفِرُّ بدينه من الفتن». خرَّجه البخاريُّ[٢].

وذكر عليُّ بنُ سعد، عن الحسن بن واقد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت سنة ثمانين ومئة فقد حلَّت لأمتي العُزْبة والعُزْلة والترهُّب في رؤوس الجبال»[٣].

وذكر أيضاً عليُّ بنُ سعد، عن عبد الله بنِ المبارك، عن مبارك بنِ فضالة، عن الحسن يرفعه إلى رسولِ الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمانٌ لا يَسْلَم لذي دِينٍ دينُه إلا مَن فرَّ بدينه مِن شاهقٍ إلى شاهق، أو حِجْر إلى حِجْر، فإذا كان ذلك، لم تُنَل المعيشةُ إلا بمعصيةِ الله، فإذا كان ذلك، حلَّت العُزْبة». قالوا: يا رسول الله، كيف تَحِلُّ العُزْبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟! قال: «إذا كان ذلك كان فسادُ الرجل على يدي أبوَيْه، فإن لم يكن له أبوان، كان هلاكُه على يدي زوجته، فإن لم تكن له زوجةٌ، كان هلاكُه على يدي ولدِه، فإن لم يكن له ولدٌ، كان هلاكه على يدي القرابات والجيران». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يُعيِّرونه بضِيْق المعيشة ويكلِّفونه ما لا يُطيق، فعند ذلك يُورِدُ نفسَه الموارِدَ التي يهلك فيها»[٤].

قلت: أحوالُ الناس في هذا الباب تختلف، فرُبَّ رجلٍ تكون له قوَّة على سكنى الكهوفِ والغِيران في الجبال، وهي أرفعُ الأحوال؛ لأنَّها الحالةُ التي اختارها اللهُ لنبيِّه ﷺ في بداية أمره، ونصَّ عليها في كتابه مخبراً عن الفتية، فقال: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٣٥)، والترمذي (٢٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد (١٣٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) برقم (٣٦٠٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وشَعَف الجبال: جمع شَعَفَة، وهي رأس الجبل.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه الخطابي في العزلة ص٦٦ - ٦٧ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٥ ، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٢١ .

ورُبَّ رجلٍ تكون العُزْلة له في بيته أخفَّ عليه وأسهلَ، وقد اعتزل رجالٌ من أهل بدر، فلزموا بيوتَهم بعد قَتْلِ عثمان، فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

ورُبَّ رجلٍ متوسِّط بينهما فيكون له من القوَّة ما يَصبِرُ بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر، ومخالفٌ لهم في الباطن. وذكر ابن المبارك: حدَّثنا وُهَيب بنُ الوَرْد قال: جاء رجل إلى وهب بنِ منبِّه فقال: إنَّ الناسَ وقعوا فيما فيه وقعوا! وقد حدَّثت نفسي ألا أخالطَهم. فقال: لا تَفعلْ! إنَّه لابُدَّ لك من الناس، ولابُدَّ لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصمَّ سميعاً، أعمَى بصيراً، سَكوتاً نَطُوقاً[١].

وقد قيل: إنَّ كلَّ موضع يَبعد عن الناس فهو داخلٌ في معنى الجبال والشِّعاب، مثل الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرِّباط والذِّكْر، ولزوم البيوت؛ فراراً عن شرورِ الناس. وإنَّما جاءت الأحاديثُ بذِكْر الشِّعاب والجبال واتِّباع الغنم ـ والله أعلم ـ لأنَّ ذلك هو الأغلب في المواضع التي يُعتزَل فيها، فكلُّ موضع يَبعُد عن الناس فهو داخلٌ في معناه، كما ذكرنا، والله الموفِّق وبه العصمةُ[٢].

وروى عقبةُ بنُ عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يَعْجَب ربُّك من راعي غنم في رأس شَظِيّة الجبل يؤذِّن بالصلاة ويصلِّي، فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذِّن ويقيم الصلاةَ، يخاف منِّي، قد غفرتُ لعبدي وأدخلته الجنة». خرَّجه النَّسائيُّ[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ لما فَرُّوا ممَّن يطلبهم، اشتغلوا بالدُّعاء ولجؤوا إلى الله تعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: مغفرةً ورزقاً.

---

(١) التمهيد ١٧/ ٤٤٦ .

(٢) التمهيد ١٧/ ٤٥٠ .

(٣) في المجتبى ٢/ ٢٠ ، وفي الكبرى (١٦٤٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٤٤٢)، وأبو داود (١٢٠٣) قال الشوكاني في نيل الأوطار ٢/ ٣٦ : الحديث رجال إسناده ثقات. والشظيَّة: قطعة مرتفعة في رأس الجبل. النهاية (شظي).

﴿وَهَيِّئْ لَنَا[١] مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ توفيقاً للرشاد. وقال ابنُ عباس: مخرجاً من الغارِ في سلامة[٢]. وقيل: صواباً. ومن هذا المعنى أنَّه عليه الصلاة والسلام كان إذا حَزَبَه أمرٌ، فَزِع إلى الصلاة[٣].

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

عبارةٌ عن إلقاء اللهِ تعالى النومَ عليهم. وهذه من فصيحاتِ القرآن التي أقرَّت العربُ بالقصور عن الإتيانِ بمثله. قال الزجَّاج[٤]: أي: منعناهم عن أن يَسمعوا؛ لأنَّ النائمَ إذا سمع انتبه. وقال ابن عباس: ضربْنا على آذانهم بالنوم، أي: سَدَدْنا آذانَهم عن نفوذ الأصوات إليها. وقيل: المعنى «فضربنا على آذانهم» أي: فاستجبنا دعاءَهم، وصَرَفْنا عنهم شرَّ قومهم، وأَنمناهم. والمعنى كلُّه متقارب. وقال قُطْرُب: هذا كقولِ العرب: ضرَب الأميرُ على يد الرعيَّة؛ إذا منعهم الفسادَ، وضرب السيِّدُ على يد عبدِه المأذون له في التجارة؛ إذا منعَه من التصرُّف. قال الأسود بن يَعْفُر وكان ضَرِيراً:

ومن الحوادثِ لا أبالَكَ أنَّني ضُرِبتْ عليَّ الأرضُ بالأسدادِ[٥]

وأما تخصيصُ الآذان بالذكر؛ فلأنَّها الجارحةُ التي منها عظم فساد النوم، وقلَّما ينقطع نومُ نائم إلا من جهة أذنه، ولا يُستحكم نومٌ إلا مع[٦] تَعَطُّل السمع. ومن ذِكْر الأذن في النوم قوله ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» خرَّجه الصحيح. أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طويلِ النوم، لا يقومُ الليل[٧].

---

(١) بعدها في (ظ): أي يسِّر.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٥٢ .

(٣) سلف ١/ ٢٦٢ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١ ، وينظر تفسير البغوي ٣/ ١٥٢ ، وزاد المسير ٥/ ١١٤ .

(٥) المفضليات ص٢١٦ ، والاختيارين ص٥٥٩ ، ومنتهى الطلب ١/ ٤١٥ . وضُربت عليه الأرضُ بالأسداد: سُدَّت عليه الطرق، وعميت عليه مذاهبه. القاموس (سدد).

(٦) في (م): من.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ ، والحديث أخرجه البخاري (٣٢٧٠)، و مسلم (٧٧٤) من حديث ابن مسعود ﷺ .

و﴿عَدَدًا﴾: نعت للسنين، أي: معدودة، والقصد به العبارةُ عن التكثير؛ لأنَّ القليلَ لا يحتاج إلى عدد؛ لأنَّه قد عُرِف[١]. والعَدُّ: المصدر، والعدد: اسم المعدود، [٢]كالنَّفَض والخَبَط[٢]. وقال أبو عبيدة: «عدداً» نصب على المصدر. ثم قال قوم: بيَّن اللهُ تعالى عددَ تلك السنين من بعدُ فقال: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: من بَعْدِ نومهم. ويقال لمن أُحْيِيَ أو أُقِيمَ من نومه: مبعوثٌ؛ لأنَّه كان ممنوعاً من الانبعاثِ والتصرُّف.

قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ «لنعلم» عبارةٌ عن خروج ذلك الشيء إلى الوجودِ ومشاهدته، وهذا على نحوِ كلام العرب، أي: لنعلمَ ذلك موجوداً، وإلا فقد كان اللهُ تعالى عَلِمَ أيَّ الحزبين أحصى الأمد. وقرأ الزُّهْرِيُّ «ليعلم»: بالياء[٣].

والحزبان: الفريقان. والظاهر من الآية أنَّ الحزبَ الواحد هم الفتيةُ إذ ظنُّوا لبثَهم قليلاً. والحزبَ الثاني أهلُ المدينة الذين بُعِثَ الفِتْيةُ على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسِّرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا في مدَّة أصحابِ الكهف. وقيل: هما حزبان من المؤمنين. وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية[٤].

و«أحصى»: فعلٌ ماضٍ. و«أمداً»: نصب على المفعول به، قاله أبو عليٍّ[٥]. وقال

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٥ ، وللزجاج ٣/ ٢٧١ بنحوه.

(٢-٢) في (د) و(ظ): كالنقص والخيط.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ ، وقراءة الزهري في البحر المحيط ٦/ ١٠٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ .

الفرَّاء[١]: نصب على التمييز. وقال الزجَّاج[٢]: نصب على الظرف، أي: أيُّ الحزبين أحصى للبثِهم في الأمد، والأمد: الغاية. وقال مجاهد[٣]: «أمداً»: معناه عدداً، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب. وقال الطبري[٤]: «أمداً» منصوب بـ«لبثوا». ابن عطية[٥]: وهذا غير مُتَّجه، وأما من قال: إنَّه نصب على التفسير، فيلحقه من الاختلال أن «أفعل» لا يكون من فعل رباعيٍّ إلا في الشاذِّ، و«أحصى» فعل رباعي. وقد يحتج له بأن يقال: إن «أفعل» في الرباعي قد كثر، كقولك: ما أعطاه للمال، وآتاه للخير. وقال في صفة حوضِه ﷺ: «ماؤه أبيض من اللبن»[٦]. وقال عمر بن الخطاب: فهو لما سواها أضْيع[٧].

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ لما اقتضى قوله تعالى: «لنعلمَ أيُّ الحزبين أحصى» اختلافاً وقع في أمدِ الفِتْية، عقَّب بالخبر عن أنَّه عزَّ وجلَّ يَعلَم من أمرهم بالحقِّ الذي وقع.

وقوله تعالى: «إنّهم فِتْيَةٌ» أي: شبابٌ وأحداث حكم لهم بالفتوَّة حين آمنوا بلا واسطة، كذلك قال أهلُ اللسان: رأس الفتوَّة الإيمان. وقال الجُنيد: الفتوَّة: بَذْلُ النَّدَى وكفُّ الأذى وتَرْكُ الشكوى. وقيل: الفُتوَّة: اجتنابُ المحارم واستعجالُ المكارم[٨].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١ .

(٣) في تفسيره ١/ ٣٧٤ .

(٤) في تفسيره ١٥/ ١٧٨ .

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ .

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٧) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٦ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١٩٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٨) ينظر مدارج السالكين ٢/ ٣٤٢ .

وقيل غير هذا. وهذا القول حسن جدًّا؛ لأنَّه يعمُّ بالمعنى جميعَ ما قيل في الفتوَّة.

قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي: يسَّرناهم للعمل الصالح، من الانقطاعِ إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا. وهذه زيادةٌ على الإيمان[١]. وقال السُّدِّيُّ: زادهم هُدًى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافةَ أن يَنْبَح عليهم ويُنَبِّهَ بهم، فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه اللهُ، فقال: يا قومِ! لِمَ تطردونني، لم ترجمونني! لم تضربونني! فوالله لقد عرفتُ اللهَ قبل أن تعرفوه بأربعينَ سنةً، فزادهم اللهُ بذلك هُدًى[٢].

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدَّة عزْمٍ وقُوَّة صبرٍ، أعطاها اللهُ لهم حتى قالوا بين يدي الكفار: «رَبُّنَا رَبُّ السماواتِ والأرضِ لن نَدْعُوَ مِنْ دونِهِ إلهاً لقد قلنا إذاً شَطَطاً». ولما كان الفَزَع وخَوَر النفس يُشْبِه بالتناسب الانحلالَ، حَسُنَ في شدَّة النفس وقوَّة التصميم أن يُشْبِه الرَّبْطَ، ومنه يقال: فلانٌ رابطُ الجَأْش، إذا كان لا تَفْرَق نفسُه عند الفَزَع والحرب وغيرها. ومنه الرَّبْط على قلبِ أمِّ موسى[٣]. وقولُه تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] وقد تقدَّم[٤].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ يحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أن يكون هذا وصفَ مقامِهم بين يدي الملك الكافر، كما تقدَّم، وهو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٢) عرائس المجالس ص٤١٩ - ٤٢٠ بنحوه.

(٣) في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٤) ٩/ ٤٦٦.

مَقام يَحتاج إلى الرَّبْط على القلب حيث خالفوا دينَه، ورفضوا في ذات الله هيبته[١].

والمعنى الثاني فيما قيل: إنَّهم أولادُ عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراءَ تلك المدينة من غير ميعاد، فقال أسنُّهم: إني أجد في نفسي أنَّ ربِّي ربُّ السماوات والأرض، فقالوا: ونحن كذلك نجد في أنفسنا. فقاموا جميعاً فقالوا: «رَبُّنَا ربُّ السماوات والأرض لن نَدْعُوَ من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شَطَطاً»[٢]. أي: لئن دعَوْنا إلهاً غيرَه، فقد قلنا إذاً جَوْراً ومحالاً.

والمعنى الثالث: أن يُعَبَّر بالقيام عن انبعاثِهم بالعَزْم إلى الهروب إلى اللهِ تعالى ومنابذة الناس، كما تقول: قام فلانٌ إلى أَمْرِ كذا، إذا عزَم عليه بغاية الجِدِّ[٣].

الثانية: قال ابن عطية[٤]: تعلَّقت الصوفيَّة في القيام والقول بقوله: «إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض».

قلت: وهذا تعلّقٌ غيرُ صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا اللهَ على هدايته، وشكروا لِمَا أَولاهم من نعمه ونِعْمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعينَ إلى ربِّهم، خائفين من قومهم، وهذه سنَّة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضَرْبِ الأرض بالأقدام والرَّقص بالأكمام! وخاصَّةً في هذه الأزمان عند سماعِ الأصوات الحسان من المُرْد والنسوان، هيهات! بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرامٌ عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان[٥] إن شاء الله تعالى. وقد تقدَّم في «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ما فيه كفاية[٦]. وقال الإمام أبو بكر الطَّرَشُوشِيُّ وسئل عن مذهب الصوفيَّة فقال: وأما

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١ .

(٢) زاد المسير ٥/ ١١٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٩٧ - ٩٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١ .

(٥) عند الآية (١٨).

(٦) ص٨١ فما بعد من هذا الجزء.

الرَّقص والتواجد فأوَّل من أحدثه أصحابُ السَّامِرِيِّ؛ لمَّا اتخذ لهم عجلاً جسداً له خُوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دينُ الكفَّار وعُبَّاد العِجْل، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: هؤلاء قومُنا، أي: أهلُ عصرنا وبلدِنا، عبدوا الأصنامَ تقليداً من غير حجَّة. ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هَلَّا. ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ﴾ أي: بحجَّة على عبادتهم الصَّنَمَ. وقيل: «عليهم» راجع إلى الآلهة، أي: هلَّا أقاموا بيِّنةً على الأصنام في كونها آلهةً، فقولهم: «لولا» تحضيضٌ بمعنى التعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك، لم يجب أن يُلتفَت إلى دعواهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ قيل: هو من قولِ الله لهم. أي: وإذ اعتزلتموهم فَأْووا إلى الكهف. وقيل: هو من قولِ رئيسِهم يمليخا، فيما ذكر ابن عطية[2]. وقال الغَزْنَوِيُّ: رئيسهم مكسلمينا قال لهم ذلك، أي: إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون. ثم استثنى وقال ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: إنَّكم لم تتركوا عبادته، فهو استثناءٌ منقطع.

قال ابنُ عطية[3]: وهذا على تقدير أنَّ الذين فرَّ أهلُ الكهف منهم لا يعرفون الله، ولا عِلْم لهم به، وإنَّما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط. وإنْ فرضنا أنَّهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل، لكنَّهم يشركون أصنامَهم معه في العبادة، فالاستثناءُ متَّصل؛ لأنَّ الاعتزالَ وقع في كلِّ ما يعبد الكفار إلا في جهة الله. وفي

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨، وزاد المسير ٥/ ١١٦.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١ - ٥٠٢، وقراءة ابن مسعود ذكرها الطبري في التفسير ١٥/ ١٨٢.

مصحف عبد الله بنِ مسعود: «وما يعبدون من دون الله». قال قتادة: هذا تفسيرها.

قلت: ويدلُّ على هذا ما ذكره أبو نُعيم الحافظ[١] عن عطاءٍ الخُراسانِيِّ في قوله تعالى: «وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله» قال: كان فِتيةٌ من قوم يعبدون الله، ويعبدون معه آلهةً، فاعتزلت الفتيةُ عبادةَ تلك الآلهة، ولم تعتزل عبادةَ الله.

ابن عطية[٢]: فعلى ما قال قتادة تكون «إلَّا» بمنزلة «غير»، و«ما» مِن قوله: «وما يعبدون إلا الله» في موضع نصب، عطفاً على الضمير في قوله: «اعتزلتموهم». ومُضَمَّن هذه الآية أنّ بعضهم قال لبعضٍ: إذا فارَقْنا الكفَّارَ وانفردنا بالله تعالى، فلنجعل الكهفَ مأوًى ونتكلْ على الله؛ فإنَّه سيبسط لنا رحمتَه، وينشرها علينا، ويهيِّئ لنا من أمرنا مِرْفَقاً. وهذا كلُّه دعاءٌ بحسَب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله في أَمْرِ آخرتهم. وقال أبو جعفر محمد بن علي بنِ الحسين ﷺ: كان أصحابُ الكهف صياقلةً. واسم الكهف: حيوم[٣].

﴿مِّرْفَقًا﴾ قُرئ بكسر الميم وفتحها، وهو ما يُرتفق به. وكذلك مِرْفَق الإنسان ومَرْفِقه، ومنهم من يجعل: «المَرْفق» بفتح الميم، الموضع كالمسجد، وهما لغتان[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: ترى

---

(١) في حلية الأولياء ٥/ ٢٠٠ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٢ .

(٣) عرائس المجالس ص٤٢٠ ، ٤٢٣ وفيه أن أصحاب الكهف كانوا صيارفة، وأن اسم الكهف كان الوصيد، وقيل: خيرم.

(٤) قرأ نافع وابن عامر: بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الباقون: بكسر الميم وفتح الفاء. السبعة ص٣٨٨ ، والتيسير ص١٤٢ ، وينظر معاني القرآن للنحاس ٢/ ٢٢٤ .

أيُّها المخاطَب الشمسَ عند طلوعها تَميلُ عن كهفهم. والمعنى: إنَّك لو رأيتهم لرأيتهم كذا، لا أنَّ المخاطَب رآهم على التحقيق[١].

و«تزاور»: تتنحَّى وتميل، من الازورار. والزَّوَر: المَيْل. والأزور في العين: المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين، كما قال ابن أبي رَبيعة[٢]:

. . . وجَنْبِي خِيفةَ القومِ أزْوَرُ

من اللفظة قول عنترة[٣]:

فازوَرَّ من وَقْع القَنَا بلَبَانه

وفي حديث غَزْوة مُؤْتة أنَّ رسولَ الله ﷺ رأى في[٤] سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير جعفر وزيد بن حارثة[٥].

وقرأ أهلُ الحَرَمين وأبو عمرو: «تزَّاوَرُ» بإدْغام التاء في الزاي، والأصل: «تتزاور». وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: «تَزَاوَرُ» مخففَّة الزاي. وقرأ ابن عامر «تَزْوَرُّ» مثل تحمرُّ[٦]. وحكى الفرَّاء[٧] «تزوارُّ» مثل تحمارُّ، كلُّها بمعنًى واحد.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بالتاء، على معنى: تتركهم، قاله مجاهد[٨].

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٩٩ .

(٢) في ديوانه ص٦٥ ، والبيت بتمامه فيه:

وخُفِّض عني الصوت أقبلتُ مشية الـ حباب وشخصي خشية الحي أزور

(٣) في ديوانه ص٣٠ ، وتمامه: وشكا إليَّ بعَبْرة وتحمحم

(٤) بعدها في (ظ): الجنة.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٢ - ٥٠٣ ، والخبر أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٣٦٨ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٥٩ - ١٦٠ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وأورده ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٣٨٠ .

(٦) السبعة ص٣٨٨ ، والتيسير ص١٤٢ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦ .

(٨) في تفسيره ١/ ٣٧٤ .

وقال قتادة: تَدَعهم[١]. النحَّاس: وهذا معروف في اللغة، حكى البصريون أنَّه يقال: قرضه يقرضه: إذا تركه، والمعنى: أنَّهم كانوا لا تُصيبهم شمسٌ ألبتة؛ كرامةً لهم، وهو قول ابن عباس[٢].

يعني أنَّ الشمسَ إذا طلعت مالت عن كهفهم ذاتَ اليمين، أي: يمينَ الكهف، وإذا غربت تمرُّ بهم ذاتَ الشمال، أي: شمالَ الكهف، فلا تصيبهم في ابتداءِ النهار ولا في آخرِ النهار. وكان كهفُهم مستقبِلَ بنات نَعْش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً وجاريةً لا تَبلغهم لتؤذيهم بحرِّها، وتغيِّر ألوانهم، وتُبْلِي ثيابهم[٣]. وقد قيل: إنَّه كان لكهفهم حاجبٌ من جهة الجنوب، وحاجبٌ من جهة الدَّبُور وهم في زاويته. وذهب الزجَّاج[٤] إلى أن فِعْلَ الشمس كان آيةً من الله، دون أن يكون بابُ الكهف إلى جهة تُوجِبُ ذلك.

وقرأت فرقة: «يقرضهم» بالياء، من القَرْضِ وهو القَطْع، أي: يقطعهم الكهف بظلِّه من ضوء الشمس[٥].

وقيل: «وإذا غربت تقرضهم» أي: يصيبهم يسيرٌ منها، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة، أي: تعطيهم الشمسُ اليسيرَ من شعاعها. وقالوا: كان في مَسِّها لهم بالعَشِيِّ؛ إصلاح لأجسادهم. وعلى الجملة فالآية في ذلك أنَّ الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفتُه لا إلى كهف آخر يتأذَّوْن فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار. وعلى هذا فيمكن أن يكون صَرْفُ الشمس عنهم بإظلالِ غمامٍ أو سببٍ آخر. والمقصود بيانُ حِفْظهم عن تطرُّق البلاء وتغيُّر الأبدان والألوان إليهم، والتأذِّي بحرٍّ أو بَرْدٍ.

---

(١) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤٠٠ ، والطبري ١٥/ ١٨٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٣٩ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣ ، وينظر البحر المحيط ٦/ ١٠٨ .

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: من الكهف. والفَجْوَة: المتَّسع، وجمعها فَجَوات وفِجَاء[١]، مثل رَكْوة ورِكاء ورَكَوات. وقال الشاعر:

ونحن مَلأْنا كلَّ وادٍ وفَجْوةٍ رجالاً وخيلاً غيرَ ميلٍ ولا عُزْلِ[٢]

أي: كانوا بحيث يصيبهم نسيمُ الهواء.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لطف بهم، وهذا يقوِّي قولَ الزجَّاج. وقال أهل التفسير: كانت أعينُهم مفتوحةً وهم نائمون، فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً[٣]. وقيل: تحسبهم أيقاظاً؛ لكثرة تقلُّبهم كالمستيقظ في مضجعه[٤]. و﴿أَيْقَاظًا﴾ جمع يَقِظ ويَقْظان، وهو المنتبه[٥].

﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كقولهم: وهم قومٌ ركوع وسجود وقعود، فوصف الجمع بالمصدر. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لئلَّا تأكلَ الأرضُ لحومَهم[٦]. قال أبو هريرة: كان لهم في كل عام تقليبتان. و قيل: في كل سنة مرَّة[٧]. وقال مجاهد: في كلِّ سبع سنين مرَّة. وقالت فرقة: إنما قُلِّبوا في التسع الأواخر، وأما في الثلاث مئة فلا[٨]. وظاهر كلام المفسرين أنَّ التقليبَ كان من فعل اللهِ، ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى.

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٦ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٩١ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٤ .

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٦٢ ، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٧ .

(٦) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ١٨٦ ، ١٩١ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٥٤ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٠١ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ ، ولم ينسب القول الأول إلى مجاهد، بل إلى فرقة أيضاً، والذي ورد في المصادر أن القول الثاني ـ وهو إنما قُلِّبوا في التسع الأواخر ـ هو قول مجاهد، ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٣ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٩١ ، وزاد المسير ٥/ ١١٨ .

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم﴾ قال عمرو بنُ دِينار: إنَّ ممَّا أُخِذَ على العقرب ألَّا تضرَّ أحداً قال في ليله أو في نهاره: صلى الله على نوح[١]. وإنَّ ممَّا أُخِذَ على الكلب ألَّا يضرَّ من حَمَل عليه إذا قال: وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد[٢].

أكثر المفسرين على أنَّه كلب حقيقةً، وكان لصيدِ أحدِهم أو لزرعه أو غنمه، على ما قال مقاتل. واختُلف في لونه اختلافاً كثيراً، ذكره الثعلبيّ[٣]. تحصيله: أيَّ لون ذكرتَ أصبتَ، حتى قيل: لون الحجر، وقيل: لون السماء. واختلف أيضاً في اسمه، فعن عليٍّ: ريَّان. ابن عباس: قطمير. الأوزاعي: مشير. عبد الله بن سَلَام: بسيط[٤]. كعب: صهيا. وهب: نقيا. وقيل: قطمير، ذكره الثعلبيُّ.

وكان اقتناءُ الكلب جائزاً في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا. وقال ابن عباس: هربوا ليلاً، وكانوا سبعةً، فمرُّوا براعٍ معه كلب فاتَّبَعَهم على دينهم. وقال كعب: مرُّوا بكلب فنبح لهم، فطردوه مراراً، فقام الكلبُ على رجليه ورفع يدَيْه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لا تخافوا مني! أنا أحِبُّ أحبَّاء الله تعالى، فناموا حتى أحرسَكم[٥].

الثانية: ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «من اقتنى كلباً إلا كلبَ صيد أو ماشية، نقص من أَجْره كلَّ يوم قيراطان»[٦]. وروى الصحيح أيضاً عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتخذ كلباً إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع، انْتُقِص من أجره كلَّ يوم قيراط». قال الزهريُّ: وذُكر لابنِ عمر قولُ أبي هريرة فقال:

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٠ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٥٦ ، من حديث أبي أمامة مرفوعاً، وأخرجه الأصبهاني في طبقات المحدثين ٣/ ٤٠٤ من قول الحسن ﷺ.

(٢) ينظر حياة الحيوان للدميري ٢/ ٣٠٤ .

(٣) في عرائس المجالس ص٤١٩ .

(٤) في عرائس المجالس: بطيط.

(٥) الوسيط ٣/ ١٣٩ ، وعرائس المجالس ص٤٢٥ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٠١ .

(٦) سلف ٧/ ٣١٢ .

يَرحم اللهُ أبا هريرة! كان صاحبَ زرع[١]. فقد دلَّت السُّنَّة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية. وجعل النقص في أَجْرِ من اقتناها على غير ذلك من المنفعة، إما لترويعِ الكلبِ المسلمينَ وتشويشِه عليهم بنباحه، أو لمَنْع دخول الملائكةِ البيتَ، أو لنجاسته، على ما يراه الشافعيُّ، أو لاقتحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعةَ فيه، والله أعلم. وقال في إحدى الروايتين: «قيراطان»، وفي الأخرى: «قيراط». وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشدُّ أذًى من الآخر، كالأسود الذي أَمَرَ عليه الصلاة والسلام بقَتْله، ولم يُدخله في الاستثناء حين نهى عن قَتْلها، كما هو منصوص في حديث جابر، أخرجه الصحيح، وقال: «عليكم بالأسود البَهيم ذي النُّقطتين فإنه شيطان»[٢]. ويحتمل أن يكون ذلك؛ لاختلافِ المواضع، فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكَّة ينقص قيراطان، وبغيرها قيراط. وأما المباح اتخاذُه، فلا ينقص، كالفرس والهِرَّة، والله أعلم.

الثالثة: وكلب الماشية المباح اتخاذُه عند مالكٍ هو الذي يَسْرَح معها، لا الذي يحفظها في الدار من السُّرَّاق. وكلب الزرع هو الذي يَحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السُّرَّاق. وقد أجاز غيرُ مالك اتخاذَها لسُرَّاق الماشية والزرع. وقد تقدَّم في «المائدة»[٣] من أحكام الكلاب ما فيه كفاية، والحمد لله.

الرابعة: قال ابنُ عطية[٤]: وحدَّثني أبي ﷺ، قال: سمعت أبا الفضل الجوهريَّ في جامع مصر يقول على منبر وَعْظه سنةَ تسعٍ وستينَ وأربع مئة: إنَّ مَن أحبَّ أهلَ الخير، نال من بركتهم، كلبٌ أحبَّ أهلَ فَضْلٍ وصَحِبَهم، فذكره اللهُ في محكم تنزيله.

---

(١) سلف ٧/ ٣١٢.

(٢) سلف ٧/ ٣١٣.

(٣) ٧/ ٢٩٩ وما بعدها.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤.

قلت: إذا كان بعضُ الكلاب قد نال هذه الدرجةَ العليا بصُحبته ومخالطته الصلحاءَ والأولياءَ حتى أخبر اللهُ تعالى بذلك في كتابه جلَّ وعلا فما ظنُّك بالمؤمنين الموحِّدين المخالطين المحبِّين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسليةٌ وأُنْسٌ للمؤمنين المقصِّرين عن درجاتِ الكمال، المحبِّين للنبيِّ ﷺ وآلِه خيرِ آل[١].

روى الصحيح عن أنس بنِ مالك قال: بينا أنا ورسولُ الله ﷺ خارجان من المسجد، فلقِيَنا رجلٌ عند سُدَّة المسجد فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددتَ لها» قال: فكأنَّ الرجلَ استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنِّي أحِبُّ اللهَ ورسوله. قال: «فأنتَ مع من أحببتَ»[٢]. في رواية قال أنس بنُ مالك: فما فَرِحنا بعد الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبيِّ ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أُحِبُّ اللهَ ورسولَه وأبا بكر وعمرَ، فأرجو أن أكونَ معهم وإن لم أعمل بأعمالهم[٣].

قلت: وهذا الذي تمسَّك به أنس يَشمل من المسلمين كلَّ ذي نفس، فكذلك تعلَّقت أطماعنا بذلك وإن كنَّا مقصِّرين، ورجونا رحمةَ الرحمن وإن كنَّا غيرَ مستأهلين، كلبٌ أحبَّ قوماً فذكرَه اللهُ معهم! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحبُّ النبيِّ ﷺ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقالت فرقة[٤]: لم يكن كلباً حقيقةً، وإنَّما كان أحدَهم، وكان قد قعد عند باب الغارِ طليعةً لهم[٥]؛ فسُمِّيَ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع[٦] كما سُمِّي

(١) ينظر لطائف الإشارات ٢/ ٣٨٤ .

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩): (١٦٤) واللفظ له.

(٣) البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩): (١٦٣).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٩٢ .

(٥) بعدها في (د) و(ز) زاد الناسخ قوله: قال ابن عطية ما ذكر موصلاً هنا موضعه وإنما تأخر عن موضعه. اهـ.

(٦) قوله: فسمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع. تأخَّر في (م) وجاء بعد قوله: قال ابن عطية. والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز.

النجمُ[١] التابعُ للجوزاء كلباً؛ لأنَّه منها كالكلب من الإنسان، ويقال له: كلب الجبَّار[٢]. قال ابنُ عطية[٣]: أمَا إنَّ هذا القولَ يُضعِفه ذِكْرُ بَسْطِ الذراعين فإنَّها في العرف من صفة الكلب حقيقةً، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «ولا يبسط أحدُكم ذراعَيْه انبساطَ الكلب»[٤].

وقد حكى أبو عمر المطرِّز في كتاب «اليواقيت» أنَّه قُرئَ: «وكالئهم[٥] باسط ذراعيه بالوصيد». فيحتمل أن يريد بالكالئ[٦] هذا الرجل على ما روي؛ إذ بَسْطُ الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رَفْعِ الوجه للتطلُّع هي هيئة الرِّيبة المستخفي بنفسه. ويحتمل أن يريد بالكالئ الكلبَ. وقرأ جعفر بن محمد الصادقُ: «وكالبهم» يعني: صاحبَ الكلب[٧].

قوله تعالى: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضِيِّ؛ لأنَّها حكايةُ حال ولم يقصد الإخبارَ عن فعل الكلب[٨].

والذراع: مِن طَرَف المرفق إلى طَرَف الأصبع الوسطى. ثم قيل: بَسَطَ ذراعيه؛ لطول المدَّة. وقيل: نام الكلب، وكان ذلك من الآيات. وقيل: نام مفتوحَ العين.

والوصِيد: الفِناء، قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبَير[٩]، أي: فناء الكهف،

---

(١) ليست في (د) و(ظ).

(٢) في (ظ): الخيار. وفي (ز): الحبار. وفي المحرر الوجيز: الحيار. اهـ. والجبَّار: اسم الجوزاء. القاموس المحيط (جبر).

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ .

(٤) سلف ٢/ ٢٦ .

(٥) في النسخ: وكالبهم. في الموضعين وكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ والكلام منه، والمثبت من البحر المحيط ٦/ ١٠٩ ، وروح المعاني ١٥/ ٢٢٦ ، قال أبو حيان: قرئ: وكالئهم، اسم فاعل من كَلَأَ، إذا حَفِظَ.

(٦) في (د) و(ظ) و(م): بالكالب، والمثبت من (ز) والبحر المحيط ٦/ ١٠٩ .

(٧) الكشاف ٢/ ٤٧٥ ، والبحر المحيط ٦/ ١٠٩ وورد عنده أبو جعفر، بدل: جعفر.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ ، والكشاف ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦ .

(٩) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ١٩٢ ، وينظر تفسير مجاهد ١/ ٣٧٥ .

والجمع وصائد ووُصُد. وقيل: الباب. وقاله ابن عباس أيضاً[١]. وأنشد:

بأرضِ فضاءٍ لا يُسَدُّ وصِيدُها عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ

وقد تقدَّم[٢]. وقال عطاء: عتبة الباب[٣]، والباب الموصد هو المغلق. وقد أوصدتُ البابَ وآصدته، أي: أغلقته. والوصيد: النبات المتقارب الأُصول[٤]، فهو مشترك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ الجمهور: بكسر الواو. والأعمش ويحيى بن وَثَّاب: بضمِّها[٥]. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي: لو أشرفتَ عليهم لهربتَ منهم. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لِمَا حفَّهم اللهُ تعالى من الرُّعب، واكتنفهم من الهيبة. وقيل: لوحشةِ مكانهم، وكأنَّهم آواهم اللهُ إلى هذا المكان الوَحْشِ في الظاهر لينفرَ الناسُ عنهم. وقيل: كان الناسُ محجوبين عنهم بالرعب، لا يَجْسُر أحدٌ منهم على الدُّنوِّ إليهم. وقيل: الفرار منهم؛ لطول شُعورهم وأظفارهم، ذكره المهدوِيُّ والنحَّاس والزجَّاج والقشيريُّ[٦]. وهذا بعيد؛ لأنَّهم لما استيقظوا قال بعضُهم لبعض: لبثنا يوماً أو بعضَ يوم. ودلَّ هذا على أنَّ شعورَهم وأظفارَهم كانت بحالها، إلا أن يقال: إنَّما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال ابنُ عطية[٧]: والصحيح في أمرهم أنَّ الله عزَّ وجلَّ حَفِظَ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكونَ لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يبْلَ لهم ثوبٌ، ولم تغيَّر صفةٌ، ولم يُنكِر الناهض إلى المدينة إلا معالمَ

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ١٩٤ .

(٢) سلف ص٢٠٣ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٩٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٥٤ .

(٤) الصحاح (وصد).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ ، وينظر الكشاف ٢/ ٤٧٦ ، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٠٩ ، والبحر المحيط ٦/ ١٠٩ .

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ .

(٧) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ - ٥٠٥ .

الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها، لكانت عليه أهم.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة: «لَمُلِّئْتَ منهم» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة، أي: مُلِئت، ثم مُلِئت. وقرأ الباقون: «لَمُلِئت» بالتخفيف، والتخفيف أشهرُ في اللغة[١]. وقد جاء التثقيل في قول المُخَبَّل السعدِيِّ[٢]:

وإذ فَتَكَ النُّعمان بالناس مُحْرِماً فملِّئ من كعبِ بن عوف سلاسِلُه

وقرأ الجمهور: ﴿رُعْبًا﴾ بإسكان العين. وقرأ بضمِّها أبو جعفر. قال أبو حاتم: هما لغتان[٣]. و«فراراً» نصب على الحال، و«رعباً» مفعول ثانٍ أو تمييز[٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ البعث: التحريك عن سكون[٥]. والمعنى: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدًى وقلَّبناهم، بعثناهم أيضاً، أي: أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئتهم في ثيابهم وأحوالهم. قال الشاعر:

وفِتْيَانِ صِدْقٍ قد بَعَثْتُ بسُحْرَةٍ فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونَشْوانِ[٦]

---

(١) السبعة ص٣٨٩ ، والتيسير ص١٤٣ ، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ والكلام منه.

(٢) المُخَبَّل السعدي هو: ربيع بن مالك بن ربيعة، والبيت في اللسان (فتك).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٥ .

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥١ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٥ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٥ .

(٦) القائل امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص٩١ ، قال شارحه: والعاثي: المتناول للشيء، والسُّحْرة: السَّحَر الأعلى، أول الأسحار.

أي: أيقظت: واللام في قوله: «ليتساءلوا» لام الصيرورة، وهي لام العاقبة، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فبعْثُهم لم يكن لأجل تساؤلهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنَّهم دخلوه غُدوةً، وبعثَهم اللهُ في آخر النهار، فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا: اللهُ أعلم بالمدَّة[١].

قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ **فيه سبع مسائل:**

الأولى: قال ابن عباس: كانت ورقُهم كأخفافِ الرُّبَع[٢]، ذكره النحاس.

وقرأ ابنُ كَثير ونافع وابن عامر والكسائيُّ وحفص عن عاصم: «بورِقكم» بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم: «بوَرْقكم» بسكون الراء، حذفوا الكسرةَ؛ لثقلها، وهما لغتان[٣]. وقرأ الزجَّاج[٤]: «بوِرْقكم» بكسر الواو وسكون الراء.

ويُروى أنَّهم انتبهوا جِياعاً، وأنَّ المبعوثَ هو تمليخا، كان أصغرَهم، فيما ذكر الغَزْنويُّ. والمدينة: أُفسُوس، ويقال: هي طَرسوس، وكان اسمها في الجاهلية: أفسوس، فلما جاء الإسلامُ سمَّوها: طرسوس[٥]. وقال ابنُ عباس: كان معهم دراهمُ عليها صورةُ الملِك الذي كان في زمانهم[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ قال ابنُ عباس: أحلُّ ذبيحةً؛ لأنَّ أهلَ بلدهم كانوا يذبحون على اسمِ الصنم، وكان فيهم قومٌ يُخْفُون إيمانَهم. ابن

---

(١) الوسيط ٣/ ١٤٠ .

(٢) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧١/ ٦٨ دون عزوٍ، قال ابن الأثير في النهاية (ربع): الرباع بكسر الراء، جمع رُبَع، وهو ما ولد من الإبل في الربيع، وقيل: ما ولد في أول النتاج.

(٣) السبعة ص٣٨٩ ، والتيسير ص١٤٣ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٢ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٥٥ .

(٦) الوسيط ٣/ ١٤٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٢١ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٠٣ .

عباس: كان عامَّتُهم مجوساً[١]. وقيل: «أزكى طعاماً» أي: أكثر بركةً. قيل: إنَّهم أمروه أن يشتري ما يُظنُّ أنَّه طعام اثنين أو ثلاثة؛ لئلا يُطَّلع عليهم، ثم إذا طُبخ كفى جماعة، ولهذا قيل ذلك الطعام: الأرز. وقيل: كان زبيباً. وقيل: تمراً، فالله أعلم. وقيل: «أزكى»: أطيب. وقيل: أرخص[٢].

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: بقُوت. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في دخول المدينة وشراء الطعام. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يُخبِرنَّ. وقيل: إن ظُهِر عليه، فلا يوقعنَّ إخوانَه فيما وقع فيه.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال الزجَّاج[٣]: معناه بالحجارة، وهو أخبثُ القتل. وقيل: يرموكم بالسَّبِّ والشَّتم[٤]، والأوَّل أصحُّ؛ لأنَّه كان عازماً على قَتْلهم، كما تقدَّم في قَصصهم. والرجم فيما سلف هي كانت ـ على ما ذكر ـ قِتْلَةَ مخالفِ[٥] دينِ الناس، إذ هي أشفى لجملة[٦] أهل ذلك الدِّين من حيث إنَّهم يشتركون فيها.

الثالثة: في هذه البِعْثة بالوَرِق دليلٌ على الوَكالة وصحَّتها. وقد وكَّل عليٌّ بن أبي طالب أخاه عَقيلاً عند عثمان ﷺ، ولا خلافَ فيها في الجملة[٧]. والوَكالة معروفة في الجاهلية والإسلام، أَلا ترى إلى عبد الرحمن بنِ عَوف كيف وكَّل أميَّة بنَ خَلَف بأهله وحاشيته بمكَّة، أي: يحفظهم، وأميَّة مُشرِك، والتزم عبدُ الرحمن لأميَّة من حَفِظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك؛ مجازاةً لصنعه، روى البخاريُّ عن عبد الرحمن بنِ عوف قال: كاتبتُ أميَّة بنَ خَلَف كتاباً بأن يحفظني في صاغِيَتي بمكَّة وأحفظه في صاغِيَته

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ١٠٣ .

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢١٢ - ٢١٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٩٤ ، وزاد المسير ٥/ ١٢٣ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢١٥ وعزاه إلى ابن جريج.

(٥) في النسخ: ما ذكر قبله مخالفة، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٦ ، والكلام منه.

(٦) في المحرر الوجيز: لحملة.

(٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٨١ .

بالمدينة، فلما ذكرتُ الرحمنَ، قال: لا أَعرفُ الرحمنَ! كاتِبْني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبدَ عمرٍو... وذكر الحديث[١]. قال الأصمعيُّ: صاغية الرجل: الذين يَميلون إليه ويأتونه، وهو مأخوذ من صغا يَصْغُو ويَصْغَى إذا مال، وكلُّ مائل إلى الشيء أو معه، فقد صغا إليه وأَصغى، من كتاب «الأفعال»[٢].

الرابعة: الوكالة عقدُ نيابةٍ، أذِن اللهُ سبحانه فيه؛ للحاجة إليه، وقيام المصلحة في ذلك، إذ ليس كلُّ أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونةٍ من غيره، أو بترفُّه[٣]، فيستنيب من يريحه.

وقد استدل علماؤنا على صحَّتها بآيات من الكتاب، منها هذه الآية، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠]، وقوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣].

وأما من السنة: فأحاديث كثيرة، منها حديث عروة البارِقِيِّ، وقد تقدَّم في آخر الأنعام[٤]. روى جابر بنُ عبد الله قال: أَردتُ الخروجَ إلى خَيْبَر، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت له: إنِّي أردت الخروج إلى خيبر، فقال: «إذا أتيتَ وكيلي، فخذ منه خمسةَ عشَر وَسْقاً، فإن ابتغى منك آيةً، فضع يدك على تَرْقُوَته» خرَّجه أبو داود[٥]. والأحاديث كثيرة في هذه المعنى، وفي إجماع الأمة على جوازها كفايةٌ.

الخامسة: الوكالة جائزة في كلِّ حقٍّ تجوز النيابةُ فيه، فلو وكَّل الغاصبُ، لم يجز، وكان هو الوكيلَ؛ لأنَّ كلَّ محرَّم فعله، لا تجوز النيابة فيه.

السادسة: في هذه الآية نُكْتة بديعة، وهي أنَّ الوكالة إنَّما كانت مع التَّقِيَّة[٦]

---

(١) البخاري (٢٣٠١).

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ١٥٩ ، والأفعال للسرقسطي ٣/ ٣٨٣ ، ولابن القطاع ٢/ ٢٥٦ بنحوه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٦ ، وفيه: يترفَّه، بدل: بترفُّه.

(٤) ٩/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(٥) في سننه (٣٦٣٢)، وأخرجه أيضاً الدارقطني (٤٣٠٤)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٨٠ . قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ٥١ : رواه أبو داود من طريق وهب بن كيسان عن جابر بسند حسن. اهـ، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٦ - ١٢١٧ .

(٦) في (ظ): البقية.

خوفَ أن يشعرَ بهم أحدٌ؛ لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم. وجواز توكيل ذوي العُذر متفَق عليه، فأمَّا من لا عذرَ له، فالجمهور على جوازها. وقال أبو حنيفة وسُحْنون: لا تجوز. قال ابنُ العربيِّ[١]: وكأنَّ سُحنونَ تلقَّفه من أسد بنِ الفُرات، فحكم به أيام قضائه، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت؛ إنصافاً منهم، وإذلالاً لهم، وهو الحقُّ؛ فإنَّ الوكالةَ معونةٌ ولا تكون لأهل الباطل.

قلت: هذا حسن، فأمَّا أهلُ الدين والفَضْل، فلهم أن يوكِّلوا وإن كانوا حاضرين أصحَّاء، والدليل على صحَّة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرَّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبيِّ ﷺ سِنٌّ من الإبل، فجاء يتقاضاه فقال: «أَعطوه» فطلبوا له سِنَّه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقَها، فقال: «أَعطوه» فقال: أَوْفَيْتَنِي، أَوْفَى الله لك. قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ خيرَكم أحسنُكم قضاء». لفظ البخاري[٢]. فدلَّ هذا الحديث ـ مع صحَّته ـ على جواز توكيلِ الحاضر الصحيح البدن، فإنَّ النبيَّ ﷺ أَمَر أصحابه أن يُعطوا عنه السِّنَّ التي كانت عليه، وذلك توكيلٌ منه لهم على ذلك، ولم يكن النبيُّ ﷺ مريضاً ولا مسافراً، وهذا يردُّ قولَ أبي حنيفة وسُحنون في قولهما: إنَّه لا يجوز توكيلُ الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه، وهذا الحديث خلافُ قولهما.

السابعة: قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: تضمَّنت هذه الآيةُ جواز الشركة؛ لأنَّ الوَرِق كان لجميعهم. وتضمَّنت جوازَ الوكالة؛ لأنَّهم بعثوا من وكلَّوه بالشراء. وتضمَّنت جواز أكْلِ الرُّفقاء وخَلْطهم طعامهم معاً، وإن كان بعضُهم أكثرَ أكْلاً من الآخر[٣]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] حسبما تقدَّم بيانه في «البقرة»[٤]. ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتصدَّق عليه فيخلطه بطعام لغنيٍّ ثم يأكل معه: إنَّ

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢١٩ ، والكلام السابق منه.

(٢) في «صحيحه» (٢٣٠٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (١٦٠١)، وأحمد (٩١٠٦).

(٣) أحكام القرآن للهراسي ٣/ ٢٦٥ ، ولابن العربي ٣/ ١٢١٨ بنحوه.

(٤) ٣/ ٤ .

ذلك جائزٌ. وقد قالوا في المضارِب يَخلط طعامَه بطعام غيره ثم يأكل معه: إنَّ ذلك جائزٌ. وقد كان رسول الله ﷺ وكَّل من اشترى له أُضْحية. قال ابنُ العربي[١]: ليس في الآية دليلٌ على ذلك؛ لأنَّه يحتمل أن يكون كلُّ واحد منهم قد أعطاه منفرداً، فلا يكون فيه اشتراك، ولا مُعَوَّل في هذه المسألة إلا على حديثين: أحدهما: أنَّ ابنَ عمر مَرَّ بقوم يأكلون تمراً فقال: نهى رسولُ الله ﷺ عن الإقران[٢] إلا أن يستأذن الرجلُ أخاه[٣]. الثاني: حديث أبي عبيدة في جيش الخَبَط[٤]. وهذا دون الأوَّل في الظهور؛ لأنَّه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يُعطيهم كَفافاً من ذلك القوت، ولا يَجمعهم عليه.

قلت: ومما يدلُّ على خلاف هذا من الكتاب قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١] على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۗ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطلعنا عليهم وأظهرناهم. و«أَعْثر» تعديةُ عَثَر بالهمزة، وأصل العِثار في القدم[٥].

﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني الأمَّة المسلمة الذين بُعث أهلُ الكهف على عهدهم. وذلك أنَّ دقيانوس مات ومضت قرون، وملك أهل تلك الدار رجلٌ صالح،

---

(١) في أحكام القرآن ٣/١٢١٨.

(٢) في (د) و(ز) و(م): الاقتران، والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٥)، ومسلم (٢٠٤٥)، وأحمد (٥٠٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٦١)، ومسلم (١٩٣٥)، وأحمد (١٤٣١٥)، قال ابن حجر في فتح الباري ٨/٧٩: والخَبَط: ورق السَّلَم.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٥٠٦.

فاختلف أهلُ بلده في الحشر وبَعْثِ الأجساد من القبور، فشكَّ في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنَّما تُحشَر الأرواح، والجسد تأكله الأرض. وقال بعضهم: تُبعَث الروح والجسد جميعاً، فكبُر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يتبيَّن أمره لهم، حتى لبس المُسُوح وقعد على الرَّماد وتضرَّع إلى الله تعالى في حجَّة وبيان، فأعثر اللهُ على أهل الكهف[١].

فيقال: إنَّهم لما بعثوا أحدهم بوَرِقهم إلى المدينة ليأتيهم برزقٍ منها، اسْتُنْكِر شخصُه واسْتُنْكرت دراهمه[٢]؛ لبُعد العهد، فحُمل إلى الملك، وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه، فلما نظر إليه قال: لعلَّ هذا من الفِتْية الذين خرجوا على عَهْد دِقيانوس الملك، فقد كنت أدعو اللهَ أن يُرِيَنِيهم، وسأل الفتى، فأخبره[٣]، فسُرَّ الملِكُ بذلك وقال: لعلَّ اللهَ قد بعث لكم آيةً، فلْنَسِرْ إلى الكهف معه، فركب مع أهل المدينة إليهم، فلما دنَوْا إلى الكهف قال تمليخا: أنا أدخل عليهم لئلَّا يَرْعَبُوا، فدخل عليهم فأعلمهم الأمرَ، وأنَّ الأمَّةَ أمَّةُ إسلام، فرُوِي أنَّهم سُرُّوا بذلك، وخرجوا إلى الملك وعظَّموه وعظَّمهم، ثم رجعوا إلى كهفهم. وأكثر الروايات على أنَّهم ماتوا ـ حين حدَّثهم تمليخا ـ ميتة الحقِّ، على ما يأتي. ورجع من كان شكَّ في بَعْث الأجساد إلى اليقين. فهذا معنى: «أعثرنا عليهم».

﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليعلم الملكُ ورعيته أنَّ القيامةَ حقٌّ والبعثَ حقٌّ.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم، وهابوا الدخولَ عليهم، فقال الملك: ابنوا عليهم بنياناً، فقال الذين هم على دين الفتية: اتَّخِذوا عليهم مسجداً. وروي أنَّ طائفةً كافرةً قالت: نبني بِيعةً أو مصنعاً[٤]، فمانعهم

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧.

(٢) في (ظ): وَرِقه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٩٥.

(٤) في (ظ): مصنع، وفي (د): مضيعاً، وفي (م): مضيفاً، والمثبت من (ز) والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧، والكلام منه.

المسلمون، وقالوا: لنتخذنَّ عليهم مسجداً. وروي أنَّ بعضَ القوم ذهب إلى طَمْسِ الكهف عليهم وتَرْكِهم فيه مغيَّبين.

ورُوي عن عبيد بنِ عمير[١] أنَّ اللهَ تعالى أعمى على الناس حينئذٍ أثَرهم، وحجبهم عنهم، فذلك دعا إلى بناء البنيان؛ ليكون مَعْلَماً لهم.

وقيل: إنَّ الملكَ أراد أن يدفنَهم في صندوق من ذهب، فأتاه آتٍ منهم في المنام فقال: أردتَ أن تجعلنا في صندوق من ذهب، فلا تفعل؛ فإنَّا من التراب خُلقنا وإليه نعود، فدَعْنا[٢].

وتنشأ هنا مسائلُ ممنوعةٌ وجائزةٌ؛ فاتِّخاذ المساجد على القبور والصلاةُ فيها والبناء عليها، إلى غيرِ ذلك مما تضمَّنته السنة من النهي عنه، ممنوعٌ لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذيُّ عن ابنِ عباس قال: لعن رسولُ اللهِ ﷺ زوَّارات القبور والمتَّخذين عليها المساجدَ والسُّرُج[٣]. قال الترمذيُّ: وفي الباب عن أبي هريرة[٤] وعائشة[٥]، حديث ابن عباس حديث حسن. وروى الصحيحان[٦] عن عائشة أنَّ أمَّ حبيبة وأمَّ سلمة ذكرتا كنيسةً رَأَيْنها بالحبشة ـ فيها تصاويرُ ـ لرسولِ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بَنَوْا على قبره مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرارُ الخَلْق عند الله تعالى يوم القيامة». لفظ مسلم. قال علماؤنا: وهذا يحرِّم على المسلمين أن يتَّخذوا قبورَ الأنبياء والعلماء مساجدَ. وروى الأئمة عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا

---

(١) في (د) و(م): عبد الله بن عمر، والمثبت من (ز) و(ظ) والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٩٦.

(٣) أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٥٧٥) مختصراً، وهو عند أحمد (٢٦٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠)، وهو عند أحمد (٧٨٢٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)، وهو عند أحمد (٢٤٠٦٠).

(٦) سلف ٢/ ٢٩٤.

تُصَلُّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» لفظ مسلم[١]. أي: لا تتخذوها قبلةً فتصلُّوا عليها أو إليها، كما فعل اليهود والنصارى؛ فيؤدي إلى عبادةِ من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذَّر النبيُّ ﷺ عن مِثْلِ ذلك، وسَدَّ الذرائعَ المؤدِّية إلى ذلك فقال: «اشتدَّ غَضَبُ اللهِ على قوم اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم وصالحيهم مساجدَ»[٢].

وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بنِ عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طَفِق يَطرحُ خَميصةً له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها، كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنةُ اللهِ على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ» يحذِّر ما صنعوا[٣].

وروى مسلم[٤] عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُجَصَّص القبرُ، وأن يُقعدَ عليه، وأن يُبنى عليه. وخرَّجه أبو داود والترمذيُّ أيضاً عن جابر قال: نهى رسولُ الله ﷺ أن تُجَصَّص القبور، وأن يُكتَب عليها، وأن يُبْنَى عليها، وأن توطأ[٥]. قال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح.

وروى الصحيح عن أبي الهَيَّاج الأسديِّ قال: قال لي عليُّ بنُ أبي طالب: ألا أبْعَثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألَّا تَدَعَ تمثالاً إلا طَمَسته، ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سوَّيته. في رواية: ولا صورةً إلا طمستها. وأخرجه أبو داود والترمذيُّ[٦].

قال علماؤنا: ظاهره مَنْعُ تسنِيم القبور ورَفْعِها، وأن تكون لاطئةً. وقد قال به بعضُ أهل العلم، وذهب الجمهور إلى أنَّ هذا الارتفاعَ المأمورَ بإزالته هو ما زاد على التسنيم، ويبقى للقبر ما يُعرف به ويُحترم، وذلك صفةُ قبر نبيِّنا محمد ﷺ وقبرِ صاحبَيْه

---

(١) سلف ١٢/ ٢٤٧ .

(٢) المفهم ٢/ ١٢٨ و٦٢٨، والحديث أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٧٢ من حديث عطاء بن يسار ﷺ مرسلاً.

(٣) سلف ٢/ ٢٩٥ .

(٤) في صحيحه (٩٧٠)، وهو عند أحمد (١٤١٤٩).

(٥) أبو داود (٣٢٢٥)، والترمذي (١٠٥٢)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٢١٦٥)، وابن ماجه (١٥٦٢).

(٦) مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩)، وهو عند أحمد (٧٤١).

رضي الله عنهما ـ على ما ذكر مالك في «الموطأ»[١] ـ وقبر أَبينا آدمَ ﷺ، على ما رواه الدارقطنيُّ[٢] من حديث ابنِ عباس. وأما تعليةُ البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهليَّة تفعله تفخيماً وتعظيماً، فذلك يُهدَم ويُزال؛ فإنَّ فيه استعمالَ زينة الدنيا في أوَّل منازلِ الآخرة، وتشبُّهاً بمن كان يعظِّم القبورَ ويَعبدها. وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي ينبغي أن يقال: هو حرام[٣].

والتسنيم في القبر: ارتفاعُه قَدْرَ شبر، مأخوذ من سَنام البعير[٤]. ويُرَشّ عليه بالماء؛ لئلَّا ينتثرَ بالريح. وقال الشافعيُّ: لا بأس أن يطيَّن القبر. وقال أبو حنيفة: لا يُجصَّص القبر، ولا يطيَّن، ولا يُرفَع عليه بناء، فيسقط[٥].

ولا بأسَ بوضْع الأَحجار؛ لتكون علامةً؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال: حدَّثنا مُسدَّد، حدَّثنا نوح بن درّاج، عن أبان بنِ تغْلِب، عن جعفر بنِ محمد، قال: كانت فاطمةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ تزور قبرَ حمزة بنِ عبد المطلب كلَّ جمعةٍ وعلَّمته بصخرة، ذكره أبو عمر[٦].

وأما الجائزة: فالدفن في التابوت، وهو جائز لا سيَّما في الأرض الرِّخْوة. ورُوي أنَّ دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حَجَر[٧]، وأنَّ يوسفَ عليه السلام

---

(١) المفهم ٢/ ٦٢٥ - ٦٢٦ ، ولم نقف عليه في الموطأ، وأخرج البخاري (١٣٩٠) عن سفيان التمَّار أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنَّماً. اهـ قال ابن حجر في فتح الباري ٣/ ٢٥٧ : زاد أبو نعيم في المستخرج: وقبر أبي بكر وعمر كذلك. اهـ. وأخرج أبو داود (٣٢٢٠) من طريق القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: دخلت على عائشة فقلت: يا أمَّه اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء.

(٢) في سننه (١٨١٢)، وفيه عبد الرحمن بن مالك بن مغول، وهو متروك.

(٣) المفهم ٢/ ٦٢٦ - ٦٢٧ .

(٤) تهذيب اللغة ١٦/ ١٦ ، والصحاح (سنم).

(٥) الأم ١/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، وبدائع الصنائع ٢/ ٣٥٩ .

(٦) في التمهيد ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٧) ذكر الشريف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١/ ٣٩٥ أن بنهر تستر فيما يقال تابوت دانيال.

أوصى بأن يُتَّخذ له تابوتٌ من زجاج ويُلقَى في رَكِيَّة؛ مخافةَ أن يُعبَد، وبقي كذلك إلى زمانِ موسى صلوات الله عليهم أجمعين، فدلَّته عليه عجوزٌ، فرفعه ووضعه في حظيرة إسحاق عليه السلام[١]. وفي الصحيح عن سعد بنِ أبي وَقّاص أنَّه قال في مرضه الذي هلك فيه: اتَّخذوا لي لَحْداً، وانْصِبوا عليَّ اللَّبِن نَصْباً، كما صُنع برسول الله ﷺ[٢].

اللَّحد: هو أن يشقَّ في الأرض ثم يُحفَر قبرٌ آخرُ في جانب الشَّقِّ من جانب القِبْلة إن كانت الأرض صُلْبةٌ، يُدخَل فيه الميتُ ويُسَدّ عليه باللَّبِن. وهو أفضلُ عندنا من الشَّقِّ؛ لأنَّه الذي اختاره اللهُ تعالى لرسول الله ﷺ[٣]. وبه قال أبو حنيفة قال: السُّنَّة اللَّحد. وقال الشافعي: الشَّقُّ.ويكره الآجُرُّ في اللَّحد. وقال الشافعي: لا بأس به؛ لأنَّه نوعٌ من الحجر. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ لأنَّ الآجرَّ لإحكام البناء، والقبر وما فيه للبِلَى، فلا يليقُ به الإحكام. وعلى هذا يسوَّى بين الحجر والآجرِّ. وقيل: إنَّ الآجُرَّ أثر النار فيكره تفاؤلاً، فعلى هذا يفرَّق بين الحجر والآجرِّ. قالوا: ويستحبُّ اللَّبِن والقَصَب؛ لما رُوي أنَّه وضع على قبر النبيِّ ﷺ حُزْمةٌ من قصب[٤]. وحكي عن الشيخ الإمام أبي بكر محمد بنِ الفضل الحنفيِّ رحمه الله أنَّه جوَّز اتخاذَ التابوت في بلادهم؛ لرخاوة الأرض. وقال: لو اتُّخذ تابوتٌ من حديد، فلا بأس به، لكن ينبغي أن يُفرَش فيه التراب، وتطيَّن الطبقةُ العليا مما يلي الميتَ، ويُجعل اللَّبِن الخفيفُ على يمين الميت ويساره؛ ليصير بمنزلة اللَّحد[٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٧ بنحوه، والركيَّة: البئر. القاموس (ركو).

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٦)، وأحمد (١٤٥٠).

(٣) المفهم ٢/ ٦٢٤ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣ عن الشعبي أن النبي ﷺ جعل على لحده طَنٌّ قصب. والطَّنُّ: حزمة القصب. القاموس (طنن).

(٥) ذكره بنحوه الكاساني في بدائع الصنائع ٢/ ٣٥٤ .

قلت: ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة في قبر النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ المدينةَ سَبِخة[١]، قال شُقْران: أنا والله طرحتُ القطيفةَ تحت رسولِ الله ﷺ في القبر. قال أبو عيسى الترمذيُّ: حديث شُقران حديثٌ حسن غريب[٢].

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الضمير في «سيقولون» يراد به أهلُ التوراة ومعاصري محمَّد ﷺ. وذلك أنَّهم اختلفوا في عددِ أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص[٣].

وقيل: المراد به النَّصارى، فإنَّ قوماً منهم حضروا النبيَّ ﷺ من نَجْران، فجرى ذِكْر أصحاب الكهف فقالت اليَعْقُوبِيَّة: كانوا ثلاثةً رابعهم كلبهم. وقالت النَّسْطورية: كانوا خمسةً سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعةً ثامنهم كلبهم[٤].

وقيل: هو إخبارٌ عن اليهود الذين أَمروا المشركين بمسألة النبيِّ ﷺ عن أصحاب الكهف.

والواو في قوله: «وثامنهم كلبهم» طريق النحويين أنَّها واو عطف دخلت في آخر إخبارٍ عن عددهم؛ لتفصِّل أمرهم، وتدلَّ على أنَّ هذا غاية[٥] ما قيل، ولو سقطت،

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في المراسيل ٤١٦ ، وابن أبي شيبة ٣/ ٣٣٦ عن الحسن مرسلاً، وجعل القطيفة في قبر النبي ﷺ أخرجه مسلم (٩٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سنن الترمذي (١٠٤٧)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤٦٨)، والطبراني في الكبير (٧٤٠٩).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧ .

(٤) الوسيط ٣/ ١٤٢ ، وزاد المسير ٥/ ١٢٤ .

(٥) في (ظ): نهاية. وكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨ والكلام منه.

لصحَّ الكلام. وقالت فرقة، منها ابنُ خَالَوَيْه: هي واو الثمانية. وحكى الثعلبيُّ عن أبي بكر بنِ عَيَّاش أنَّ قريشاً كانت تقول في عددها: ستَّة سبعة وثمانية، فتُدخل الواو في الثمانية[١]. وحكى نحوه القَفَّال، فقال: إنَّ قوماً قالوا: العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتِيج إلى الزيادة عليها، استؤنف خبرٌ آخر بإدخال الواو، كقوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. يدلُّ عليه أنَّه لمَّا ذكر أبواب جهنم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] بالواو. وقال: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ ثم قال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] فالسبعة نهاية العدد عندهم، كالعشَرة الآن عندنا[٢].

قال القُشيريُّ أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكُّم، ومن أين السبعةُ نهاية عندهم! ثم هو منقوضٌ بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] ولم يذكر الاسمَ الثامنَ بالواو.

وقال قومٌ ممن صار إلى أنَّ عددَهم سبعة: إنَّما ذكر الواو في قوله: «سبعة وثامنهم» لينبِّه على أن هذا العددَ هو الحقُّ، وأنَّه مباين للأعداد الأُخَر التي قال فيها أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدِّمتين: «رَجْماً بالغيب» ولم يذكره في الجملة الثالثة، ولم يَقدَح فيها بشيء، فكأنَّه قال لنبيِّه: هم سبعة وثامنهم كلبهم.

والرَّجْم: القول بالظنِّ، يقال لكل ما يُخرص: رَجَم فيه، ومرجوم ومُرَجَّم[٣]، كما قال:

وما الحربُ إلا ما علمتُم وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ[٤]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ١٢٥ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٥٦ ،وزاد المسير ٥/ ١٢٥ .

(٣) لسان العرب (رجم).

(٤) القائل زهير بن أبي سلمى، والبيت في ديوانه ص١٨ .

قلت: قد ذكر الماورديُّ[١] والغَزْنَوِيُّ: وقال ابن جريج ومحمد بنُ إسحاق: كانوا ثمانيةً، وجعلا قوله تعالى: «وثامنهم كلبهم» أي: صاحبُ كلبهم. وهذا مما يقوِّي طريقَ النحويين في الواو، وأنَّها كما قالوا[٢]. وقال القُشيريُّ: لم يذكر الواوَ في قوله: رابعهم، سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزاً، فطلبُ الحكمة والعلَّة في مثل هذه الواو تكلّفٌ بعيد، وهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]. وفي موضع آخر: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أن يردَّ عِلْم عدَّتهم إليه عزَّ وجلَّ. ثم أخبر أنَّ عالِمَ ذلك من البشر قليلٌ. والمراد به قوم من أهل الكتاب[٣]، في قول عطاء. وكان ابنُ عباس يقول: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعةً وثامنهم كلبهم[٤]، ثم ذكر السبعةَ بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير، كلب أنمر، فوق القَلَطِيّ ودون الكركيّ[٥]. وقال محمد بن سعيد بن المُسَيِّب: هو كلب صينيٌّ. والصحيح أنَّه زبيري. وقال: ما بقي بنيسابور محدِّث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يُقدَّر له. قال: وكتبه أبو عمرٍو الحِيريِّ عنِّي[٦].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك، وهو ردُّ عِلْم عدَّتهم إلى الله تعالى. وقيل: معنى المراء الظاهر

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٢٩٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢١٩ - ٢٢٠ ، وفي تاريخه ٢/ ٥ ، وابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٦٦ ، وعبد الرزاق في التفسير ١/ ٤٠٠ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٥٤ ، وعرائس المجالس ص٤١٩ ، والقَلَطي: القصير جداً من الناس والسنانير والكلاب. وورد في النسخ: الكردي، بدل الكركي. والمثبت من عرائس المجالس، والكركي: طائر كبير معروف. حياة الحيوان للدميري ٢/ ٢٧٣ .

(٦) عرائس المجالس ص٤١٩ .

أن تقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا تحتجَّ على أمر مقدَّر في ذلك[١]. وفي هذا دليل على أنَّ الله تعالى لم يبيِّن لأحد عدَدَهم فلهذا قال: «إلا مِرَاءً ظاهراً» أي: ذاهباً، كما قال:

وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[٢]

ولم يبح له في هذه الآية أن يمارِي، ولكن قوله: «إلَّا مِرَاءً» استعارةٌ من حيث يماريه أهلُ الكتاب، سمِّيت مراجعته لهم مِراءً، ثم قيد بأنّه ظاهر، ففارق المراءَ الحقيقيَّ المذمومَ. والضمير في قوله: «فيهم» عائدٌ على أهل الكهف. وفي قوله: «منهم» عائدٌ على أهل الكتاب المعارِضين. وقوله: «فلا تمار فيهم» يعني في عِدَّتهم، وحذفت العدَّة؛ لدلالة ظاهر القول عليها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ روي أنَّه عليه الصلاة والسلام سأل نصارى نَجْران عنهم، فنُهي عن السؤال[٤]. وفي هذا دليل على مَنْع المسلمين من مراجعة أهلِ الكتاب في شيء من العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام على قوله للكفار حينَ سألوه عن الرُّوح والفِتية وذي القرنين: غداً أُخبركم بجواب أسئلتكم،

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ .

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص٢١ ، وصدره:
وعيَّرها الواشون أنِّي أحبُّها

(٣) المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/١٣٨ ، والوسيط ٣/١٤٣ .

ولم يستثنِ في ذلك. فاحتبسَ الوحيُ عنه خمسة عشر يوماً حتى شقَّ ذلك عليه، وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرِّجة. وأُمِرَ في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور: إني أَفعل غداً كذا وكذا، إلَّا أن يُعلِّق ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ[١]، حتى لا يكون محقِّقاً لحكم الخبر، فإنَّه إذا قال: لأَفعلنَّ ذلك ولم يفعل، كان كاذباً، وإذا قال: لأَفعلنَّ ذلك إن شاء الله، خرج عن أن يكون محقِّقاً للمخبَر عنه. واللام في قوله «لشيء» بِمنزلة «في»، أو كأنَّه قال: لأجل شيء.

الثانية: قال ابن عطيَّة[٢]: وتكلَّم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآيةُ ليست في الأَيمان وإنما هي في سُنَّة الاستثناء في غير اليمين. وقوله: «إلا أن يشاء الله» في الكلام حَذْف يقتضيه الظاهر، ويحسِّنه الإيجاز، تقديره: إلا أن تقول: إلا أَنْ يشاء الله، أو إلا أن تقول: إن شاء الله، فالمعنى: إلا أَنْ تذكر مشيئةَ الله، فليس: «إلا أن يشاء الله»، من القول الذي نُهِي عنه.

قلت: ما اختاره ابنُ عطيَّة وارتضاه هو قول الكسائيِّ والفَرَّاء والأَخفش[٣]. وقال البصريون: المعنى: إلا بمشيئةِ الله. فإذا قال الإنسان: أَنا أَفعل هذا إن شاء الله، فمعناه: بمشيئة الله. قال ابنُ عطيَّة[٤]: وقالت فرقة: «إلا أن يشاء الله» استثناءٌ من قوله: «ولا تقولنَّ». قال: وهذا قول حكاه الطبريُّ[٥] وردَّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يُحكَى. وقد تقدَّم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في «المائدة»[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/١٣٨ ، وللأخفش ٢/٦١٨ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ - ٥٠٩ .

(٥) في التفسير ١٥/٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٦) ٨/١٣٧ .

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهو الأَمْر بالذِّكْر بعد النسيان، واختلف في الذِّكْر المأمور به، فقيل: هو قوله: «وقل عسى أن يَهْديني ربّي لأقرب من هذا رَشَداً». قال محمَّد الكوفيُّ المفسِّر: إنَّها بألفاظها مما أمِر أن يقولها كلُّ من لم يَسْتَثْنِ، وإنَّها كفارةٌ لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاءٌ مأمور به دون هذا التخصيص[١]. وقيل: هو قوله: «إن شاء الله» الذي كان نَسِيَه عند يمينه. حُكي عن ابن عباس[٢] أنَّه إن نسيَ الاستثناء ثم ذَكَر ولو بعد سنة؛ لم يَحنَث إن كان حالفاً. وهو قول مجاهد[٣].

وحكى إسماعيل بنُ إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى: «واذكر ربك إذا نسيت» قال: يَستثني إذا ذَكَره[٤]. الحسن: ما دام في مجلس الذِّكْر[٥]. ابن عباس: سنتين[٦]، ذكره الغزنويُّ قال: فيحمل على تَدارك التبرُّك بالاستثناء؛ للتخلُّص عن الإثم. فأما الاستثناء المفيد حكماً؛ فلا يصحُّ إلا متصلاً. السُّدِّي: أي: كل صلاة نسيها إذا ذَكَرها[٧]. وقيل: استثنِ باسمِه؛ لئلا تنسى. وقيل: اذكره متى ما نسيتَه. وقيل: إذا نسيتَ شيئاً، فاذكره يُذَكِّرْكَه. وقيل: اذكره إذا نسيتَ غيرَه أو نسيتَ نفسك؛ فذلك حقيقةُ الذِّكْر.

وهذه الآية مخاطبة للنبيِّ ﷺ، وهي استفتاحُ كلام على الأصحِّ، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء، وهي بعدُ تعمُّ جميعَ أمَّته؛ لأنَّه حكم يتردَّد في الناس لكثرة وقوعِه. والله الموفِّق.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٢٥ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٥ (١٢٧٥٨)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٩٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ ، وفيه: بعد سنتين.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٩٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ وعزاه إلى مجاهد.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٥٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدَّة لَبثهم، وفي قراءة ابنِ مسعود: «وقالوا لبثوا»[١]. قال الطبريُّ[٢]: إنَّ بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدَّة بعد الإعثار عليهم إلى مدَّة النبيِّ ﷺ، فقال بعضهم: إنَّهم لبثوا ثلاث مئة سنة وتِسْعَ سنين، فأخبر اللهُ تعالى نبيَّه أنَّ هذه المدَّة في كونهم نياماً، وأنَّ ما بعد ذلك مجهولٌ للبشر. فأمر اللهُ تعالى أن يردَّ عِلْم ذلك إليه.

قال ابن عطيَّة[٣]: فقوله على هذا: «لبثوا» الأوَّل يريد في نوم الكهف، و«لبثوا» الثاني يريد بعد الإعثارِ إلى مدَّة محمَّد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبَلاء[٤]. مجاهد: إلى وقت نزولِ القرآن. الضَّحَّاك: إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنَّه لما قال: «وازدادوا تسعاً» لم يَدْرِ الناس أهيَ ساعات، أم أيام، أم جُمَع، أم شهور، أم أعوام؟ واختلف بنو إسرائيلَ بحسَب ذلك، فأمر اللهُ تعالى بِرَدِّ العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمةٌ. وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنَّها أعوام، والظاهر من أَمْرهم أنَّهم قاموا ودخلوا الكهفَ بعد عيسى بيسيرٍ، وقد بقيت من الحواريين بقيَّة. وقيل غير هذا على ما يأتي.

قال القشَيْريُّ: لا يُفهَم من التِّسع تسعَ ليال وتسعَ ساعات؛ لسَبْق ذكر السنين، كما تقول: عندي مئة درهم وخمسة، والمفهوم منه خمسةُ دراهم. وقال أبو علي: «وازدادوا تسعاً» أي: ازدادوا لبثَ تسع، فحذف. وقال الضحَّاك: لما نزلت: «ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة» قالوا: سنين، أم شهور، أم جُمَع، أم أيام؟ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: «سنين»[٥]. وحكى النقَّاش ما معناه أنَّهم لبثوا ثلاث مئة سنة شمسيَّة بحساب

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٢٩ ، والكشاف ٢/ ٤٨١ .

(٢) في التفسير ١٥/ ٢٣١ ، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ .

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ .

(٤) في (ظ) والمحرر الوجيز: بالبلى. وهما بمعنى.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٣٠ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٦ (١٢٧٦٧).

الأيام، فلما كان الإخبارُ هنا للنبيِّ العربيِّ، ذكرت التسع، إذ المفهوم عنده من السنين القمريَّة، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابَيْن[١]. ونحوه ذَكَر الغزنويُّ. أي: باختلاف سنِي الشمس والقمر؛ لأنَّه يتفاوت في كلِّ ثلاث وثلاثين وثُلُث سنةٍ سنةً، فيكون في ثلاث مئة، تسع سنين.

وقرأ الجمهور: «ثلاث مئةٍ سنينَ» بتنوين مئة ونَصْب سنين، على التقديم والتأخير، أي: سنين ثلاث مئة، فقدَّم الصفةَ على الموصوف، فتكون «سنين» على هذا بدلاً، أو عَطْفَ بيان. وقيل: على التفسير والتمييز. و«سنين» في موضع سنة. وقرأ حمزة والكسائيُّ بإضافة مئة إلى سنين، وترك التنوين، كأنَّهم جعلوا سنينَ بمنزلة سنة، إذ المعنى بهما واحد[٢]. قال أبو عليٍّ[٣]: هذه الأعداد التي تُضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلاث مئة رجل وثوب، قد تُضاف إلى الجموع. وفي مصحف عبد الله: «ثلاث مئة سنة»[٤]. وقرأ الضحاك «ثلاث مئة سنون» بالواو. وقرأ أبو عمرو بخلاف «تَسْعاً» بفتح التاء[٥]، وقرأ الجمهور بكسرها. وقال الفرَّاء والكسائيُّ وأبو عبيدة: التقدير: ولبثوا في كهفهم سنين ثلاث مئة[٦].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ قيل: بعد موتهم إلى نزول القرآنِ فيهم،

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ .

(٢) السبعة ص٣٨٩ - ٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٣ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٨ .

(٣) في الحجة للقراء السبعة ٥/ ١٣٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ ، وذكرها ابن خالويه في الشواذ ص٧٩ ، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٨١ ونسباها إلى أُبَيٍّ. وينظر البحر المحيط ٦/ ١١٧ .

(٥) الشواذ ص٧٩.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٣ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٨ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٨ .

على قول مجاهد. أو إلى أَنْ ماتوا، على قول الضَّحَّاك. أو إلى وقت تغيُّرهم بالبِلَى، على ما تقدَّم. وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدَّة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادةً ونقصاناً[١]. أي: لا يَعلم عِلْم ذلك إلا الله أو مَن علَّمه ذلك ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصره وأسمعه. قال قتادة: لا أحدَ أبصرُ مِن الله ولا أسمعُ[٢]. وهذه عبارات عن الإدراك. ويحتمل أن يكون المعنى: «أبصر به» أي: بوَحْيِه وإرشادِه هداكَ وحُججكَ والحقَّ من الأمور، وأسمع به العالم، فيكونان أمرين لا على وجه التعجُّب[٣]. وقيل: المعنى: أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم[٤].

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: لم يكن لأصحاب الكهف وَلِيٌّ يتولَّى حِفْظهم دون الله. ويحتمل أن يعود الضمير في: «لهم» على معاصري محمَّد ﷺ من الكفَّار[٥]. والمعنى: ما لهؤلاء المختلفين في مدَّة لُبثهم وَلِيٌّ دون الله يتولَّى تدبيرَ أمرهم، فكيف يكونون أعلمَ منه، أو كيف يتعلَّمون من غيرِ إعلامه إيَّاهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ قرئ بالياء ورَفْع الكاف، على معنى الخبر عن الله تعالى. وقرأ ابنُ عامر والحسن وأبو رَجاء وقتادة والجَحْدَريُّ: ﴿ولا تُشْرِكْ﴾ بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبيِّ ﷺ، ويكون قوله: «ولا تشرك» عطفاً على قوله: «أبصر به وأسمع». وقرأ مجاهد: «يُشْرِكْ» بالياء من تحت والجَزْم. قال يعقوب: لا أعرف وجهَه[٦].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٠٠.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٣٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٠.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ - ٥١١.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥١١، وقراءة ابن عامر في السبعة ص٣٩٠، والتيسير ص١٤٣.

مسألة: اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفَنُوا، أو هم نيامٌ وأجسادهم محفوظة، فروي عن ابن عباس أنَّه مرَّ بالشام في بعض غزواته مع ناسٍ على موضع الكهف وجَبَله، فمشى الناسُ معه إليه، فوجدوا عظاماً فقالوا: هذه عظامُ أهل[١] الكهف. فقال لهم ابن عباس: أولئك قومٌ فَنُوا وعُدِموا منذ مدَّة طويلة، فسمعه راهبٌ فقال: ما كنتُ أحسِب أن أحداً من العرب يعرف هذا، فقيل له: هذا ابنُ عمِّ نبيِّنا ﷺ. وروت فرقةٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: لَيَحُجَّنَّ عيسى ابنُ مريم ومعه أصحابُ الكهف فإنَّهم لم يَحجُّوا بعدُ». ذكره ابن عطيَّة.

قلت: ومكتوب في التوراة والإنجيل أنَّ عيسى ابنَ مريم عبدُ الله ورسولُه، وأنَّه يمرُّ بالرَّوْحاء حاجًّا أو مُعْتَمِراً أو يَجمع اللهُ له ذلك فيجعل اللهُ حوارِيَّه أصحابَ الكهف والرقيم، فيمرُّون حجَّاجاً، فإنَّهم لم يحجوا ولم يموتوا. وقد ذكرنا هذا الخبرَ بكماله في كتاب «التذكرة»[٢]. فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يومِ القيامة، بل يموتونَ قُبيلَ الساعة.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قيل: هو من تمامِ قصةِ أصحاب الكهف، أي: اتبعِ القرآنَ، فلا مُبدِّلَ لكلماتِ اللهِ، ولا خُلفَ فيما أَخبر به من قصةِ أصحاب الكهف[٣]. وقال الطبري[٤]: لا مغيِّر لما أَوعدَ بكلماتِه أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه، ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أنتَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إنْ لم تتبعِ القرآنَ وخالفته ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأً. وقيل: موئلاً[٥]. وأصلُه الميلُ، ومَن لجأتَ إليه، فقد

(١) في (ظ): أصحاب. وكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١ والكلام منه.

(٢) ص٦٨٦ .

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ١٤٤ .

(٤) في تفسيره ١٥/ ٢٣٤ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٠١ .

مِلْتَ إليه. قال القُشَيْرِيُّ أبو نصر عبد الرحيم: وهذا آخرُ قصةِ أصحاب الكهف.

ولما غزا معاويةُ غزوةَ المضيق نحو الروم وكان معه ابنُ عباس، فانتهى إلى الكهفِ الذي فيه أصحابُ الكهف، فقال معاويةُ: لو كُشِف لنا عن هؤلاء فننظرَ إليهم، فقال ابنُ عباس: قد منعَ الله مَن هو خَيرٌ منك عن ذلك، فقال: «لو اطلعتَ عليهم لولَّيْتَ منهم فِراراً» فقال: لا أنتهي حتى أعلمَ علمَهم، وبعثَ قوماً لذلك، فلما دخلوا الكهفَ، بعثَ الله عليهم ريحاً فأخرجتهم[١]، ذكره الثعلبي أيضاً. وذَكر[٢] أنَّ النبيَّ ﷺ سألَ الله أن يريَه إياهم، فقال: إنَّك لن تراهم في دارِ الدنيا، ولكن ابعثْ إليهم أربعةً من خيارِ أصحابك ليبلِّغوهم رسالتَك ويدعوهم إلى الإيمان، فقال النبيُّ ﷺ لجبريلَ عليه السلام: كيف أَبعثُهم؟ فقال: ابسط كساءَك، و أَجلِسْ على طرفٍ من أطرافه أبا بكر، وعلى الطرفِ الآخر عمرَ، وعلى الثالث عثمانَ[٣]، وعلى الرابع عليَّ بنَ أبي طالب، ثم ادع الريحَ الرُّخاءَ المسخرة لسليمان، فإنَّ الله تعالى يأمُرها أن تطيعَك، ففعل فَحملتهم الريحُ إلى بابِ الكهفِ، فقَلعوا منه حجراً، فحَمل الكلبُ عليهم، فلمَّا رآهم حَرَّك رأسَه، وبَصبَص بذَنَبه، وأوْمأ إليهم برأسه أنِ ادخلوا فدَخلوا الكهفَ، فقالوا: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، فردَّ الله على الفِتية أرواحَهم، فقاموا بأجمعِهم وقالوا: وعليكم السلام[٤] ورحمةُ الله وبركاته، فقالوا لهم: معشرَ الفِتْية، إنَّ النبيَّ محمد بنَ عبد الله ﷺ يقرأُ عليكم السلامَ، فقالوا: وعلى محمدٍ رسولِ الله السلامُ ما دامتِ السماواتِ والأرضُ، وعليكم بما أَبلغتُم، وقَبِلوا دينَه، وأسلموا، ثم قالوا: أَقرئوا محمداً رسولَ الله منَّا السلام، وأَخذوا مضاجعَهم وصاروا إلى رَقدتِهم إلى آخرِ الزمان عندَ خروجِ المهدي. فيقالُ: إنَّ المهديَّ يسلِّمُ عليهم فيُحييهم الله ثم يَرجعون إلى رَقدتِهم فلا يقومونَ حتى تقومَ الساعة، فأخبرَ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٤٨ (١٢٧٢٠)، وتغليق التعليق ٤/ ٢٤٤ ،و صححه ابن حجر هنا وفي فتح الباري ٦/ ٥٠٥ ، ووقع في تغليق التعليق: غزوة المصيف، وفي الفتح: الصائفة.

(٢) أي: الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٣١ - ٤٣٢ .

(٣) في عرائس المجالس: أبا ذر، فيه أنه على الطرف الرابع من الكساء.

(٤) في (م): عليكم.

جبريلُ رسولَ الله ﷺ بما كان منهم، ثم ردَّتهمُ الريحُ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «كيف وجدتموهم؟» فأخبروه الخبر، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لا تُفرِّق بيني وبينَ أصحابي وأصهاري، واغفر لمن أحبَّني وأحبَّ أهلَ بيتي وخاصَّتي وأصحابي»[١].

وقيل: إنَّ أصحابَ الكهفِ دخلوا الكهفَ قبل المسيح، فأخبر اللهُ تعالى المسيحَ بخبرهم، ثم بُعثوا في الفَتْرة بين عيسى ومحمدٍ ﷺ[٢]. وقيل: كانوا قبلَ موسى عليه السلام، وأنَّ موسى ذَكَرهم في التوراةِ، ولهذا سألتِ اليهودُ رسولَ الله ﷺ. وقيل: دَخلوا الكهفَ بعد المسيح، فالله أعلمُ أيَّ ذلك كان[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ هذا مثلُ قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في سورة الأنعام[٤] وقد مضى الكلامُ فيه[٥]. وقال سلمانُ الفارسيُّ ﷺ: جاءتِ المؤلَّفةُ قلوبُهم إلى رسولِ الله ﷺ: عُيينةُ بنُ حِصْن، والأقْرعُ بن حابس [وذووهم[٦]] فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّك لو جلستَ في صدرِ المجلسِ ونَحَّيتَ عنا هؤلاءِ وأرواح جِبابهم ـ يعنونَ سلمانَ وأبا ذَرٍّ وفقراءَ المسلمين، وكانت عليهم جبابُ الصوفِ لم يكن عليهم غيرُها ـ جلسنا إليكَ وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزلَ الله تعالى: «واتلُ ما أُوحِيَ إليك من كتاب ربِّك لا مبدّلَ لكلماته ولن تَجِدَ من دونه مُلْتَحَداً. واصْبر نفسَك مع الذين يَدْعُون ربَّهم بالغَداةِ

(١) عرائس المجالس ص٤٣١ - ٤٣٢ .
(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٨٨ .
(٣) تفسير الرازي ٢١/ ١١٣ .
(٤) آية ٥٢ .
(٥) ٨/ ٣٨٩ .
(٦) ما بين حاصرتين ليست في النسخ، وهي من تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٠ - ٢٤١ ، وأسباب النزول للواحدي ص٣٠٦-٣٠٧ ، والوسيط ٣/ ١٤٥ .

والعَشِيِّ يريدون وجهه ـ حتى بلغَ ـ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادِقها» يَتهددُهم بالنار، فقام النبيُّ ﷺ يلتمسُهم حتى إذا أَصابَهم في مؤخرِ المسجدِ يذكرون الله قال: «الحمدُ لله الذي لم يُمتْني حتى أمرني أن أَصبرَ نفسي مع رجالٍ من أُمتي، معكم الْمَحْيا ومعكم المماتُ»[١].

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: طاعته. وقرأ نصرُ بن عاصم، ومالكُ بن دِينار، وأبو عبد الرحمن: «ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربَّهم بالغُدْوة والعَشِيّ» وحجتُهم أنَّها في السَّوادِ بالواو. وقال أبو جعفر النَّحاس: وهذا لا يلزمُ؛ لكتبِهم الحياةَ والصلاةَ بالواو، ولا تكادُ العربُ تقول: الغدوة؛ لأنَّها معرفة[٢]، وروي عن الحسن: «ولا تُعْدِ عينيك عنهم»[٣] أي: لا تتجاوزْ عيناك إلى غيرِهم من أبناءِ الدنيا طلباً لزينتها؛ حكاه اليزيدي[٤]. وقيل: لا تحتقرُهم عيناك، كما يقال: فلان تَنْبُو عنه العين، أي: مستحقراً[٥].

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تتزيَّن بمجالسةِ هؤلاء الرؤساءِ الذين اقترحوا إبعادَ الفقراء من مجلسِك[٦]، ولم يُرِد النبيُّ ﷺ أن يفعلَ ذلك، ولكنَّ الله نَهاه عن أن يفعلَه، وليس هذا بأكثر من قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وإن كان الله أعاذَه من الشرك. و«تريد» فعلٌ مضارع في موضع الحالِ، أي: لا تعدُ عيناك مريداً[٧]؛ كقولِ امرئ القيس:

فقلتُ له لا تبْكِ عَيْنُك إنما ... نحاول مُلْكاً أو نموتَ فنُعْذَرَا[٨]

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) في (د) و(م): معروفة، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٤ ، والكلام منه. وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٢ .

(٣) البحر المحيط ٦/ ١١٩ ، والإملاء للعكبري ٢/ ٥٦ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٢ ، وينظر المحتسب ٢/ ٢٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٢ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٧ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٩ .

(٧) الوسيط ٣/ ١٤٥ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١١٥ .

(٨) في ديوانه ص٦٦ .

وزعم بعضُهم أنَّ حق الكلامِ: لا تَعْدُ عينيك عنهم؛ لأن «تَعْدُ» متعدٍّ بنفسه. قيل له: والذي وَردت به التلاوةُ من رفعِ العينين يؤول إلى معنى النصبِ فيهما، إذ كان «لا تَعدُ عيناك عنهم» بمنزلة لا تنصرفْ عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم: لا تَصرِفْ عينيك عنهم، فالفعلُ مسندٌ إلى العينين، وهو في الحقيقةِ موجَّه إلى النبيِّ ﷺ[1]؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥] فأسندَ الإعجابَ إلى الأموال، والمعنى: لا تُعْجِبْكَ يا محمدُ أموالُهم. ويزيدُك وضوحاً قولُ الزجاج[2]: إن المعنى: لا تصرفْ بصرَك عنهم إلى غيرِهم من ذوي الهيئاتِ والزينةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ رَوى جُوَيبر، عن الضحاك، عن ابن عباس في قولِه تعالى: «ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا» قال: نزلت في أُمَيَّة بنِ خلف الجُمَحِيِّ، وذلك أنَّه دعا النبيَّ ﷺ إلى أمرٍ كَرِهه من تجرُّدِ الفقراء عنه، وتقريبِ صناديدِ أهلِ مكة، فأنزلَ الله تعالى: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» يعني: مَنْ ختمنا على قلبِه عن التوحيد، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يعني: الشرك[3]، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قيل: هو من التفريطِ الذي هو التقصيرُ وتقديمُ العجزِ بتركِ الإيمان. وقيل: من الإفراط ومجاوزة الحدِّ، وكان القومُ قالوا: نحن أشرافُ مُضَرَ، إن أسلمنا أسلمَ الناس. وكان هذا من التكبرِ والإفراط في القول[4]. وقيل: «فُرُطاً» أي: قُدُماً في الشرِّ؛ من قولهم: فَرَط منه أمرٌ، أي: سبقَ[5]. وقيل: معنى: «أغفلنا قلبه» وَجدناه غافلاً، كما تقول: لقِيت فلاناً فأَحمدتُه، أي: وجدته محموداً. وقال عمرو بنُ

---

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٥ - ٢٢٦ ، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١١٥ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٨١ ، وكلامه في أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ ، وعنه نقل المصنف.

(٣) أسباب النزول ص٣٠٧ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١٤٦ ، وفيه: «طرد» بدل «تجرد»، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٤١ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٥٩ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٥) وقال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٢ : وكان أمره فرطاً، فيه خمسة تأويلات: أحدها: ضيقاً، وهو قول مجاهد. الثاني: متروكاً، قاله الفراء. الثالث: ندماً، قاله ابن قتيبة. الرابع: سرفاً وإفراطاً، قاله مقاتل. الخامس: سريعاً، قاله ابن بحر.

معدِ يكَرِب لبني الحارث بنِ كعب: واللهِ لقد سألناكم فَما أبخلناكم، وقَاتلناكم فما أَجْبَنَّاكم، وهَاجَيناكم فما أفحمناكم. أي: ما وجدناكم بخلاءَ ولا جبناء ولا مُفْحَمين[١]. وقيل: نزلت: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» في عُيينةَ بن حِصن الفَزَارِي[٢]؛ ذكره عبدُ الرزاق، وحكاه النحاسُ[٣] عن سفيانَ الثوري. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ «الحقُّ» رَفعٌ على خبرِ الابتداءِ المضمر، أي: قل: هو الحقُّ[٤]. وقيل: هو رفعٌ على الابتداءِ، وخبرُه في قوله: «مِن ربكم». ومعنى الآية: قل يا محمدُ لهؤلاءِ الذين أغفلنا قلوبَهم عن ذكرنا: أيها الناس، مِن ربكم الحقُّ، فإليهِ التوفيقُ والخِذلان، وبيده الهُدَى والضَّلال، يهدي من يشاءُ فيؤمِنُ، ويُضِل مَن يشاء فيكفر، ليس إليَّ من ذلك شيءٌ، فالله يؤتي الحقَّ مَن يشاء وإن كان ضعيفاً، ويَحرِمه من يشاء وإن كان قويًّا غَنِيًّا، ولستُ بطاردِ المؤمنين لِهَواكم، فإنْ شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفُروا، وليسَ هذا بترخيصٍ وتخييرٍ بين الإيمانِ والكفر، وإنَّما هو وعيدٌ وتهديدٌ. أي: إن كفرتم فقد أَعدَّ لكم النارَ، وإن آمنتم فَلكم الجنةُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعددنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: للكافرين الجاحدين[٥]

---

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ .و نقل محققه الدكتور محمود الطناحي رحمه الله عن هامش الأصل قولَ جمال الدين ابن هشام: هذه المقالةُ أعني كون «أغفلنا» بمعنى وجدناه غافلاً، تقدَّمه إليها ابنُ جني، نصَّ عليها في المحتسب وغيره، وحامله عليها الاعتزال.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤١ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٣١ .

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٨ ، وينظر البحر المحيط ٦/ ١٢٠ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٤ - ٢٤٥ .

﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال الجوهري[١]: السُّرادِقُ واحدُ السُّرادِقات التي تُمَدُّ فوقَ صَحن الدار، وكلُّ بيتٍ من كُرْسُف فهو سُرادق. قال رؤبة[٢]:

يا حَكَمَ بنَ المنذر بنِ الجارُودْ سُرادِقُ المجدِ عليك مَمْدُودْ

يقال: بيتٌ مُسَرْدَق. وقال سلامة بن جندل يذكر أبرَوِيزَ وقتلَه النعمانَ بن المنذر تحت أرجل الفِيَلة:

هو المُدْخِلُ النعمانَ بيتاً سماؤه صُدورُ الفُيولِ بعد بَيتٍ مُسَرْدَقِ[٣]

وقال ابن الأعرابي: «سرادقها» سورُها. وعن ابنِ عباس: حائطٌ من نار[٤]. الكلبي: عنقٌ تخرجُ من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة[٥]. القتَبي[٦]: السرادقُ الحُجرة[٧] التي تكونُ حولَ الفسطاط. وقاله ابنُ عُزيز[٨]. وقيل: هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة «والمرسلات» حيث يقول: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾[٩][١٠] وقوله: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٣] قاله قتادة. وقيل: إنَّه البحر المحيطُ بالدنيا. وروى يَعْلَى بنُ أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحرُ

---

(١) في الصحاح (سردق).

(٢) في ملحق ديوانه ص١٧٢ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، ومجاز القرآن ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩ ، ونسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ٢٠٣ ، والأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص٣١٤ إلى رجل من بني الجِرماز.

(٣) البيت في ديوان سلامة ص١٨٤ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٤٦ ، ومجاز القرآن ١/ ٣٩٩ ، ونسبه الأزهري في تهذيب اللغة ٩/ ٣٩٤ إلى الأعشى.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٦ .

(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٩٧ .

(٦) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٧ .

(٧) في (م): الحجزة.

(٨) في نزهة القلوب ص٢٧٧ .

(٩) آية ٣٠ .

(١٠) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧ .

هو جهنمُ» ثم تلا: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ ثم قال: «واللهِ لا أدخلُها أبداً ما دمت حيًّا، ولا يُصيبني منها قطرةٌ». ذكره الماوَرديُّ[١]. وخَرَّج ابنُ المبارك[٢] من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «لسرادقِ النارِ أربعُ جُدُر كُثُفِ كلُّ جدارٍ مسيرةُ أربعين سنةً». وخرَّجه أبو عيسى الترمذيُّ[٣]، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

قلتُ: وهذا يدلُّ على أن السرادقَ ما يعلو الكفارَ من دخان أو نار، وجُدُره ما وُصِف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ قال ابنُ عباس: المُهْلُ ماءٌ غليظ مثلُ دُرْديِّ الزيتِ. مجاهد: القَيْح والدَّم. الضحاكُ: ماءٌ أسود، وإنَّ جهنم لسوداء، وماؤها أسودُ، وشجرُها أسود، وأهلُها سُود[٤]. وقال أبو عبيدة: هو كلُّ ما أُذيب من جواهرِ الأرض من حديدٍ ورَصاص، ونُحاس وقَزْدير، فَتَموَّجَ بالغليان، فذلك المُهْلُ[٥]. ونحوه عن ابن مسعود[٦]. قال سعيد بنُ جُبير: هو الذي قد انتهى حَرُّه[٧]. وقال: المهلُ ضربٌ من القَطِران، يقال: مَهلتُ البعيرَ فهو ممهول. وقيل: هو السمُّ[٨]. والمعنى في هذه الأقوالِ متقاربٌ. وفي الترمذي[٩] عن النبيِّ ﷺ في قوله: «كالمهل» قال: «كعَكَرِ الزيت فإذا قرَّبه إلى وجهِه سقطت فَرْوةُ وجهِه» قال أبو عيسى: هذا حديثٌ إنما نعرفُه من حديث رِشْدِين بنِ سعد، ورِشْدينُ قد تُكُلِّم فيه

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٣، وقولُ النبي ﷺ أخرجه الطبري ١٥/ ٢٤٦ - ٢٤٧، وأحمد (١٧٩٦٠).

(٢) في الزهد زيادات نعيم بن حماد (٣١٦).

(٣) في سننه برقم (٢٥٨٤).

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٩.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٤٠٠.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٤٨.

(٧) تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٠.

(٨) ينظر اللسان (مهل).

(٩) برقم (٢٥٨١)، من حديث أبي سعيد.

من قِبَلِ حفظِه. وخَرَّج عن أبي أُمامةَ، عن النبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦] قال: «يُقرَّب إلى فيه فيَكرهُه، فإذا أُدْنِيَ منه شوَى وجهَه ووقعتْ فَروةُ رأسِه، فإذا شَرِبه قَطَّع أمعاءَه حتى يخرج من دبرِه، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] يقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾» قال: حديثٌ غريبٌ[١].

قلت: وهذا يدلُّ على صحةِ تلك الأقوال، وأنَّها مرادةٌ، والله أعلم. وكذلك نصَّ عليها أهلُ اللغة. في «الصحاحِ»[٢]: «المهلُ»: النحاسُ المُذابُ. ابن الأعرابي: المهلُ: المذابُ من الرصاص. وقال أبو عمرو: المهلُ: دُرديُّ الزيت. والمهل أيضاً: القيحُ والصديدُ. وفي حديثِ أبي بكرٍ: ادفنوني في ثَوْبَيَّ هذين؛ فإنهما للمُهل والتراب[٣].

و﴿مُرْتَفَقًا﴾ قال مجاهد: معناه: مجتمعاً كأنَّه ذهبَ إلى معنى المرافقةِ[٤]. ابنُ عباس: منزلاً. عطاء: مقرًّا[٥]. وقيل: مهاداً. وقال القتَبيُّ[٦]: مجلساً. والمعنى متقاربٌ، وأصلُه من المتَّكأ، يقال منه: ارتفقتُ، أي: اتكأتُ على المرفقِ، قال الشاعرُ:

قالت له وارتَفَقتْ ألَا فتًى ... يسوقُ بالقوم غَزالاتِ الضُّحا[٧]

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٨٣).

(٢) مادة (مهل) دون قول ابن الأعرابي.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٧).

(٤) تفسير مجاهد ١/ ٣٧٦ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٢٥٣ ، وهو في النكت والعيون ٣/ ٣٠٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٦٠ .

(٦) تفسير غريب القرآن ص٢٦٧ .

(٧) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٢ ، والنوادر ص١٢٨ ، وأمالي القالي ٢/ ٩٦ ، وأمالي الزجاجي ص١٢ . وقال أبو زيد في النوادر ص١٢٨ : ويقال: لقيت فلاناً غزالة الضحى، ورَأْدَ الضحى، وكَهْرَ الضحى، كل ذلك بعد ما تنبسط الشمس وتُضحي غزالة.

ويُقال: ارتفقَ الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نومٌ. قال أبو ذُؤيب الهُذَلي:

نام الخَلي وبِتُّ الليل مُرتَفِقاً ... كأنَّ عَيْنَي فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ[١]

الصابُ: عُصارةُ شجرٍ مرٍّ[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

لمَّا ذَكرَ ما أَعدَّ للكافرين من الهوانِ، ذَكَر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب، وفي الكلامِ إضمارٌ، أي: لا نضيعُ أجرَ مَن أحسن منهم عملاً، فأمَّا مَن أحسن عملاً من غيرِ المؤمنين، فعملُه مُحْبَطٌ[٣]. و«عملاً» نُصِب على التمييزِ[٤]، وإن شئتَ بإيقاعِ «أحسن» عليه. وقيل: «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً» كلامٌ معترض، والخبرُ قولُه: «أولئك لهم جنات عدن»[٥] و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ سُرَّةُ الجنة، أي: وسطُها وسائرُ الجناتِ مُحْدِقَةٌ بها، وذُكِرت بلفظ الجمع لسَعتِها؛ لأنَّ كل بُقعة منها تصلحُ أن تكونَ جنة[٦]. وقيل: العَدْن الإقامةُ[٧]، يقال: عَدَن بالمكان إذا أقامَ به[٨]. وعَدَنْت البلدَ:

---

(١) ديوان الهذليين ص١٠٤ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٥٣ ، ومجاز القرآن ١/ ٤٠٠ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٠٤ .

وفي ديوان الهذليين: مشتجراً، بدل: مرتفقاً.

وصدره عند أبي عبيدة في مجاز القرآن:

إني أرقت فبت الليل مرتفقاً

(٢) الصحاح (صوب).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٤ ، والطبري ١٥/ ٢٥٤ .

(٦) ذكر نحوه الرازي في التفسير ٢١/ ١٢٢ .

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣ .

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢١٨ .

توطنْته. وعَدَنَتِ الإبلُ بمكانِ كذا: لزمتْه فلم تَبرحْ منه، ومنه «جناتُ عَدْن» أي: جنات إقامة. ومنه سُمِّيَ المَعْدِن، بكسر الدال؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء. ومركزُ كلِّ شيءٍ مَعدِنُه. والعادن: الناقة المقيمة في المرعى، وعَدَنُ بلدٌ؛ قاله الجوهريُّ[١].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدَّم في غير موضع[٢]. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوار. قال سعيد بن جُبَير: على كلِّ واحد منهم ثلاثةُ أَسوِرة: واحدٌ من ذهب، وواحدٌ من وَرِق، وواحدٌ من لؤلؤ[٣].

قلت: هذا منصوصٌ في القرآن، قال هنا: «من ذهب» وقال في «الحج» و«فاطر»[٤]: ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ وفي «الإنسان»[٥]: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾. وقال أبو هريرة: سمعتُ خليلي ﷺ يقول: «تبلغُ الحِلْية من المؤمن حيثُ يبلغ الوضوء» خرَّجه مسلم[٦].

وحكى الفرَّاء: «يَحْلَون» بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال: حَلِيت المرأة تَحْلَى فهي حالية إذا لبست الحَلْي. وحَلِيَ الشيء بعيني يَحْلَى؛ ذكره النحاس[٧]. والسِّوار سِوارُ المرأة، والجمعُ أسورة، وجمع الجمع أساورةٌ. وقُرِئ: «فلولا أُلْقِيَ عليه أساورة من ذهب» [الزخرف: ٥٣] وقد يكون الجمع أساور. وقال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] و[الحج: ٢٣] قاله الجوهري[٨].

---

(١) في الصحاح (عدن). والمقصود بمدينة عدن: المدينة المشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. معجم البلدان ٤/ ٨٩ .

(٢) ينظر ١/ ٣٥٩ .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ١٤٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٣٧ .

(٤) [الحج: ٢٣] و[فاطر: ٣٣].

(٥) آية: ٢١ .

(٦) برقم (٢٥٠)، وسلف ٧/ ٣٣٤ .

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ .

(٨) في الصحاح (سور).

وقال ابنُ عُزَيز[١]: أساور جمع أَسوِرة، وأسورة جمع سِوار وسُوار، وهو الذي يُلبَس في الذراع من ذهب، فإن كان من فضة فهو قُلْب وجمعه قِلَبَة، فإن كان من قَرْن أو عاج فهي مَسَكة وجمعه مَسَك. قال النحاس[٢]: وحكى قُطْرب في واحد الأساور إسوار، وقُطرب صاحبُ شذوذ، قد تركه يعقوب وغيرُه، فلم يذكره.

قلت: قد جاء في «الصحاح»: وقال أبو عمرو بن العلاء: واحدها إسوار[٣]. وقال المفسرون: لمَّا كانتِ الملوك تلبَسُ في الدنيا الأساورَ والتِيجانَ، جعلَ الله تعالى ذلك لأهلِ الجنةِ[٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السُّنْدُس: الرقيقُ النحيف، واحدُه سندسةٌ؛ قاله الكسائي[٥]. والإستبرق: ما ثَخُن منه ـ عن عكرمة[٦] ـ وهو الحرير. قال الشاعر:

تَـراهـنَّ يَـلـبَـسْـنَ الـمـشـاعـر مَـرَّةً وإستـبـرقُ الـديـبـاجِ طَـوْراً لـبـاسُـهَـا[٧]

فالإستبرقُ الدِيباج. ابن بحر: المنسوجُ بالذهب[٨]. القُتَبي[٩]: فارسي معرب. الجوهري[١٠]: وتصغيره أُبَيْرِق. وقيل: هو استفعل من البريق. والصحيحُ أنَّه وِفاقٌ بين

(١) في نزهة القلوب ص٨٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣ .

(٣) الصحاح (سور). ومثل قول أبي عمرو هذا قولُ الكسائي في ما تلحن فيه العامة ص١١٦ : ويقال: سِوار المرأة، للذي يكون في يدها، ويقال: إسوار بالألف وبغير ألف. فلم يتفرد قطرب بذلك.

(٤) زاد المسير ٥/ ١٣٧ .

(٥) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ .

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٣٤)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧ قال: الإستبرق الديباج الغليظ.

(٧) نسبه الطبري ١٥/ ٢٥٥ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥ إلى المرقش.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٣٠٥ .

(٩) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٧ .

(١٠) في الصحاح (برق).

اللغتين؛ إذ ليس في القرآنِ ما ليس من لغةِ العرب[١]، على ما تقدَّم، والله أعلم.

وخَصَّ الأخضرَ بالذكر؛ لأنه الموافقُ للبصر؛ لأن البياضَ يُبدِّد النظرَ ويُؤلم، والسوادَ يُذَم، والخضرةُ بينَ البياض والسواد، وذلك يجمع الشعاعَ. والله أعلم.

روى النسائيُّ عن عبد الله بنِ عمرو بنِ العاص قال: بينما نحنُ عند رسولِ الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسولَ الله، أخبرنا عن ثيابِ الجنة، أَخَلْقٌ يُخلَق أم نَسجٌ ينسج؟ فضحكَ بعضُ القوم. فقال لهم: «ممَّ تضحكون من جاهلٍ يسأل عالماً؟» فجلسَ يسيراً أو قليلاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «أينَ السائلُ عن ثيابِ الجنة؟» فقال: هاهو ذا يا رسول الله، قال: «لا بل تَشَقَّق عنها ثمرُ الجنةِ» قالها ثلاثاً[٢].

وقال أبو هريرة: دارُ المؤمنِ درَّةٌ مجوّفة في وسطها شجرةٌ تُنبِتُ الحُلَلَ، ويأخذُ بأصبعِه ـ أو قال بأصبَعيه ـ سبعينَ حُلَّةً منظمة بالدرِّ والمَرْجان. ذكره يحيى بنُ سلام في «تفسيره»، وابنُ المبارك في «رقائقِه»[٣]. وقد ذكرنا إسنادَه في كتابِ «التذكرة»[٤]. وذُكر في الحديثِ أنَّه يكون على كلِّ واحد منهم الحلةُ لها وجهان لكلِّ وجهٍ لونٌ، يتكلمان بصوتٍ يَستحسنه سامعُه، يقول أحدُ الوجهين للآخر: أنا أكرمُ على وَليِّ الله منك، أنا أَلي جسدَه وأنتَ لا تلي. ويقول الآخر: أنا أكرمُ على وليِّ اللهِ منك، أنا

---

(١) قال الجواليقي في المعرب ص٥٢ - ٥٣ : فأما ما ورد منه، فقد اختلف فيه أهل العلم، فقال بعضهم: كتاب الله تعالى ليس فيه شيء من غير العربية. وأسنده إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة أنه من غير لسان العرب مثل: سجيل، والمشكاة، واليم، والطور، وأباريق، وإستبرق، وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهب هذا إلى غيره. وكلاهما مصيب إن شاء الله تعالى.

وقال الشافعي في الرسالة ص٤٢ : والقرآن يدل على أنْ ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب.

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٥٨٤١)، وهو عند أحمد (٦٨٩٠).

(٣) الزهد (زوائد نعيم بن حماد) (٢٦٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٢٩ ، وهناد في الزهد (١٢٥). وفي إسناده أبو المُهَزِّم واسمه يزيد بن سفيان، وهو متروك. وأورده المصنف في التذكرة ص٥٠٢ من طريق يحيى بن سلام.

(٤) ص٥٠٢ .

أُبصِر وجهَه وأنتَ لا تُبصر[١].

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ «الأرائك» جمعُ أَرِيكة، وهي السُّرُر في الحِجال[٢]. و قيل: الفرش في الحِجال؛ قاله الزجاج[٣]. ابن عباس: هي الأَسرَّةُ من ذهب، وهي مكلَّلة بالدُّر والياقوت عليها الحِجال[٤]. الأريكةُ ما بين صنعاء إلى أيْلة، وما بينَ عدن إلى الجابية.

وأصلُ «متكئين» مُوْتَكئين، وكذلك اتكأ أصلُه اوتكأ، وأصل التُّكَأة وُكَأة؛ ومنه: التوكُّؤ للتحاملِ على الشيء، فقُلبت الواو تاءً وأُدغمت[٥]. ورجل تُكَأة[٦] كثير الاتكاء.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يعني: الجنات، عكس «وساءت مرتفقاً». وقد تقدَّم. ولو كان «نِعْمَتْ» لجاز؛ لأنه اسم للجنةِ. وعلى هذا «وحسنت مرتفقاً».

ورَوى البَرَاء بن عازِب، أنَّ أعرابيًّا قامَ إلى رسول الله ﷺ في حجةِ الوداع، والنبيُّ ﷺ واقفٌ بعرفاتٍ على ناقتِه العَضْباء فقال: إني رجلٌ مسلمٌ، فأخبرني عن هذه الآية «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أنت منهم ببعيد، ولا هم ببعيدٍ منك، هم هؤلاء الأربعةُ: أبو بكر وعمر، وعثمان وعليّ، فأعْلِم قومَك أنَّ هذه الآيةَ نزلت فيهم». ذكره الماورديُّ[٧]. وأسنده النحاسُ في كتاب «معاني القرآن»[٨] قال: حدَّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال: حدَّثنا محمد بن

---

(١) أورده المصنف في التذكرة ص٥٠٢، عن أبي هريرة قال: بلغني أنَّ ولي الله...، فذكره.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٥، والحجال جمع حَجَلة، وهي بيت يُزين بالثياب والأسرة والستور. الصحاح (حجل).

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٤.

(٤) الوسيط ٣/ ١٤٧.

(٥) ينظر سر الصناعة ١/ ١٤٦.

(٦) في (د) و(م): وُكَاة، والمثبت من (ظ) و(ز) و(ف) وهو الموافق لما في الصحاح (وكأ).

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٤.

(٨) ٤/ ٢٣٥.

حميد قال: حدَّثنا يحيى بن الضُّرَيْس، عن زهير بن معاوية، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازِب قال: قام أعرابي...؛ فذكره. وأسنده السُّهَيْلي في كتاب «الإعلام»[1]. وقد روينا جميعَ ذلك بالإجازة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هذا مثلٌ لمن يَتعززُ بالدنيا ويستنكفُ عن مجالسة المؤمنين، وهو متَّصل بقوله: «واصبر نفسك». واختُلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقال الكلبي: نزلتْ في أَخوين من أهلِ مكة مخزوميَّين، أَحدُهما مؤمنٌ وهو أبو سلمة عبدُ الله بنُ عبد الأسد بنِ هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوجُ أمِّ سلمة قبل النبيِّ ﷺ. والآخرُ كافرٌ وهو الأسود[2] بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورةِ الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١]، وَرِث كلُّ واحدٍ منهما أربعةَ آلاف دينار، فأنفقَ أحدُهما مالَه في سبيلِ الله، وطلبَ من أخيهِ شيئاً فقالَ ما قال...؛ ذكره الثعلبيُّ والقُشَيريُّ. وقيل: نزلتْ في النبيِّ ﷺ وأهلِ مكةَ. وقيل: هو مَثَلٌ لجميع مَن آمن بالله وجميع مَن كفر. وقيل: هو مَثَلٌ لعُيَيْنة بن حِصْن وأصحابِه مع سلمان وصُهيب وأصحابِه؛ شبَّههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا، في قولِ ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تمليخا. والآخر كافر واسمُه قرطوش[3] وهما اللذان وصفَهما اللهُ تعالى في

---

(١) التعريف والإعلام ص١٠١، من طريق النحاس.

(٢) في (ظ): الأسد.

(٣) في (ظ) و(ف): قرطوس، وبعدها في (ظ): القزويني قرطيس. وبعدها في (د): القرنوي قرطوش. وبعدها في (ز): العرنوي قطروش.

سورةِ الصَّافات[١]. وكذا ذكر محمد بنُ الحسن المقرئ قال: اسمُ الخَيِّر منهما تمليخا، والآخر قرطوش[٢]، وأنَّهما كانا شريكين ثم اقتَسما المالَ فصارَ لكل واحدٍ منهما ثلاثةُ آلاف دينار، فاشترى المؤمنُ منهما عبيداً بألف وأَعتقهم، وبالألفِ الثانية ثياباً فكسا العُراةَ، وبالألفِ الثالثة طعاماً فأطعمَ الجُوَّع، وبَنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً. وأمَّا الآخرُ فنكحَ بماله نساءً ذواتَ يَسارٍ، واشترى دوابَّ وبقراً فاستَنتجَها فنَمت له نماءً مُفْرِطاً، واتَّجر بباقيها فربحَ حتى فاقَ أهلَ زمانه غِنًى، وأَدركتِ الأوَّل الحاجةُ، فأراد أن يستأجر[٣] نفسَه في جنة يخدُمها فقال: لو ذهبتُ لشريكي وصاحبي فسألتُه أن يستخدمَني في بعضِ جناته رجوتُ أن يكونَ ذلك أصلحَ بي، فجاءَه فلم يَكَد يصل إليه من غلظِ الحُجَّاب، فلمَّا دخل عليه وعَرَفه وسألَه حاجتَه قال له: أَلم أَكن قاسمتك المالَ شطرين[٤] فما صنعتَ بمالِكَ؟ قال: اشتريتُ به من الله تعالى ما هو خيرٌ منه وأَبقى. فقال: أَئِنَّك لمن المُصَدِّقين؟! ما أظنُّ الساعةَ قائمة، وما أراكَ إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتِك إلا الحرمان، أوما تَرى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آلَ إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أَني كَسَبْتُ وسَفُهتَ أنتَ، اخرجْ عني. ثم كان من قصةِ هذا الغنيِّ ما ذكره الله تعالى في القرآنِ من الإحاطةِ بثمره وذهابِها أصلاً بما أرسلَ عليها من السماءِ من الحُسْبان[٥].و قد ذكر الثعلبيُّ هذه القصةَ بلفظٍ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانيةُ آلافِ دينار. وقيل: وَرِثاه من أبيهما وكانا أَخوين فاقتسماها، فاشترى أحدُهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبُه: اللهمَّ إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار، وإني اشتريتُ منك أرضاً

---

(١) ينظر بحر العلوم ٢/ ٢٩٨ ، والمحرر ٣/ ٥١٥ ، والكشاف ٢/ ٤٨٣ ، وزاد المسير ٥/ ١٣٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٤ .

(٢) في (ظ) و(ز): قرطس، وفي (د) قرطش، وفي التعريف والإعلام ص١٠٢ ، والكلام منه: موطس.

(٣) في (م): يستخدم.

(٤) في (م) و(د) و(ز): نصفين، والمثبت من (ظ) و(ف) ومن التعريف والإعلام ص١٠٢ ، والكلام منه.

(٥) التعريف والإعلام ص١٠٢ .

في الجنةِ بألف دينار، فتَصدَّقَ بها، ثم إنَّ صاحبَه بنى داراً بألفِ دينار، فقال: اللهمَّ إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني أشتري[١] منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدَّق بها، ثم تزوج امرأةً فأنفق عليها ألفَ دينار، فقال: اللهمَّ إن فلاناً تزوج امرأةً بألف دينار، وإني أخطب إليكَ من نساءِ الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإني أشتري منك خَدَماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدَّقَ بألف دينار. ثم أصابته حاجةٌ شديدةٌ فقال: لعلَّ صاحبي ينالُني معروفُه، فأتاهُ فقال: ما فعلَ مالُك؟ فأخبره قصتَه فقال: وإنَّك لمن المُصدِّقين بهذا الحديث! والله لا أُعطيكَ شيئاً![٢] ثم قال له: أنتَ تعبدُ إله السماء، وأنا لا أعبدُ إلا صنماً، فقال صاحبُه: والله لأعِظَنَّه، فوعظَه وذكَّره وخوَّفه. فقال: سِرْ بنا نَصطدِ[٣] السمكَ، فَمن صادَ أكثر فهو على حقٍّ؛ فقال له: يا أخي! إنَّ الدنيا أحقرُ عند الله من أن يجعلَها ثواباً لمحسن، أو عقاباً لكافر. قال: فأكرهه على الخروجِ معه، فابتلاهما الله، فجعلَ الكافرُ يرمي شبكتَه ويسمِّي باسم صنمِه، فتطلع متدفِّقةً[٤] سمكاً. وجعلَ المؤمنُ يرمي شبكتَه ويسمي باسمِ الله، فلا يطلُع له فيها شيء؛ فقال له: كيف ترى! أنا أكثرُ منك في الدنيا نصيباً ومنزلةً ونَفَراً[٥]، كذلك أكون أفضلَ منك في الآخرة إن كان ما تقولُ بزعمك حقًّا. قال: فَضجَّ المَلَك الموَكَّل بهما، فأمرَ الله تعالى جبريلَ أن يأخذَه فيذهب به إلى الجِنان فيرِيَه منازلَ المؤمنِ فيها، فلما رأى ما أَعدَّ الله له قال: وعزَّتك لا يَضرُّه ما ناله من الدنيا بعدَ ما يكون مصيرُه إلى هذا؛ وأَراه منازلَ الكافرِ في جهنم فقال: وعزَّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيرُه إلى هذا[٦]. ثم إنَّ

---

(١) في (ظ) و(ز) و(ف): اشتريت.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٦١ .

(٣) في النسخ الخطية: نصطاد.

(٤) في (ظ) و(ز): مندفقة.

(٥) في (د) و(ز): وكفراً، وفي (ف): وبقراً.

(٦) أخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٦٢١) عن عطاء الخراساني مرسلاً.

الله تعالى تَوفَّى المؤمن وأهلكَ الكافر بعذاب من عندِه، فلما استقرَّ المؤمن في الجنة ورأى ما أعدَّ اللهُ له؛ أقبلَ هو وأصحابُه يتساءلون، فقال: «إني كان لي قَرِينٌ. يقول أئنّك لمِن المصَدِّقين» الآية، فنادى منادٍ: يا أهلَ الجنةِ! هل أنتم مطَّلِعون، فاطلعَ إلى جهنم فرآه في سواءِ الجحيم، فنزلت «واضرب لهم مَثَلاً».

بيَّن الله تعالى حالَ الأخوين في الدنيا في هذه السورة، وبينَ حالَهما في الآخرةِ في سورة الصافات في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[1].

قال ابنُ عطية[2]: وذَكرَ إبراهيمُ بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائبِ البلادِ أنَّ بحيرة تِنِّيس[3] كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين، فباعَ أحدهما نصيبَه من الآخر فأنفق في طاعةِ الله حتى عيَّره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغَرَّقها الله تعالى في ليلة، وإياها عَنَى بهذه الآية.

وقد قيل: إنَّ هذا مَثَلٌ ضَربه الله تعالى لهذه الأمةِ، وليس بخبر عن حال متقدمةٍ، لتزهدَ في الدنيا وترغبَ في الآخرة، وجعله زجراً وإنذاراً؛ ذكره الماوردي[4]. وسياقُ الآيةِ يدلُّ على خلافِ هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: أَطَفْناهما من جوانبهما بنخلٍ[5]. والحِفافُ الجانب، وجمعه أحِفّة[6]؛ ويقال: حَفَّ القومُ بفلان يَحُفُّون حَفًّا، أي: طافوا به، ومنه ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: جعلنا حولَ

---

(١) آية ٥١ حتى ٦١.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٥.

(٣) جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. معجم البلدان ٢/ ٥١.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٦.

(٥) الطبري ١٥/ ٢٥٧.

(٦) في (ظ): أحفية.

الأعناب النخلَ، ووسطَ الأعناب الزرعَ .﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: كلُّ واحدةٍ من الجنتين ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ تامًّا[١]، ولذلك لم يقل: آتتا. واختُلف في لفظ «كِلْتا وكِلَا» هل هو مفرد أو مثنى؛ فقال أهلُ البصرة: هو مفرد؛ لأن «كِلا وكلتا» في توكيدِ الاثنينِ نظيرُ «كُلٍّ» في المجموع، وهو اسمٌ مفردٌ غيرُ مثنى؛ فإذا وَلِيَ اسماً ظاهراً[٢] كان في الرفع والنصب والخفض على حالةٍ واحدة، تقول: رأيتُ كِلا الرجلين، وجاءني كِلا الرجلين، ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر؛ قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب، تقول: رأيت كِلَيْهِما، ومررتُ بكليهما، كما تقول: عليهما. وقال الفراء[٣]: هو مثنًّى، وهو مأخوذ من كُلٍّ، فخفّفت اللام وزيدت الألفُ للتثنية. وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين، ولا يُتكلم بواحد، ولو تُكُلم به لقيل: كِلْ وكلْت وكِلان وكِلْتان. واحتجَّ بقول الشاعر:

في كِلْتِ رِجْليها سُلَامى واحدَهْ كِلتاهما مَقْرونةٌ بزائده[٤]

أرادَ: في إحدى رجليها فأفردَ. وهذا القولُ ضعيفٌ عند أهلِ البصرة؛ لأنه لو كان مثنى؛ لوجب أن تكون ألفُه في النصب والجر ياءً مع الاسمِ الظاهر، ولأنَّ معنى «كِلا» مخالفٌ لمعنى «كل»؛ لأن «كلًّا» للإحاطة و«كِلَا» يدلُّ على شيءٍ مخصوص،

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٦١ ، وتهذيب اللغة ٤/ ٣ .

(٢) قوله: ولي اسماً ظاهراً، كذا وقع في النسخ والصحاح (كلى) والكلام منه، وكذا نقله ابن منظور في اللسان (كلى)، وفي العبارة نظر، والصواب فيها أن يقول: وليه اسم ظاهر.

وينظر الإنصاف ٢/ ٤٤٨ - ٤٤٩ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) ينظر معاني القرآن ٢/ ١٤٢ - ١٤٣ ، والكلام بحرفيته في الصحاح (كلى) وعنه نقل المصنف.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٨ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٢ ، والصحاح، واللسان (كلى) وخزانة الأدب ١/ ١٢٩ دون نسبة.

وقال البغدادي في الخزانة ١/ ١٢٩- ١٣٠ : رأيت في حاشية الصحاح أنَّ هذا البيت من رجز يصف به نعامة، فضمير رجليها عائد على النعامة. والسُّلامَى على وزن حُبارَى: عظم في فِرسِن البعير، وعظام صغار طول إصبع أو أقل في اليد والرجل، والجمع سلاميات، والفرسِن بكسر أوله وثالثه، هو للبعير بمنزلة الحافر للفرس.

وأمَّا هذا الشاعر؛ فإنما حَذفَ الألف للضرورة، وقدَّر أنها زائدة، وما يكون ضرورةً لا يجوز أن يُجعَل حجة، فثبت أنه اسمٌ مفرد كَمِعَى، إلا أنه وُضع ليدل على التثنيةِ، كما أنَّ قولهم: «نحن» اسمٌ مفرد يدل على اثنين فما فوقهما، يدلُّ على ذلك قولُ جرير:

كِلَا يَوْمَيْ أُمامةَ يومُ صَدٍّ وإنْ لم نأتها إلَّا لِماما[1]

فأخبر عن «كلا» بيومٍ مفرد، كما أفردَ الخبرَ بقوله: «آتت» ولو كان مثنى لقالَ: آتتا، ويوما. واختُلف أيضاً في ألفِ «كلتا»؛ فقال سيبويهِ[2]: ألفُ «كلتا» للتأنيثِ والتاءُ بدلٌ من لام الفعل وهي واو، والأصل كِلْوا، وإنما أُبدلت تاء؛ لأنَّ في التاء علمَ التأنيث، والألف في «كلتا» قد تصير ياءً مع المضمر، فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث.

وقال أبو عمر الجَرْمِيُّ: التاء ملحقةٌ والألف لام الفعل، وتقديرها عندَه: فِعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم؛ لقالوا في النسبة إليها: كِلْتَوِيّ، فلما قالوا: كِلَوِيّ، وأسقطوا التاء دلَّ على أنهم أجروها مُجْرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت: أَخَوِيّ؛ ذكره الجوهري[3].

قال أبو جعفر النحاس[4]: وأَجازَ النحويون في غير القرآن الحملَ على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى: الجنتان[5] كلتاهما آتتا، وأجازَ الفراء[6]:

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٧٧٨ ، وفيه: صدق بدل صد، وقال محمد بن حبيب في شرحه: أي: يوم صالح، كما تقول: رجل صدق، أي: صالح.

والبيت في كتاب الشعر للفارسي ١/ ١٢٦ ، والصحاح (كلى).

(٢) ينظر الكتاب ٤/ ٣١٧ .

(٣) في الصحاح (كلى).

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): المختار، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ١٤٢ - ١٤٣ ، ونقل كلامه من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٥ .

كلتا الجنتين آتى أكلَه، قال: لأنَّ المعنى: كل[١] الجنتين. قال: وفي قراءةِ عبدِ الله «كلُّ الجنتين آتى أكله»[٢]. والمعنى على هذا عندَ الفراء[٣]: كل شيءٍ من الجنتين آتى أكله. والأُكُل، بضمِّ الهمزة: ثمرُ النخل والشجرِ وكلُّ ما يُؤكل فهو أُكُل؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] وقد تقدم[٤]. ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: أجرينا وشَققنا وسطَ الجنتين بنهر. ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبة وعاصم ويعقوب وابنُ أبي إسحاق «ثَمَر» بفتح الثاء والميم[٥]، وكذلك قوله: «وأحيط بثَمَره» جمع ثمرة.

قال الجوهري: الثمرةُ واحدةُ الثمرِ والثمرات، وجمعُ الثَّمر ثمار، مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمعُ الثمارِ ثُمُر، مثل كتاب وكُتُب، وجمعُ الثُّمُرِ أثمار؛ مثل أعناق وعُنُق. والثُّمُر أيضاً المالُ المُثَمَّر؛ يخفف ويثقَّل. وقرأ أبو عمرو «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وفسَّره بأنواع المال[٦]. الباقون بضمِّها في الحرفين[٧]. قال ابن عباس: ذهبٌ وفضةٌ وأموال[٨]. وقد مضى في «الأنعامِ» نحوُ هذا مبيَّناً[٩] وذكر النحاس[١٠]: حدثنا أحمدُ بن شعيب قال: أخبرني عمران بن بكار قال: حدثنا

---

(١) في إعراب القرآن: أكل.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٣ ، والكشاف ٢/ ٤٨٤ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٤٣ .

(٤) ١٢/ ٨١ .

(٥) ينظر السبعة ص٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٦ ، والبحر المحيط ٦/ ١٢٥ .

(٦) الصحاح (ثمر)، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٦ .

(٧) التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩٠ .

(٨) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٦٠ ، بلفظ: أنواع المال.

(٩) ٨/ ٤٧٤ .

(١٠) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٠ .

إبراهيم بنُ العلاء الزبيدي قال: حدَّثنا شعيب بنُ إسحاق قال: حدثنا[١] هارون قال: حدثني أبان بن تغلب[٢]، عن الأعمش، أنَّ الحجاج قال: لو سمعتُ أحداً يقرأ «وكان له ثُمُر» لقطعتُ لسانَه؛ فقلت للأعمش: أتأخذُ بذلك؟ فقال: لا! ولا نَعْمَة عينٍ[٣]. فكان يقرأ «ثُمُر» ويأخذه من جمعِ الثمر. قال النحاس: فالتقديرُ على هذا القولِ أنه جَمعَ ثمرة على ثِمار[٤]، ثم جمعَ ثمار على ثُمُر؛ وهو حسنٌ في العربيةِ إلا أنَّ القولَ الأول أشبهُ والله أعلم؛ لأنَّ قولَه: «كلتا الجنتين آتت أكلها» يدل على أنَّ له ثمراً.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يراجعه في الكلام ويُجاوبه. والمحاورةُ المجاوبة، والتحاورُ التجاوب. ويقال: كلَّمته فما أحارَ إليَّ جواباً، وما رجعَ إليَّ حَويراً ولا حَويرةً، ولا مَحُورةً ولا حِوَاراً، أي: ما ردَّ جواباً[٥]. ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر: الرهطُ وهو ما دون العشرةِ[٦]. وأراد هاهنا الأتباعَ والخدمَ والولد، حسبما تقدَّم بيانُه.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ قيل: أخذَ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُرِيه إيَّاها[٧]، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: بكفرِه[٨]، وهو جملةٌ في موضعِ الحال. ومَن

---

(١) ليست في (م).

(٢) قوله: ابن تغلب، في (د) و(ز) و(م): عن ثعلب، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٠.

(٣) نَعِمَك وأنْعَم بك عيناً: أقرَّ بك عين من تحبه. القاموس المحيط (نعم)، وذكر فيها اثنا عشر وجهاً.

(٤) في (ظ): أثمار.

(٥) الصحاح (حور).

(٦) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٠٩.

(٧) الوسيط ٣/ ١٤٨.

(٨) الطبري ١٥/ ٢٦٢.

أدخلَ نفسه النار بكفره؛ فهو ظالمٌ لنفسِه، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أنكر فَناءَ الدنيا[١]، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: لا أحسِبُ البعثَ كائناً، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ أي: وإن كان بعثٌ، فكما أعطاني هذه النعمَ في الدنيا، فسيعطيني أفضلَ منه؛ لكرامتي عليه[٢]، وهو معنى قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ وإنَّما قال ذلك، لمَّا دَعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر. وفي مصاحف مكةَ والمدينةِ والشَّام «منهما»، وفي مصاحفِ أهلِ البصرة والكوفةِ «منها» على التوحيد، والتثنيةُ أولى؛ لأنَّ الضمير أقربُ إلى الجنتين[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ يهوذا أو تمليخا، على الخلافِ في اسمِه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ وَعَظه وبيَّن له أن ما اعترفَ به من هذه الأشياء التي لا يُنكرها أحدٌ أبدعُ من الإعادة. و«سوَّاك رجلاً» أي: جَعلك معتدلَ القامة والخَلْق، صحيحَ الأعضاءِ، ذَكَراً[٤] «لكنَّ[٥] هُوَ اللهُ رَبِّي» كذا قَرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وأبو العالية[٦]، ورُوي عن الكسائي. «لكنَّ هو الله» بمعنى لكنَّ الأمرَ هو اللهُ ربي، فأُضمِر اسمُها فيها. وقرأ الباقون «لكنا» بإثباتِ الألف[٧]. قال الكسائي: فيه تقديمٌ وتأخير، تقديره: لكنَّ الله هو ربي أنا، فحُذِفت الهمزةُ من «أنا»

---

(١) في (م) و(د) و(ز): الدار، والمثبت من (ف) و(ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٥، والوسيط ٣/ ١٤٩، وزاد المسير ٥/ ١٤٢.

(٢) الوسيط ٣/ ١٤٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٦.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٧، وزاد المسير ٥/ ١٤٢ - ١٤٣.

(٤) الطبري ١٥/ ٢٦٣.

(٥) في (ظ) و(د) و(م): لكنَّا، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق لما في فتح القدير ٣/ ٢٨٧.

(٦) لم نقف عليهما عند غير المصنف.

(٧) السبعة ص٣٩١، والتيسير ص١٤٣.

طلباً للخفة؛ لكثرة الاستعمال، وأُدغِمت إحدى النونين في الأخرى، وحُذِفت ألف «أنا» في الوصل وأُثبتت في الوقف[١].

وقال النحاس[٢]: مذهبُ الكسائي والفرّاء والمازِنِيِّ أنَّ الأصلَ: لكن أنا، فأُلقيت حركةُ الهمزة على نون لكن، وحُذِفت الهمزةُ، وأُدغمتِ النونُ في النون، فالوقفُ عليها لكنَّا، وهي ألفُ أنا؛ لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصلُ لكن أنا، فحُذِفت الألف فالتقتْ نونان، فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائي:

لـهَـنَّـكِ مـن عَـبْـسِـيَّـة لَـوَسِـيـمَـةٌ ... عـلـى هَـنَـوَاتٍ كـاذبٍ مـن يـقـولـهـا[٣]

أرادَ: لله إنَّك، فأسقطَ إحدى اللَّامين من (لله)، وحذفَ الألف من إنَّك. وقال آخرُ فجاءَ به على الأصل:

وتَـرمـيـنـنـي بـالـطَّـرْف أي أنـتَ مـذنـبٌ ... وتَـقْـلِـيـنَـنـي لـكـنَّ إيَّـاكِ لَا أَقْـلِـي[٤]

أي: لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورَوَوْا عن عاصم «لكنَّا[٥] هو الله ربي» وزعمَ أنَّ هذا لحن، يعني: إثبات الألف في الإدراجِ. قال الزجاج[٦]: إثباتُ الألفِ في «لكنا هو الله ربي» في الإدراج جيد؛ لأنه قد حُذفت الألف من أنا، فجاؤوا بها عِوضاً. قال: وفي قراءةِ أُبَيٍّ «لكنْ أنا هو الله ربي». وقرأ ابن عامر والمُسيَّبي[٧] عن نافع

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٦ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٦ - ٤٥٧ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤ .

(٣) البيت في الصحاح (لهن)، والخزانة ١٠/ ٣٤٤ .

(٤) البيت في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤ ، والمغني ص١٠٦ و ٥٢٣ و ٥٣٩ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١٤٠ ، والخزانة ١١/ ٢٢٥ .

(٥) في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٧ ، والكلام منه: لكننا.

(٦) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٨٧ .

(٧) في (م): المسيلي، وفي (ظ): المثنى، وهما تحريف، والمسيَّبي هو: إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المسيب إمام جليل عالم بالحديث قيم في قراءة نافع ضابط لها محقق فقيه، قرأ على نافع وغيره. طبقات القراء لابن الجزري ١/ ١٥٧ .

ورُويس عن يعقوب «لكنا» في حال الوقف والوصل معاً بإثبات الألف[١]. وقال الشاعر:

أنا سيفُ العشيرةِ فاعرفوني حُميْداً قد تَذَرَّيْتُ السَّناما[٢]

وقال الأعشى:

فكيفَ أنا وانتحالي القوافـ يَ بعدَ المشيبِ كَفى ذاكَ عارا[٣]

ولا خلافَ في إثباتِها في الوقف.

﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ «هو» ضميرُ القصةِ والشأن والأمر، كقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ دلَّ مفهومُه على أنَّ الأخ الآخر كان مشركاً بالله تعالى يعبد غيره. ويحتملُ أنه أراد: لا أرى الغنى والفقرَ إلا منه، وأعلم أنه لو أرادَ أن يَسلُب صاحبَ الدنيا دنياه قَدَر عليه، وهو الذي آتاني الفقر. ويحتمل أنه أرادَ: جحودُك البعثَ مصيرُه إلى أنَّ الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيزُ الرب سبحانه وتعالى، ومَن عجَّزه سبحانه وتعالى شبَّهه بخلقه، فهو إشراك[٤].

---

(١) التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٧ .

(٢) البيت في أساس البلاغة (ذري) منسوباً إلى حَميد بفتح الحاء، وفي معاني الزجاج ٣/ ٢٨٧ دون نسبة، وقال في الخزانة ٥/ ٢٤٣ : وحُميد يروى مصغراً ومكبراً، وتذريت السنام بمعنى علوته، ونسب ياقوت هذا البيت في حاشية الصحاح إلى حُميد بن بحدل، وحميد مضاف إلى جده لأنه حميد بن حريث بن بحدل من بني كلب بن وبرة وينتهي نسبه إلى قضاعة وهو شاعر إسلامي، وكانت عمته ميسون بنت بحدل أم يزيد بن معاوية.

(٣) ديوان الأعشى ص١٠٣ وروايته هناك:

فما أنا أم ما انتحالي القوا في بعد المشيب كفى ذاك عارا

وهو في الكامل للمبرد ٢/ ٥٥٢ كما رواه المصنف.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢١/ ١٢٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بالقلب، وهو توبيخٌ ووصيةٌ من المؤمن للكافر، وردٌّ عليه، إذ قال: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِه أَبَداً» و«ما» في موضعِ رفع، تقديرُه: هذه الجنةُ هي ما شاء الله. وقال الزجاج والفراء: الأمرُ ما شاء الله، أو هو ما شاء الله، أي: الأمر مشيئةُ الله تعالى. وقيل: الجوابُ مضمر، أي: ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون[1]. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: ما اجتمعَ لك من المال فهو بقدرةِ الله تعالى وقوتِه لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنَزَع البركةَ منه فلم يجتمع[2].

الثانية: قال أشهب قال مالك: ينبغي لكلِّ مَن دخل منزله أن يقول هذا. وقال ابن وهب: قال لي حفص بنُ مَيْسرة: رأيتُ على باب وهب بن منبِّه مكتوباً «ما شاء الله لا قوّة إلا بالله»[3]. وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «ألا أدلك على كلمةٍ من كنوز الجنة، أو قال: كنز من كنوزِ الجنة؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله إذا قالها العبدُ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: أَسلمَ عبدي واستسلم»[4]. أخرجه مسلم في «صحيحه»[5] من حديث أبي موسى. وفيه: فقال: «يا أبا موسى، أو

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٨ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٨ .

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٠ ، والكشاف ٢/ ٤٨٥ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٢٨ .

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٦٦) و(٨٤٢٦).

(٥) برقم (٢٧٠٤) (٤٥).

يا عبد الله بن قيس، ألا أدُلُّك على كلمة من كنزِ الجنة، في رواية: على كنزٍ من كنوز الجنة؟» قلت: ما هي يا رسولَ الله؟ قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدلكَ على كلمة من كنوز الجنة، أو قال: كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلى، فقال: «لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١]. وروي أنه مَن دخل منزله أو خرجَ منه فقال: باسم الله ما شاءَ الله لا قوةَ إلا بالله، تنافرت عنه الشياطينُ من بين يديه، وأنزلَ الله تعالى عليه البركات. وقالت عائشةُ: إذا خرج الرجل من منزله فقال: باسم الله. قال المَلَك: هُديتَ، وإذا قال: ما شاء الله. قال المَلك: كُفِيت، وإذا قال: لا قوةَ إلا بالله. قال المَلك: وُقيت. خَرَّجه الترمذيُّ[٢] من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال ـ يعني: إذا خرجَ من بيتِه ـ: باسمِ الله، توكلتُ على الله، لا حولَ ولا قوة إلا بالله؛ يقال له[٣]: كُفِيت ووُقِيت وتنحَّى عنه الشيطان» هذا حديث حسن[٤] غريب صحيح[٥] لا نعرفه إلا من هذا الوجه. خَرَّجه أبو داود[٦] أيضاً وزاد فيه: فقال له: «هُدِيت وكُفيت ووُقيت».

وأخرجه ابن ماجه[٧] من حديث أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا خرجَ الرجل من بابِ بيته أو باب دارِه، كان معه مَلَكان موكَّلان به، فإذا قال: باسم الله، قالا: هُديت. وإذا قال: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، قالا: وُقيت. وإذا قال: توكَّلت على الله، قالا: كفيت. قال: فيلقاه قَرِيناه فيقولان: ماذا تريدان من رجلٍ قد هُدِيَ ووُقِي وكُفِي؟».

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٤) (٤٧) دون قوله: العلي العظيم، وهو عند البخاري (٦٣٨٤).

(٢) في سننه (٣٤٢٦)، وحديث عائشة وما قبله لم نقف عليهما.

(٣) ليست في (م) و(د) و(ز).

(٤) ليست في (م) و(د) و(ز)، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي، وينظر الأذكار للنووي ص٣٣ .

(٥) ليست في (م) و(د) و(ز) و(ف)، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي.

(٦) برقم (٥٠٩٥).

(٧) في سننه برقم (٣٨٨٦)، وفي إسناده هارون بن هارون وهو ضعيف.

وقال الحاكم أبو عبد الله في «علوم الحديث»[١]: سُئل محمدُ بنُ إسحاق بن خزيمة عن قولِ النبيِّ ﷺ: «تحاجَّت الجنةُ والنار، فقالت هذه ـ يعني: الجنة ـ: يدخلني الضعفاء» مَنِ الضعيف؟ قال: الذي يُبرئ نفسَه من الحول والقوّة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة. وقال أنس بنُ مالك: قال النبيُّ ﷺ: «مَن رأى شيئاً فأعجَبه، فقال: ما شاءَ الله لا قوةَ إلا بالله لم يضرَّه عين»[٢]. وقد قال قومٌ: ما من أحدٍ قالَ: ما شاء الله كان، فأصابه شيءٌ إلا رَضِيَ به. ورُوي أنَّ من قال أربعاً أمِنَ من أربع: مَن قال هذه أَمِنَ من العين، ومن قال: حسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، أَمِن من كيدِ الشيطان، ومَن قال: وأُفوض أمري إلى الله، أَمِن مكرَ الناس، ومَن قال: لا إلهَ إلا أنتَ سبحانك إني كنتُ من الظالمين، أَمِن من الغمِّ.

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ «إنْ» شرط «تَرَنِ» مجزوم به، والجوابُ «فعسى رَبِّي»، و«أنا» فاصلةٌ لا موضع لها من الإعراب، ويجوزُ أن تكون في موضعِ نصب توكيداً للنون والياء. وقرأ عيسى بنُ عمر: «إن ترنِ أنا أقلُّ منك» بالرفع؛ يَجعلُ «أنا» مبتدأً، و«أقل» خبرَه، والجملةَ في موضعِ المفعولِ الثاني، والمفعولُ الأول النونُ والياء؛ إلا أنَّ الياء حُذِفت؛ لأنَّ الكسرة تدلُّ عليها، وإثباتُها جيِّد بالغ وهو الأصلُ؛ لأنَّها الاسم على الحقيقةِ[٣]. و﴿فَعَسَىٰ﴾ بمعنى لعل، أي: فلعلَّ ربي ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الآخرة. وقيل: في الدنيا، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ أي: مرامي من السماء، واحدُها حُسْبانة؛ قاله الأخفشُ والقُتَبِيُّ وأبو عبيدة[٤]، وقال ابنُ الأعرابي: والحسبانةُ السحابةُ، والحسبانة

---

(١) ص٨٤.

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٠٧)، وفي إسناده أبو بكر الهذلي وهو ضعيف.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٧ ، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٥ ، والكشاف ٢/ ٤٨٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٨ .

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٠٣ ، وقول الأخفش نقله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٧ .

الوِسادةُ، والحسبانةُ الصَّاعقة[١]. وقال الجوهري[٢]: والحُسبان، بالضم: العذابُ. وقال أبو زياد الكلابي: أصابَ الأرض حسبانٌ، أي: جراد. والحُسبانُ أيضاً الحساب، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا. قال الزجاجُ[٣]: الحسبانُ من الحساب، أي: يرسل عليها عذابَ الحساب، وهو حسابُ ما اكتسبتْ يداك. فهو من بابِ حذف المضاف. والحسبان أيضاً: سهامٌ قصار يُرمَى بها في طلقٍ واحد[٤]، وكان من رَمْي الأكاسرةِ. والمرامي من السماءِ عذابٌ. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ يعني: أرضاً بيضاء لا ينبتُ فيها نباتٌ، ولا يثبتُ عليها قدم، وهي أضَرُّ أرضٍ بعد أن كانت جنةً أنفعَ أرضٍ[٥]. و«زلقاً» تأكيد لوصفِ الصعيد، أي: تزلُّ عنها الأقدامُ لملاستِها. يقال: مكانٌ زَلَقٌ، بالتحريك، أي: دَحْضٌ، وهو في الأصل مصدرُ قولِك: زَلِقت رجلُه تَزْلَقُ زَلَقاً، وأزلَقها غيرُه. والزَّلَقُ أيضاً عَجُزُ الدابةِ. قال رُؤْبةُ:

كأنَّها حَقْباءُ بَلْقاء الزَّلَقْ[٦]

والمَزْلَقُ والمَزْلَقة[٧]: الموضعُ الذي لا يثبت عليه قدمٌ. وكذلك الزَّلّاقةُ. والزَّلْقُ: الحَلْق، زَلَق رأسَه يَزْلِقُه زَلْقاً حلقه؛ قاله الجوهريُّ[٨]. والزَّلَقُ: المحلوق، كالنَّقْض

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٢ .

(٢) في الصحاح (حسب).

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٩٠ .

(٤) نسبه في تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٢ إلى ابن شُميل.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٠٧ .

(٦) ديوان رؤبة ص١٠٤ ، والرجز في تهذيب اللغة ٨/ ٤٣١ ، والخزانة ١/ ٨٦ ، وقال البغدادي: والحقباء: مؤنث الأحقب، وهو حمار الوحش سمي بذلك لبياض في حَقويه، شبه الناقة بالأتان الوحشية، وهي في الجلادة والسرعة مثلها. والبلقاء: مؤنث الأبلق. والزَّلق: عجز الدابة، أي: المكان الذي تزلق اليد عن كفلها أبيض وأسود.

(٧) في (م): والمَزلقة والمُزلقة، وفي (ز) و(د): والمزلقة والزلقة، وسقطت إحداهما من (ف) و(ظ)، والمثبت من الصحاح ومقاييس اللغة (زلق).

(٨) في الصحاح (زلق).

والنَّقَض. وليس المرادُ أنَّها تصيرُ مَزْلقة، بل المرادُ أنَّها لا يبقى فيها نباتٌ كالرأسِ إذا حُلق لا يَبقى عليه شعر؛ قاله القشَيْرِيُّ.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً ذاهباً، فتكون أعدمَ أرضٍ للماء بعد أنْ كانت أوجدَ أرض للماء[١]. والغَوْرُ مصدرٌ وُضِع موضعَ الاسمِ، كما يقال: رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ، وعَدْلٌ ورِضاً، وفَضْلٌ وزَوْرٌ، ونساء نوحٌ، ويستوي فيه المذكرُ والمؤنث، والتثنيةُ والجمع[٢]. قال عمرو بن كُلثوم:

تَظَلُّ جيادُه نَوْحاً عليه ... مُقلَّدة أعنتَها صُفُونا[٣]

آخر:

هَريقي من دموعِهما سِجاما ... ضُباعَ وجاوبي نَوحاً قياما[٤]

أي: نائحات. وقيل: أويصبح ماؤها ذا غَوْر، فحذف المضافَ، مثلُ «واسأل القَرْيَةَ» ذكره النحاس[٥]. وقال الكسائي: مياه[٦] غَوْرٌ. وقد غار الماءُ يَغُور غَوْراً وغُؤُوراً، أي: سفَل في الأرض، ويجوزُ الهمزُ لانضمامِ الواو. وغارت عينُه تَغُور غَوْراً وغُؤُوراً، دخلت في الرأسِ، وغارت تَغار لغةٌ فيه. وقال:

أَغارتْ عينُه أم لم تَغارَا[٧]

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٠٧.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٨.

(٣) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٦٠، وشرح القصائد المشهورات لابن النحاس ٢/ ٩٩، وصدره ثمة: تركنا الخيل عاكفة عليه، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٦٧ دون نسبة، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٠٤.

ووقع في النسخ الخطية: جيادنا. والصافن: القائم. ويقال: الذي يرفع إحدى قوائمه من الإعياء يعتمد على سنبكها.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٧، ومجاز القرآن ١/ ٤٠٤، وأمالي المرتضى ١/ ٢٠١ دون نسبة. وضباع: ترخيم ضباعة، وهو اسم امرأة.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٨.

(٦) في (د) و(ز) و(م): ماء، والمثبت من (ظ) و(ف)، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٨، والكلام منه.

(٧) عجز بيت نسبه في الصحاح (غور) إلى ابن أحمر.

وغارتِ الشمسُ تغور غِياراً، أي: غربت. قال أبو ذُؤيب:

هل الدهرُ إلَّا ليلةٌ ونهارُها وإلا طلوعُ الشمسِ ثم غيارُها[١]

﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: لن تستطيع ردَّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة. وقيل: فلن تستطيع طلبَ غيره بدلاً منه. وإلى هذا الحديث انتهت مناظرةُ أخيه وإنذارُه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ اسمُ ما لم يُسمَّ فاعلُه مُضمرٌ، وهو المصدر، ويجوز أن يكونَ المخفوضُ في موضعِ رفع[٣]. ومعنى «أُحِيط بثمره»، أي: أُهْلِك مالُه كلُّه، وهذا أوَّلُ ما حقق اللهُ تعالى به إنذارَ أخيه، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي: فأصبحَ الكافرُ يضربُ إحدى يديه على الأخرى ندماً؛ لأنَّ هذا يصدر من النادم. وقيل: يقلِّب مِلكه فلا يرى فيه عوضَ ما أنفق، وهذا لأنَّ المِلك قد يُعبَّر عنه باليد، من قولهم: في يده مال، أي: في مِلكه مال[٤]. ودلَّ قولُه: «فأصبح» على أن هذا الإهلاكَ جرى بالليل، كقوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [ن: ١٩] ويقال: أنفقتُ في هذه الدار كذا، وأنفقتُ عليها[٥]. ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خالية قد سقط بعضُها على بعض، مأخوذٌ من: خَوَتِ النجوم تخوي خَيًّا: أمْحَلَتْ، وذلك إذا سَقطت ولم تُمْطر في نَوْئها، وأخْوَت مثلُه. وخوَت الدار خَواء ممدود[٦]: أقْوَت،

(١) ديوان الهذليين ص٢١ ، والصحاح (غور)، وهو في مجالس ثعلب ص٥٨٣ دون نسبة.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٠٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٥٨ .

(٤) النكت والعيون ٣/٣٠٨ .

(٥) ينظر زاد المسير ٥/١٤٦ .

(٦) ليست في (م).

وكذلك إذا سقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا﴾ [النمل: ٥٢] ويقال: ساقطة، كما يقال: فهي خاوية على عروشها، أي: ساقطة على سقوفها[١]. فجمعَ عليه بين هلاك الثمرِ والأصل، وهذا من أعظمِ الجوائح، مقابلةً على بَغْيه[٢].

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: يا ليتني عرفتُ نعمَ الله عليَّ، وعرفتُ أنَّها كانت بقدرةِ الله ولم أكفرْ به. وهذا ندمٌ منه حينَ لا ينفعه الندم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «فِئَةٌ» اسمُ «تكن»، و«له» الخبر. «يَنْصُرونه» في موضعِ الصفةِ، أي: فئة ناصرة، ويجوزُ أن يكونَ «ينصرونه» الخبرَ، والوجهُ الأوّلُ عندَ سيبويهِ أوْلى[٤]؛ لأنه قد تقدَّم «له». وأبو العباس[٥] يُخالِفه، ويحتجُّ بقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقد أجازَ سيبويهِ الآخَر، و«ينصرونه» على معنى فئة؛ لأنَّ معناها أقوام، ولو كان على اللفظِ لقال: ولم تكنْ له فئةٌ تنصره[٦]، أي: فرقة وجماعة يلتجئ إليهم.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعاً؛ قاله قتادة. وقيل: مُسترِدًّا بدلَ ما ذهبَ منه[٧]. وقد تقدَّم اشتقاقُ الفئةِ في «آل عمران»[٨]. والهاءُ عوضٌ من الياءِ[٩] التي نقصَت من

---

(١) الصحاح (خوى)، وتهذيب اللغة ٧/ ٦١٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٠٨ .

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ١٤٩ ، وزاد المسير ٥/ ١٤٦ .

(٤) ينظر كتاب سيبويه ٤/ ٥٦ .

(٥) أي: المبرد، وكلامه في المقتضب ٤/ ٩٠ - ٩١ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٨ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٣٠٨ ، وأخرج قول قتادة الطبري ١٥/ ٢٧٠ .

(٨) ٥/ ٣٨ .

(٩) قال ابن الشجري في أماليه ٢/ ٢٧٨ : والمحذوف من «فئة» واوٌ، وجمعها فئات، وهي من قولهم: فَأَوْتُ: إذا شققتَ وفرَّقتَ؛ لأنَّ الفئة كالفِرقة.

وسطه، أَصلُه فِيءٌ مثلُ فِيع؛ لأنَّه من فاء، ويُجمعُ على فِئون وفِئات، مثل شِيَات ولِدَات[١] وهبات[٢]. أي: لم تكن له عشيرةٌ[٣] يمنعونَه من عذابِ الله، وضلَّ عنه مَنِ افتخرَ بهم من الخدمِ والولد.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ اختُلفَ في العامل في قوله: «هنالك» وهو ظرف؛ فقيل: العاملُ فيه «ولم تكن له فئة» ولا كان هنالك؛ أي: ما نُصِر ولا انتصرَ هنالك، أي: لِمَا أصابَه من العذاب. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قوله: «منتصِراً»، والعاملُ في قوله: «هنالك»: «الولايةُ»، وتقديرُه على التقديم والتأخير: الولايةُ لله الحقِّ هنالك، أي: في القيامة[٤]. وقرأ أبو عمرو، والكسائيُّ: «الحقُّ» بالرفع[٥] نعتاً للولاية. وقرأ أهلُ المدينة وحمزةُ: «الحقِّ» بالخفضِ نعتاً لله عزَّ وجلَّ، والتقديرُ: لله ذي الحق. قال الزَّجاجُ[٦]: ويجوزُ «الحقَّ» بالنصب على المصدرِ والتوكيد، كما تقول: هذا لك حقًّا. وقرأ الأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ: «الوِلاية» بكسر الواو، الباقون بفتحِها[٧]، وهما بمعنًى واحدٍ كالرِّضاعة والرَّضاعة. وقيل: الوَلايةُ بالفتح من الموالاة، كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد: ١١]. وبالكسر يعني: السلطان والقدرة والإمارة[٨]، كقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ

---

(١) الصحاح (فيأ).

(٢) في (م): مئات، وفي (د) و(ز): هيات، والمثبت من (ظ) و(ف).

(٣) نسبه في النكت والعيون ٣/ ٣٠٨ إلى مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٧٦ وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٢٦٩، وينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٠.

(٤) وقال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٩: العامل فيه منتصراً. وقال ابن الشجري في أماليه ١/ ١٦٨: هنالك ظرف في موضع الحال، والعامل فيه قوله: (لله) وذو الحال المضمرُ المستكنُّ في (لله).

(٥) التيسير ص١٤٣، والسبعة ص٣٩٢.

(٦) ينظر معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٨٩، وكلام الزجاج وما قبله من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٩.

(٧) التيسير ص١٤٣، والسبعة ص٣٩٢.

(٨) الكشاف ٢/ ٤٨٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٩.

﴿لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] أي: له الملكُ والحكمُ يومئذٍ، أي: لا يُردُّ أمرُه إلى أحد، والمُلك في كل وقتٍ لله، ولكن تَزولُ الدَّعاوَى والتَّوَهُّماتُ يومَ القيامة. وقال أبو عبيد: إنَّها بفتحِ الواو للخالق، وبكسرها للمخلوق[١].

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: اللهُ خيرٌ ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثَمَّ غيرٌ يُرْجَى منه، ولكنَّه أرادَ: في ظنِّ الجُهَّال، أي: هو خيرُ مَنْ يُرجَى[٢]. ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ قرأ عاصم والأعمش، وحمزة ويحيى: «عُقْباً» ساكنة القاف، الباقون بضمِّها[٣]، وهما بمعنًى واحد؛ أي: هو خيرُ عاقبةٍ لمن رَجاه وآمنَ به. يقال: هذا عاقبةُ أمرِ فلان وعُقباه[٤] وعُقْبُه، أي: آخره.

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: صِفْ لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طَردَ فقراءِ المؤمنين مَثلَ الحياةِ الدنيا، أي: شَبِّهها[٥] ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ حتى استوى. وقيل: إنَّ النبات اختلط بعضُه ببعض حين نزل عليه الماء[٦]؛ لأنَّ النبات إنما يختلطُ ويكثر بالمطر. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يونس»[٧] مبيَّناً.

---

(١) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٩ .

(٢) ينظر زاد المسير ٥/ ١٤٨ .

(٣) التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩٢ ، عن عاصم وحمزة، وزاد عليهما في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٩ الحسن، وذكر قراءة الأعمش أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٣١ .

(٤) بعدها في (ظ): وعقيبه، وفي (ف): وعقبه، وينظر الطبري ١٥/ ٢٧١ ، والصحاح ومقاييس اللغة (عقب).

(٥) ينظر الطبري ١٥/ ٢٧٢ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٠٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٩ .

(٧) ١٠/ ٤٧٧ .

وقالت الحكماء: إنَّما شبَّه تعالى الدنيا بالماء؛ لأنَّ الماءَ لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحدٍ، ولأن الماءَ لا يستقيم على حالةٍ واحدة كذلك الدنيا، ولأنَّ الماءَ لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تَفنَى، ولأن الماءَ لا يَقدِر أحدٌ أن يدخلَه ولا يبتلَّ، كذلك الدنيا لا يَسلم أحدٌ دخلها من فتنتِها وآفتها، ولأنَّ الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً مُنْبِتاً[1]، وإذا جاوزَ المقدار كان ضارًّا مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفعُ وفضولُها يضرُّ. وفي حديثِ النبيِّ ﷺ قال له رجل: يا رسولَ الله، إني أريدُ أن أكونَ من الفائزين، قال: «ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد؛ فإنَّ القليلَ منها يكفي، والكثير منها يُطغي»[2]. وفي «صحيح» مسلم عن النبيِّ ﷺ: «قد أفلحَ مَن أسلم ورُزِق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه»[3]. ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: النبات ﴿هَشِيمًا﴾ أي: متكسِّراً من اليُبس متفتِّتاً، يعني: بانقطاعِ الماءِ عنه، فحذف ذلك إيجازاً لدلالةِ الكلامِ عليه[4]. والهَشْم: كسرُ الشيء اليابس. والهشيمُ من النبات اليابسُ المتكسرُ، والشجرةُ البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: ما فلانٌ إلا هشِيمةُ كَرَمٍ؛ إذا كان سَمْحاً. ورجلٌ هَشِيم: ضعيفُ البدن. وتهشَّم عليه فلان إذا تعطَّف. واهتشم ما في ضَرعِ الناقةِ إذا احتلبَه. ويقال: هَشَمَ الثَّريد، ومنه سُمِّيَ هاشمُ بنُ عبدِ مناف واسمُه عمرو، وفيه يقولُ عبدُ الله بن الزِّبعْرَى:

عَمْرُو العُلَا هَشَم الثريدَ لقومه ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُون عِجافُ[5]

---

(١) في (ظ) و(ف): مبقياً.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) صحيح مسلم (١٠٥٤)، وهو عند أحمد (٦٥٧٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٩.

(٥) الصحاح (هشم)، والبيت في ديوان عبد الله ص٥٣ في ما ينسب إلى عبد الله بن الزبعرى وإلى غيره من الشعراء، وفي أمالي المرتضى ٢/ ٢٦٩، والحماسة البصرية ١/ ١٥٥ - ١٥٦. ومسنتون مِن أسنتوا: أجدبوا. القاموس (سنت).

وكان سببُ ذلك أنَّ قريشاً أصابتهم سِنونَ ذهبْنَ بالأموالِ، فخرج هاشمٌ إلى الشأم، فأمرَ بخبز كثيرٍ فخُبِز له، فحمله في الغرائر على الإبلِ حتى وافى مكةَ، وهشمَ ذلك الخبز، يعني: كَسَّره وثَرَده، ونحر تلك الإبلَ، ثم أمر الطُّهاةَ فطبخوا، ثم كفأ القدورَ على الجِفان فأشبعَ أهلَ مكة؛ فكان ذلك أولَ الحِباء[١] بعدَ السنةِ التي أصابتهم؛ فسُمِّيَ بذلك هاشماً[٢].

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تُفرقه؛ قاله أبو عبيدة[٣]. ابن قتيبة: تنسِفُه[٤]. ابن كَيْسان: تذهبُ به وتجيء. ابنُ عباس: تُديره[٥]، والمعنى متقاربٌ. وقرأ طلحةُ بنُ مُصَرِّف «تذريه الريح»[٦]. قال الكسائي: وفي قراءةِ عبد الله «تَذريه»[٧]. يقال: ذَرَتْه الريحُ تَذْرُوه ذَرْواً، وتَذرِيه[٨] ذَرْياً، وأذرته تُذْريه إذْراء[٩] إذا طارتْ به. وحكى الفراءُ[١٠]: أَذريتُ الرجلَ عن فرسِه، أي: قلبتَه. وأنشد سيبويهِ والفراءُ:

فقلتُ له صَوِّبْ ولا تَجهدَنَّهُ ... فَيُذْرِك من أُخْرَى القَطاةِ فَتَزْلَقِ[١١]

---

(١) في (ف): الحياة، والحِباءُ: العطاء بلا جزاء ولا مَنٍّ. القاموس (حبو).

(٢) ينظر الروض الأنف ١/ ١٦١ .

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٥ .

(٤) تفسير غريب القرآن ص٢٦٨ .

(٥) في (ز): تدبره.

(٦) أي بالإفراد، وذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ ، وزاد النخعيَّ والأعمش، وذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٣٣ عن عدد من القراء.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٦ ، وزاد المسير ٥/ ١٤٨ .

(٨) ليست في (د) و(ز).

(٩) الصحاح (ذرا)، والطبري ١٥/ ٢٧٢ .

(١٠) في معاني القرآن ٢/ ١٤٦ .

(١١) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص١٧٤ ، وهو عند سيبويه في الكتاب ٣/ ١٠١ وعزاه إلى عمرو ابن عمار الطائي ووقع في الكتاب: فيُدْنِك من الإدناء، وعند الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٤٦ ، والطبري ١٥/ ٢٧٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٩ دون نسبة، وقال الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص٤٢٥ : يقول هذا لغلامه وقد حمله على فرسه ليصيد له، ومعنى صوِّب: خذ القصدَ في السير وارفق بالفرس ولا تجهده. وأُخرى القطاةِ: آخرها، والقطاة: مقعد الردف. ويُروى: فيُذرِك أي: يرمي بك، يقال: أذراه عن فرسه إذا رمى به. وجاء في (د) و(ز) و(ظ): صوِّت.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ من الإنشاءِ والإفناءِ[١] والإحياء، سبحانه!

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ ويجوزُ «زينتا» وهو خبر الابتداءِ في التثنيةِ والإفراد. وإنَّما كان المالُ والبنون زينةَ الحياة الدنيا؛ لأنَّ في المالِ جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوَّة ودفعاً[٢]، فصارا زينةَ الحياة الدنيا، لكن معه قرينةُ الضَّعَة[٣] للمال والبنين؛ لأن المعنى: المالُ والبنون زينةُ هذه الحياة المحتقرة؛ فلا تُتبعوها نفوسَكم[٤]. وهو رَدٌّ على عُيينةَ بن حِصْن وأمثالِه لمَّا افتخروا بالغنى والشرفِ، فأخبر تعالى أنَّ ما كان من زينةِ الحياة الدنيا فهو غرورٌ يمرُّ ولا يبقى، كالهشيمِ حين ذَرتْه الريحُ، إنَّما يبقى ما كان من زادِ القبر وعُدد الآخرة[٥]. وكان يقال: لا تعقد قلبكَ مع المال؛ لأنه فَيْءٌ ذاهب، ولا مع النساءِ؛ لأنَّها اليومَ معك وغداً مع غيرك، ولا مع السلطان؛ لأنه اليوم لك وغداً لغيرك. ويكفي في هذا قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ [التغابن: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي: ما يأتي به سَلْمان وصُهيب وفقراءُ المسلمين من الطاعات[٦] ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضل ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضل

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٨٦ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣١٠ .

(٣) في (م): الصفة.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ .

(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠١ ، والطبري ١٥/ ٢٧٣ بنحوه.

(٦) الوسيط ٣/ ١٥١ .

أملاً من ذي المال والبنين دونَ عمل صالح[١]، وليس في زينةِ الدنيا خير، ولكنه خَرَج مخرجَ قولِه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وقيل: خير في التحقيق ممَّا يَظنُّه الجهالُ أنه خير في ظنِّهم.

واختلف العلماءُ في «الباقيات الصالحات»، فقال ابنُ عباس وابن جُبير وأبو مَيْسرة عمرو[٢] بن شُرَحْبِيل: هي الصلواتُ الخمس[٣]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها كلُّ عملٍ صالح من قول أو فعل يبقى للآخرةِ. وقاله ابنُ زيد ورجَّحه الطبري[٤]، وهو الصحيحُ إن شاء الله؛ لأنَّ كل ما بقي ثوابُه، جازَ أن يقالَ له هذا. وقال عليٌّ ﷺ: الحرثُ حرثان، فحرثُ الدنيا المالُ والبنون، وحرثُ الآخرةِ الباقياتُ الصالحات، وقد يَجمعُهن الله تعالى لأقوام[٥].

وقال الجمهور: هي الكلماتُ المأثورُ فضلها: سبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم[٦]. خرَّجه مالك في «موطئه»[٧] عن عمارة بنِ صياد، عن سعيد بن المسيِّب، أنه سمعه يقولُ في الباقياتِ الصالحات: إنها قولُ العبدِ: الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله. أَسنده النَّسائيُّ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ، أن رسول الله ﷺ قال: «استكثِروا من الباقياتِ الصالحات» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبيرُ والتهليلُ والتسبيحُ والحمدُ لله ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله»[٨]. صحَّحه أبو محمد عبدُ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠.

(٢) في (م): وعمرو.

(٣) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٠ - ٢٨١ عنهما ورجَّحه.

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٥٠٣.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠.

(٧) الموطأ ١/ ٢١٠، وهو عند الطبري ١٥/ ٢٧٩.

(٨) لم نقف عليه عند النسائي، وعزاه المزي في تحفة الأشراف ٣/ ٣٦٢ إليه في عمل اليوم والليلة وذكر إسناده، وصححه عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى ٢/ ٨٩١، وهو عند أحمد (١١٧١٣).

الحق رحمه الله. وروى قتادةُ أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذَ غُصْناً فَخرطه حتى سقط ورقُه وقال: «إنَّ المسلم إذا قالَ: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تَحاتَّت خطاياه كما تَحاتَّ هذا، خُذهنَّ إليك أبا الدرداء قبلَ أن يُحال بينَك وبينهن؛ فإنَّهن من كنوزِ الجنةِ وصفايا الكلام، وهنَّ الباقياتُ الصالحات». ذكره الثعلبي، وخرَّجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداءِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عليك بسبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ فإنَّهنَّ يعني يَحطُطْنَ الخطايا كما تَحطُّ الشجرةُ ورقَها»[١]. وأخرجه الترمذي[٢] من حديث الأعمش، عن أنسِ بن مالك، أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بشجرةٍ يابسةِ الورقة فضربها بعَصاهُ فتناثرَ الورقُ فقال: «إنَّ الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتُساقِطُ من ذنوبِ العبد كما تَساقَطَ ورقُ هذه الشجرة». قال: هذا حديثٌ غريب ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس، إلا أنه قد رآه ونظرَ إليه[٣]. وخرَّج الترمذي[٤] أيضاً عن ابنِ مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَقِيتُ إبراهيمَ عليه السلام ليلةَ أسْرِيَ بي فقال: يا محمدُ، أَقرئ أمتَك مني السلامَ، وأَخبرهم أنَّ الجنةَ طيبةُ التُّربةِ عذبةُ الماء، وأنَّها قِيعان وأنَّ غِراسها سبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر» قال: حديثٌ حسنٌ غريب، خرَّجه الماوردي[٥] بمعناه. وفيه: فقلتُ: وما غِراسُ الجنةِ؟ قال: «لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله». وخرَّج ابنُ ماجه[٦] عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ به وهو يَغْرِسُ غَرْساً فقالَ: «يا أبا هريرةَ، ما الذي تغرس؟» قلت: غراساً. قال: «ألا أدُلُّك على غِراسٍ خيرٍ من هذا، سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر، يُغرسُ لك بكلِّ واحدة شجرةٌ في

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٨١٣)، وضعَّفه البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٦٤ .

(٢) في سننه (٣٥٣٣).

(٣) قوله: ولا نعرف للأعمش سماعاً... ونظر إليه، ليس في السنن

(٤) في سننه (٣٤٦٢).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٠ - ٣١١ دون إسناد.

(٦) في سننه (٣٨٠٧)، وحسَّن إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٦٣ .

الجنةِ». وقد قيل: إنَّ الباقياتِ الصالحاتِ هي النياتُ والهَمَّاتُ؛ لأنَّ بها تُقبَل الأعمال وتُرفع؛ قاله الحسن. وقال عُبيد بن عُمير: هنَّ البناتُ؛ يدلُّ عليه أوائلُ الآية، قال الله تعالى: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» ثمن قالَ: «والباقياتُ الصالحات» يعني: البنات الصالحات هنَّ عندَ الله لآبائهنَّ خيرٌ ثواباً، وخير أملاً في الآخرة لمن أحسن إليهنَّ. يدُلُّ عليه ما روته عائشةُ رضي الله عنها قالت: دَخلتْ عليَّ امرأةٌ مسكينة... الحديث، وقد ذكرناه في سورةِ النحل في قوله: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية[١]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لقد رأيتُ رجلاً من أمتي أُمِر به إلى النار، فتعلَّق به بناتُه وجَعلنَ يَصْرُخنَ ويَقُلن: ربِّ إنه كان يُحسنُ إلينا في الدنيا، فَرحِمَه اللهُ بهنَّ»[٢]. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] قال: أبدلهما منه ابنةً فتزوجها نبيٌّ، فَولدت له اثني عشر غلاماً كلُّهم أنبياءُ[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال بعضُ النحويين: التقديرُ: والباقياتُ الصَّالحاتُ خيرٌ عند ربك يومَ نُسيِّر الجبال. قال النحاسُ: وهذا غلطٌ من أجلِ الواو[٤]. وقيل: المعنى: واذكر يومَ نُسيِّر الجبال[٥]، أي: نزيلها من أماكِنها من

---

(١) ٥٩ .

(٢) أخرج نحوه ابن ماجه (٣٦٦٩)، وابن أبي الدنيا في العيال (٨٩) من حديث عقبة بن عامر بلفظ: من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهنَّ وأطعمهنَّ وسقاهنَّ وكساهنَّ من جِدَتِه، كنَّ له حجاباً من النار يوم القيامة. لفظ ابن ماجه.

(٣) نسبه الواحدي في الوسيط ٣/ ١٦١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٨١ لابن عباس وقال: سبعين بدل اثني عشر نبيًّا. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ : وهذا بعيد، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٠ .

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٢ .

على وجهِ الأرض، ونُسيرها كما نسيرُ السحاب؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]. ثم تكسرُ فتعود إلى الأرضِ[١]؛ كما قال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٥-٦]. وقرأ ابنُ كَثير والحسن، وأبو عمرو وابن عامر: «ويوم تُسَيَّر» بتاءٍ مضمومة وفتحِ الياء، و«الجبالُ» رفعاً على الفعل المجهول[٢]. وقرأ ابن مُحَيْصِن[٣] ومجاهد: «ويوم تَسير الجبالُ» بفتح التاءِ مخففاً من سار، «الجبال» رفعاً. دليلُ قراءةِ أبي عمرو: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣]. ودليلُ قراءةِ ابن محيصِن: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:١٠]. واختار أبو عبيد[٤] القراءة الأولى: «نُسيِّر» بالنون؛ لقوله: «وحشرناهم».

ومعنى ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرة، وليس عليها ما يسترُها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أي: قد اجتُثت ثمارُها وقُلِعت جبالها، وهُدم بنيانُها، فهي بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهلُ التفسير. وقيل: «وترى الأرض بارزة» أي: برزَ ما فيها من الكنوز والأموات[٥]؛ كما قال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٤] وقال: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢] وهذا قولُ عطاء[٦].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: إلى الموقف، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم نترك؛ يقال: غَادرتُ كذا، أي: تركته. قال عنترةُ:

غَادَرْتُه مُتَعَفِّراً أوصالُه ... والقومُ بين مُجَرَّحٍ ومُجَدَّلِ[٧]

---

(١) الوسيط ٣/ ١٥٢ .

(٢) السبعة ص٣٩٣ ، والتيسير ص١٤٤ ، و قراءة الحسن في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ .

(٣) القراءات الشاذة ص٨٠ .

(٤) في (ظ): عبيدة.

(٥) الطبري ١٥/ ٢٨١ ، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٢ ، والوسيط ٣/ ١٥٢ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٣١١ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٦٥ .

(٧) ديوانه ص٦٠ .

أي: تركته. والمغادرةُ الترك، ومنه الغَدْر؛ لأنه تركُ الوفاءِ. وإنَّما سُمِّي الغديرُ من الماءِ غديراً؛ لأنَّ الماء ذهبَ وتركَه. ومنه غدائرُ المرأة؛ لأنها تجعلُها خلفَها[١]. يقول: حَشرنا بَرَّهم وفاجِرَهم وجنَّهم وإنسَهم.

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

قول تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ «صفًّا» نُصِب على الحال[٢]. قال مقاتل: يُعرضون صفًّا بعد صفٍّ كالصفوف في الصلاة، كلُّ أمةٍ وزمرة صفًّا، لا أنهم صفٌّ واحد[٣]. وقيل: جميعاً، كقوله: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤] أي: جميعاً[٤]. وقيل: قياماً[٥]. وخرَّج الحافظُ أبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ مَنْدَه في «كتابِ التوحيد» عن معاذ ابنِ جبل، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله تباركَ وتعالى يُنادي يومَ القيامة بصوتٍ رفيع غيرِ فظيعٍ: يا عبادي، أنا اللهُ لا إله إلا أنا أرحمُ الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرعُ الحاسبين، يا عبادي، لا خوف عليكم اليومَ، ولا أنتم تحزنون، أَحْضِروا حجَّتكم، ويَسِّروا جواباً؛ فإنكم مسؤولون محاسبون، يا ملائكتي، أقيموا عبادي صفوفاً على أطرافِ أَناملِ أقدامِهم للحساب»[٦].

قلت: هذا الحديثُ غايةٌ في البيان في تفسيرِ الآية، ولم يَذكُره كثيرٌ من المفسرين، وقد كتبناه في «كتاب التذكرة»[٧]، ومنه نقلناهُ والحمد لله.

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم: لقد جئتمونا حُفاةً عُراة، لا

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٨٧ ، والنكت والعيون ٣/ ٣١١ - ٣١٢ ، والرازي ٢١/ ١٣٣ .

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٦٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣١٢ ، والوسيط ٣/ ١٥٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٦٥ ، دون نسبة.

(٤) نسبه في زاد المسير ٥/ ١٥١ إلى مقاتل.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٦٥ .

(٦) ينظر الدر المنثور ٤/ ٢٢٦ .

(٧) ص٢٥٣ - ٢٥٤ .

مالَ معكم ولا ولداً. وقيل: فرادَى[١]؛ دليلُه قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقد تقدَّم. وقال الزجاجُ[٢]: أي: بعثناكم كما خَلقناكم.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ هذا خطابٌ لمنكري البعث، أي: زعمتم في الدنيا أنْ لن تُبعثوا، وأن لن نجعلَ لكم موعداً للبعث[٣]. وفي «صحيح» مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُحشرُ الناسُ يومَ القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً» قلت: يا رسولَ الله، الرجالُ والنساءُ ينظر بعضُهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعض»[٤]. «غُرْلاً» أي: غير مختونين. وقد تقدمَ في «الأنعامِ» بيانُه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ «الكتاب» اسمُ جنس[٦]، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّها كتبُ الأعمال في أيدي العباد؛ قاله مُقاتل. الثاني: أنه وضْع الحساب؛ قاله الكَلْبِيُّ، فعبَّر عن الحساب بالكتاب؛ لأنَّهم يُحاسبون على أعمالهم المكتوبة[٧]. والقولُ الأوّل أظهرُ؛ ذكره[٨] ابنُ المبارك[٩] قال: أخبرنا الحكم أو أبو الحكم ـ شكَّ

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢.
(٢) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٢.
(٣) الوسيط ٣/ ١٥٢.
(٤) صحيح مسلم (٢٨٥٩).
(٥) ٨/ ٤٦٣.
(٦) الوسيط ٣/ ١٥٢.
(٧) النكت والعيون ٣/ ٣١٢.
(٨) في (ظ) و(ف): ذكر.
(٩) في الزهد زيادات نعيم بن حماد (٣٩٦).

نُعيم ـ عن إسماعيل بنِ عبد الرحمن، عن رجلٍ من بني أسد قال: قال عمرُ لكعْب: وَيْحكَ يا كعب، حدِّثنا من حديث الآخرة، قال: نعم يا أمير المؤمنين! إذا كان يوم القيامة رُفِع اللوحُ المحفوظُ فلم يبقَ أحدٌ من الخلائق إلا وهو ينظرُ إلى عملِه، قال: ثم يُؤتى بالصحفِ التي فيها أعمالُ العباد فتُنشر حولَ العرش، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ قال الأسدي: الصَّغيرةُ ما دون الشركِ، والكبيرةُ الشركُ. «إلا أحصاها» قال كعب: ثم يُدعَى المؤمنُ فيُعطى كتابَه بيمينه، فينظر فيه فإذا حسناتُه بادِياتٌ للناس وهو يقرأُ سيئاتِه؛ لكيلا يقولَ: كانت لي حسناتٌ فلم تُذكَر، فأحبَّ الله أن يُريَه عملَه كلَّه حتى إذا استنقص[1] ما في الكتابِ وجدَ في آخر ذلك كلِّه أنه مغفورٌ وأنَّك من أهل الجنة، فعند ذلك يُقبِل إلى أصحابِه ثم يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ . إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠] ثم يدعى الكافر[2] فيُعطَى كتابَه بشماله ثم يُلَفُّ فيجعل من وراءِ ظهره ويُلْوَى عنقُه، فذلك قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠] فينظر في كتابِه فإذا سيئاتُه بادياتٌ للناس وينظر في حسناتِه؛ لكيلا يقول: أَفأُثاب على السيئات.

وكان الفُضيل بنُ عِيَاض إذا قرأ هذه الآيةَ يقول: يا ويلتاه! ضِجُّوا إلى الله تعالى من الصَّغائر قبل الكبائر[3]. قال ابنُ عباس: الصغيرةُ التبسمُ، والكبيرةُ الضحك[4]. يعني: ما كان من ذلك في معصيةِ الله عزَّ وجلَّ؛ ذكره الثعلبيُّ. وحكى الماوَرْدِيُّ عن ابنِ عباسٍ أنَّ الصغيرةَ الضحكُ[5].

---

(١) في (م) و(ز): استنقص، وفي (ف): استفض، وفي الزهد لابن المبارك استنفض. وكلُّها بمعنى التناهي والتلاشي.

(٢) في (د) و(م): بالكافر، والمثبت من (ظ) و(ز) و(ف)، والزهد لابن المبارك (٣٩٦).

(٣) ذكره الرازي ٢١/ ١٣٤ دون نسبة.

(٤) الوسيط ٣/ ١٥٢ ، والبغوي ٣/ ١٦٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٢ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٤ - ٢٨٥ ، وقال ابن عطية ٣/ ٥٢١ : وهذا مثال.

قلت: فيحتمل أن يكونَ صغيرةً إذا لم يكن في معصيةٍ؛ فإنَّ الضحكَ من المعصية رِضاً بها، والرضا بالمعصيةِ معصيةٌ، وعلى هذا تكون كبيرةً، فيكون وجهُ الجمع هذا. والله أعلم. أو يُحمل الضحكُ فيما ذكر الماورديُّ على التبسم، وقد قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]. وقال سعيد بن جبير: إنَّ الصغائر اللَّمَمُ كالمَسِيس والقُبَل، والكبيرةَ المواقعةُ والزِّنى[١]. وقد مضى في «النساء» بيانُ هذا[٢]. قال قتادة: اشتكى القومُ الإحصاء، وما اشتكى أحدٌ ظلماً، فإياكم ومحقَّرات الذنوبِ؛ فإنَّها تجتمعُ على صاحبها حتى تهلكه[٣]. وقد مضى ومعنى «أحصاها» عدَّها وأحاطَ بها، وأُضيفَ الإحصاءُ إلى الكتاب توسُّعاً. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: وجدوا إحصاءَ ما عملوا حاضراً. وقيل: وجدوا جزاءَ ما عملوا حاضراً. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: لا يأخذُ أحداً بجُرْمِ أحد، ولا يأخذه بما لم يَعمَلْه؛ قاله الضحاكُ[٤]. وقيل: لا يَنقُص طائعاً من ثوابِه، ولا يزيد عاصياً في عقابه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ تقدم في «البقرة» هذا مستوفًى[٦]. قال أبو جعفر النحاس: وفي هذه الآيةِ سؤال، يقال: ما معنى: «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه»؟ ففي هذا قولان أحدهما: وهو

(١) الوسيط ٣/ ١٥٢، والبغوي ٣/ ١٦٦.

(٢) ٦/ ٢٦١ وما بعدها.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٦٦.

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٣٤، والنكت والعيون ٣/ ٣١٣، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢.

(٦) ١/ ٤٣٣ وما بعدها.

مذهبُ الخليل وسيبويه أنَّ المعنى: أتاه الفسقُ لمَّا أُمِر فعَصَى، فكان سببَ الفسق أمْرُ ربه، كما تقول: أطعمته عن جوع. والقول الآخر: وهو مذهب محمد بن [المستنير] قُطْرب أن المعنى: ففسقَ عن ردِّ أمرِ ربه[١].

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ وقفَ عزَّ وجلَّ الكفرةَ على جهة التوبيخِ بقوله: أفتتخذونه يا بني آدم وذرِّيَّته أولياءَ وهم لكم عدوٌّ، أي: أعداء، فهو اسمُ جنس. ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادةِ الله. أو بئس إبليسُ بدلاً عن الله[٢]. واختُلِف هل لإبليس ذريةٌ من صلبِه؟ فقال الشَّعبيُّ: سألني رجلٌ فقال: هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إنَّ ذلك عُرْسٌ لم أَشهدْه، ثم ذكرت قوله: «أفتتخذونه وذريته أولياء» فعلمتُ أنه لا تكون ذريةٌ إلا من زوجةٍ، فقلت: نعم. وقال مجاهد: إنَّ إبليسَ أدخلَ فرجَه في فرجِ نفسه فباض خمسَ بيضات، فهذا أصلُ ذريته[٣]. وقيل: إن الله تعالى خلقَ له في فخذه اليمنى ذكراً، وفي اليسرى فرجاً، فهو ينكح هذا بهذا، فيَخرجُ له كلَّ يوم عشرُ بيضات، يخرج من كل بيضةٍ سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يَخْرج وهو يطير، وأعظمُهم عند أبيهم منزلةً أعظمُهم في بني آدم فتنةً. وقال قومٌ: ليس له أولادٌ ولا ذرية، وذرِّيتُه أعوانُه من الشياطين. قال القُشيري أبو نصر: والجملةُ أنَّ الله تعالى أخبرَ أن لإبليس أتباعاً وذرية، وأنهم يُوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفيةٌ في كيفيةِ التوالد منهم وحدوثِ الذريةِ عن إبليس، فيتوقَّف الأمرُ فيه على نقلٍ صحيحٍ.

قلت: الذي ثبتَ في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميديُّ في «الجمعِ بين الصحيحين» عن الإمام أبي بكر البرقاني، أنَّه خَرَّج في كتابِه مسنداً عن أبي محمد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤ - ٢٥٥ ، وما بين حاصرتين سقط منه ومن النسخ، وقد صرح بأنه قطرب الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٥٤ .

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٦٧ - ١٦٨ ، ونسب قول مجاهد إلى قتادة بنحوه.

عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تكن أوَّلَ مَن يدخل السوقَ، ولا آخر مَن يخرج منها، فبها باض الشيطانُ وفرَّخ»[١]. وهذا يدلُّ على أن للشيطان ذريةً من صلبه، والله أعلم. قال ابنُ عطية[٢]: وقولُه: «وذريته» ظاهرُ اللفظِ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يَأمرون[٣] بالمنكر، ويحملون على الباطل.

وذكر الطبري[٤] وغيره أنَّ مجاهداً قال: ذريةُ إبليس الشياطينُ، وكان يَعدُّهم:

زَلَنْبُور: صاحبُ الأسواق، يضع رايتَه في كل سوقٍ بين السماء والأرض، يجعل تلك الرايةَ على حانوتِ أوَّلِ مَن يفتح وآخرِ مَن يغلق.

وثَبْر: صاحبُ المصائب، يأمر بضربِ الوجوه، وشقِّ الجيوب، والدعاءِ بالويل والحرب.

والأعورُ: صاحبُ أبواب الرِّبا[٥].

ومِسْوَط: صاحبُ الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواهِ الناس فلا يَجِدون لها أصلاً.

وداسم: الذي إذا دخلَ الرجلُ بيتَه فلم يُسلِّم ولم يذكرِ اسمَ الله بصَّرَه من المتاع ما لم يُرفع، وما لم يُحسَن موضعُه، وإذا أكلَ ولم يذكر اسمَ الله، أكلَ معه. قال الأعمشُ: وإني ربما دخلتُ البيتَ فلم أذكرِ الله ولم أُسلِّم، فرأيت مطهرةً فقلتُ: ارفعوا هذه، وخَاصمتُهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم! أعوذُ بالله منه[٦].

زاد الثعلبي وغيرُه عن مجاهد:

---

(١) الجمع بين الصحيحين للحميدي ٣/ ٣٦١، وهو عند مسلم (٢٤٥١).

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٢.

(٣) في النسخ: «يأتون» والمثبت من المحرر الوجيز.

(٤) في التفسير ١٥/ ٢٩٢.

(٥) في (ز) و(م): «الزنى».

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٩٣.

والأبيضُ، وهو الذي يوسوس للأنبياء.

وصخر وهو الذي اختلسَ خاتمَ سليمانَ عليه السلام[١].

والولهان وهو صاحبُ الطهارة يوسوسُ فيها[٢].

والأقيس وهو صاحبُ الصلاة يوسوس فيها.

ومُرَّة وهو صاحبُ المزامير وبه يُكْنَى.

والهفاف[٣] يكونُ بالصحارَى يُضلُّ الناسَ ويُتيهُهم، ومنهم الغيلان.

وحكى أبو مطيع مكحولُ بنُ الفضل النسفي في «كتابِ اللؤلؤيات» عن مجاهد، أنَّ الهفافَ هو صاحب الشراب، ولقوس صاحبُ التحريش، والأعورَ صاحبُ أبواب السلطان. قال: وقال الدَّرانيُّ: إنَّ لإبليس شيطاناً يقال له: المتقاضي، يتقاضى ابنَ آدم فيخبر بعمل كان عمله في السرِّ منذ عشرين سنة، فيُحدِّث به في العلانية.

قال ابن عطية[٤]: وهذا وما جانَسه ممَّا لم يأتِ به سندٌ صحيح، وقد طوَّل النقاشُ في هذا المعنى، وجلب حكاياتٍ تبعد عن الصحةِ، ولم يمرَّ بي في هذا صحيح إلا ما في «كتاب مسلم»[٥] من أنَّ للصلاةِ شيطاناً يسمى خِنْزب. وذكر الترمذيُّ أنَّ للوضوء شيطاناً يسمى الولهان[٦].

قلت: أما ما ذُكر من التعيينِ في الاسم فصحيح، وأما أنَّ له أتباعاً وأعواناً وجنوداً فمقطوعٌ به، وقد ذكرنا الحديثَ الصحيح في أنَّ له أولاداً من صلبه، كما قال مجاهد وغيره.

---

(١) عرائس المجالس ص٣٢٥.

(٢) أخرج أحمد (٢١٢٣٨ زوائد)، والترمذي (٥٧)، وابن ماجه (٤٢١)، من حديث أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: للوضوء شيطان يقال له: الولهان، فاتقوه، أو قال: فاحذروه. وفي إسناده خارجة بن مصعب وهو متروك الحديث.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٦٧.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٢.

(٥) برقم (٢٢٠٣)، وهو عند أحمد (١٧٨٩٧)، من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ.

(٦) تقدم تخريجه آنفاً.

وفي «صحيح» مسلم عن عبدِ الله بنِ مسعود قال: إنَّ الشيطانَ ليتمثل في صورةِ الرجلِ، فيأتي القومَ فيحدِّثُهم بالحديث من الكذب، فيتفرَّقون فيقول الرجل منهم: سمعتُ رجلاً أعرفُ وجهه ولا أدري ما اسمُه يحدِّث[١].

وفي «مسند» البَزَّار عن سلمان الفارسي قال: قال النبيُّ ﷺ: «لا تكونَنَّ إن استطعتَ أَوَّلَ مَن يدخل السوقَ، ولا آخرَ مَنْ يخرجُ منها؛ فإنَّها معركةُ الشيطان، وبها ينصِبُ رايتَه»[٢].

وفي «مسند» أحمد بنِ حنبل قال: أنبأنا عبدُ الله بنُ المبارك قال: حدَّثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ، عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبحَ إبليسُ بَثَّ جنودَه فيقول: مَنْ أَضلَّ مسلماً أَلبستُه التاجَ. قال: فيقول له القائل: لم أَزلْ بفلانٍ حتى طلَّق زوجتَه. قال: يُوشِك أن يتزوَّج. ويقول آخر: لم أزل بفلانٍ حتى عَقَّ. قال: يوشِك أن يَبَرَّ. قال: ويقول القائل: لم أَزلْ بفلان حتى شَرِب. قال: أنت! قال: ويقول: لم أَزلْ بفلان حتى زَنَى. قال: أنت! قال: ويقول: لم أزل بفلانٍ حتى قَتَل. قال: أنتَ أنتَ[٣].

وفي «صحيح» مسلم عن جابرٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ إبليسَ يضعُ عرشَه على الماء، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمُهم فتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً. قال: ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينه وبينَ أهلِه، قال: فيُدنيهِ، أو قال: فيلتزمه ويقول: نِعْمَ أنتَ»[٤]. وقد تقدَّم.

وسمعتُ شيخَنا الإمامَ أبا محمد عبدَ المعطي بثَغْرِ الإسكندريةِ يقول: إنَّ شيطاناً

---

(١) صحيح مسلم (٧).

(٢) مسند البزار (٢٥٤١)، وهو عند مسلم (٢٤٥١).

(٣) لم نقف عليه في مسند أحمد، ولم يذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند، ولا في إتحاف المهرة ١٠/ ٣٨، وعزاه لابن حبان والحاكم، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١١٤ إلى الطبراني في الكبير. وأخرجه ابن حبان (٦١٨٩)، والحاكم ٤/ ٣٥٠، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ.

(٤) صحيح مسلم (٢٨١٣) (٦٧)، وهو عند أحمد (١٤٣٧٧).

يقالُ له البَيضاوي يتمثلُ للفقراءِ المواصلين في الصيامِ، فإذا استحكمَ منهمُ الجوعُ وأضرَّ بأدمِغتِهم، يكشفُ لهم عن ضياءٍ ونورٍ حتى يملأَ عليهم البيوتَ، فيظنُّون أنَّهم قد وصلوا، وأنَّ ذلك من اللهِ، وليسَ كما ظنُّوا.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل: الضميرُ عائد على إبليس وذريته[1]، أي: لم أُشاورهم في خلق السماوات والأرض ولا خلقِ أنفسهم، بل خلقتُهم على ما أردت. وقيل: ما أشهدت إبليسَ وذريته خلقَ السماوات والأرض «ولا خلق أنفسهم» أي: أنفس المشركين، فكيفَ اتخذوهم أولياءَ من دوني؟[2]. وقيل: الكنايةُ في قوله: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ» ترجعُ إلى المشركين، وإلى الناس بالجملة، فَتتضمنُ الآيةُ الردَّ على طوائف من المنجِّمين، وأهل الطبائع، والمتحكمين من الأطباءِ وسواهم مِن كل مَن ينخرطُ[3] في هذه الأشياء. وقال ابنُ عطية[4]: وسمعتُ أبي ﷺ يقولُ: سمعتُ الفقيهَ أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدوي[5] بالمهدية يقول: سمعتُ عبدَ الحق الصِّقِلِّيَّ يقول هذا القول، ويتأوَّل هذا التأويلَ في هذه الآية، وأنَّها رادةٌ على هذه الطوائف، وذكر هذا بعضُ الأصوليين. قال ابنُ عطية وأقولُ: إن الغرضَ المقصود أولاً بالآية هم إبليسُ وذريتُه، وبهذا الوجه يتجهُ الردُّ على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعربِ والمعظمين للجنِّ، حين يقولون:

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٤ .

(٢) زاد المسير ٥/ ١٥٤ .

(٣) في (ظ): يتخوض، وفي (ز) و(ف): يتخرص.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ ، وما قبله منه.

(٥) في (م) و(د): المهدي.

أعوذُ بعزيزِ هذا الوادي، إذ الجميعُ من هذه الفرق متعلقون[١] بإبليس وذريتِه وهم أَضلوا الجميع، فهم المرادُ الأول بالمضلِّين، وتندرجُ هذه الطوائفُ في معناهم. قال الثعلبي: وقال بعضُ أهلِ العلم: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» ردٌّ على المنجِّمين أنْ قالوا: إنَّ الأفلاكَ تُحدِث في الأرض وفي بعضها في بعض، وقولُه: «والأرضِ» ردٌّ[٢] على أصحابِ الهندسة حيثُ قالوا: إنَّ الأرضَ كُريَّة[٣] والأفلاكَ تجري تحتها، والناس ملصَقون عليها وتحتها، وقولُه: «ولا خلق أنفسهم» ردٌّ على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائعَ هي الفاعلةُ في النفوس. وقرأ أبو جعفر: «ما أشهدناهم» بالنون والألف على التعظيم. الباقون بالتاء[٤] بدليل قولِه: «وما كنت متخذ» يعني: ما استعنتُهم على خلقِ السماوات والأرض ولا شاورتُهم. ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ يعني: الشياطين. وقيل: الكفار[٥] ﴿عَضُدًا﴾ أي: أعواناً[٦]. يقال: اعتضدتُ بفلانٍ إذا استعنتَ به وتَقوَّيتَ[٧]. والأصلُ فيه عَضُدُ اليد، ثم يوضعُ موضعَ العون؛ لأنَّ اليدَ قِوامُها العَضدُ. يقال: عَضَده وعَاضَدَه على كذا إذا أَعانه وأَعزَّه. ومنه قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] أي: سَنُعينك بأخيك. ولفظُ العضدِ على جهةِ المثَل، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عونِ أحد. وخَصَّ المضلِّين بالذكر لزيادةِ الذمِّ والتوبيخ. وقرأ أبو جعفر والجَحْدَريّ: «وَمَا كُنْتَ» بفتح التاء[٨]، أي: وما كنت يا محمدُ متخذَ المضلِّين عضداً[٩]. وفي عضد ثمانيةُ أوجه[١٠]: «عَضُداً» بفتح

---

(١) في النسخ الخطية: متعلقين، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣.

(٢) في النسخ الخطية: ردًّا.

(٣) في النسخ الخطية: أكرية.

(٤) النشر ٢/ ٣١١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٩٥، عن قتادة.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٤، والصحاح (عضد).

(٨) وقع في النسخ: أبو جعفر الجحدري دون واو، وهو خطأ، والكلام في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، وقراءة أبي جعفر من العشرة وهي في النشر ٢/ ٣١١.

(٩) الكلام بنحوه في الكشاف ٢/ ٤٨٨.

(١٠) ذكر ستة أوجه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٦٠، وذكر خمساً الزجاج في معاني القرآن =

العين وضم الضاد، وهي قراءةُ الجمهور، وهي أفصحُها. و«عَضْداً» بفتح العين وإسكان الضاد، وهي لغة بني تميم. و«عُضُداً» بضم العينِ والضاد، وهي قراءةُ أبي عمرو والحسن. و«عُضْداً» بضم العين وإسكانِ الضاد، وهي قراءةُ عكرمة. و«عِضَداً» بكسر العين وفتح الضاد، وهي قراءةُ الضحاك. و«عَضَداً» بفتح العين والضاد، وهي قراءةُ عيسى بن عمر. وحكى هارون القارئ «عَضِداً». واللغةُ الثامنةُ «عِضْداً» على لغةِ مَن قال: كتْف وفِخْذ[1].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: اذكروا يومَ يقول الله: أينَ شركائي؟ أي: ادعوا الذينَ أشركتُموهم بي، فليمنعوكم من عذابي، وإنَّما يقول ذلك لعبدةِ الأوثان[2]. وقرأ حمزةُ ويحيى وعيسى بنُ عمر: «نقول» بنون. الباقون بالياء[3]؛ لقوله: «شركائي» ولم يقل: شركائنا، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: فعلوا ذلك، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: لم يُجيبوهم إلى نصرِهم، ولم يكفُّوا عنهم شيئاً، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال أنسُ بن مالك: هو وادٍ في جهنمَ من قيح ودم[4]. وقال ابنُ عباس: أي: وجعلنا بينَ المؤمنين والكافرين حاجزاً. وقيل: بينَ الأوثان وعَبَدتِها[5]، نحو قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]. قال ابنُ الأعرابي: كلُّ شيءٍ حاجزٌ بينَ شيئين فهو مَوْبِق. وذكر ابنُ وهب، عن مجاهدٍ في قولِه تعالى: «مَوْبِقا» قال: وادٍ في جهنمَ يقال له: مَوْبق. وكذلك قال نَوْفٌ البِكَاليُّ إلا أنه قال: يحجزُ بينَهم وبينَ المؤمنين[6]. عِكرمة: هو نهرٌ في جهنم يسيل ناراً، على حافتيه حياتٌ مثل البغالِ الدُّهم[7]، فإذا ثارت إليهم

= ٣/ ٢٩٤- ٢٩٥ ، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٨٨ .

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٠ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ جميع القراءات إلا قراءة هارون القارئ، وينظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص٨٠ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٥ ، والسمرقندي ٢/ ٣٠٣ ، وإعراب النحاس ٢/ ٤٦١ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ ، دون ذكر عيسى بن عمر، وزاد طلحةَ والأعمش.

(٤) سيأتي تخريجه قريباً.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٦٨ ، ونحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ .

(٦) الوسيط ٣/ ١٥٣ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٦٨ .

لتأخذهم، استغاثُوا منها بالاقتحام في النار. ورَوى يزيد[١] بنُ درهم، عن أنس بنِ مالك قال: «مَوْبقا» وادٍ من قيح ودم في جهنم[٢]. وقال عطاء والضحاكُ: مَهْلِكاً في جهنم، ومنه يقال: أَوبَقَتْه ذنوبُه إيباقاً[٣]. وقال أبو عبيدة[٤]: موعداً للهلاك. الجوهري: وَبَق يبِق وُبوقا: هَلَك، والمَوْبِق مثلُ الموعدِ، مَفعِلٌ من وعد يَعِد، ومنه قولُه تعالى: «وجعلنا بينهم موبقا». وفيه لغةٌ أخرى: وَبِق يَوْبَق وَبَقاً، وفيه لغةٌ ثالثة: وَبِق يَبِق بالكسرِ فيهما، وأَوبقه أي: أَهلكه[٥]. وقال زهير:

ومَن يَشتري حُسنَ الثَّناءِ بمالِهِ يَصُنْ عِرضَه من كلِّ شَنْعاءَ مُوبِقِ[٦]

قال الفرّاء[٧]: جَعلَ تواصلَهم في الدنيا مَهلِكاً لهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ «رأى» أصلُه رَأَيَ، قُلبت الياءُ ألفاً؛ لانفتاحها وانفتاحِ ما قبلها، ولهذا زعمَ الكوفيون أنَّ «رأى» يكتب بالياء، وتابَعهم على هذا القولِ بعضُ البصريين، فأمَّا البصريونَ الحذَّاقُ، منهم محمدُ بنُ يزيد، فإنَّهم يكتبونَه بالألف. قال النحاس: سمعتُ عليَّ بنَ سليمان يقول: سمعت محمدَ بنَ يزيد يقول: لا يجوزُ أن يُكتَب مضى ورمَى وكلُّ ما كان من ذواتِ الياء إلَّا بالألف، ولا فرقَ بينَ ذواتِ الياء وبين ذوات الواو في الخطِّ، كما أنَّه لا فرقَ بينهما في اللفظ، ولو وجبَ أن يكتب ذواتُ الياء بالياء؛ لوجبَ أن يكتب ذواتُ الواوِ بالواو، وهم مع هذا

---

(١) في (م): زيد، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/٢٩٨ ، وابن حبان في الثقات ٥/٥٣٨ في ترجمة يزيد، والبيهقي في البعث والنشور (٥٢٠).

(٣) تفسير البغوي ٣/١٦٨ .

(٤) في مجاز القرآن ١/٤٠٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/٣١٦ .

(٥) الصحاح (وبق).

(٦) ديوان زهير ص٢٥٢ ، وفيه: ومن يلتمس بدل يشتري. وقال شارحه: شنعاء: قبيحة، وموبق: مهلك، ووقع في النسخ الخطية: عن كل شنعاء، والمثبت من (م)، وديوان زهير.

(٧) في معاني القرآن ٢/١٤٧ .

يُناقِضونَ فيكتبون رمى بالياء ورماهُ بالألف، فإن كانتِ العلةُ أنه من ذوات الياء؛ وجبَ أن يكتبوا رماه بالياء، ثم يكتبون ضُحاً جمع ضَحْوة، وكُساً جمع كِسوة، وهما من ذواتِ الواو بالياء، وهذا ما لا يحصلُ ولا يثبتُ على أصل[١]. ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ «فظنّوا» هنا بمعنى اليقين والعلم[٢]، كما قال:

فَقلْتُ لهمْ ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ[٣]

أي: أيقنوا، وقد تقدم[٤]. قال ابنُ عباس: أيقنوا أنَّهم مواقعوها[٥]. وقيل: رَأَوها من مكان بعيدٍ فتوهَّموا أنَّهم مُواقِعوها، وظنُّوا أنَّها تأخذهم في الحال. وفي الخبر: «إنَّ الكافرَ ليرى جهنمَ ويظنُّ أنَّها مُواقِعَتُه من مسيرةِ أربعينَ سنةً»[٦]. والمواقعةُ ملابسةُ الشيءِ بشدَّةٍ[٧]. [وعن علقمةَ أنه قرأ][٨]: «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلَاقُّوهَا» أي: مجتمعون فيها، واللَّفف الجمعُ، ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: مَهْرَباً؛ لإحاطتها بهم من كلِّ جانب. وقال القتبي[٩]: مَعْدِلاً ينصرفون إليه. وقيل: ملجأً يلجؤون إليه، والمعنى واحدٌ. وقيل: ولم تجدِ الأصنامُ مَصرِفاً للنار عن المشركين[١٠].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦١ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٥٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٥ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٣ .

(٣) صدر بيت لدريد بن الصمة الجشمي وهو في ديوانه ص٤٧ وروايته ثَمة:

علانيةً ظنوا بألفي مدجج سراتُهم في الفارسيِّ المسرَّدِ

(٤) ٢/ ٧٢ .

(٥) الوسيط ٣/ ١٥٤ .

(٦) أخرجه أحمد (١١٧١٤)، والطبري ١٥/ ٢٩٩ ، من حديث أبي سعيد الخدري. وفي إسناده: دراج عن أبي الهيثم سليمان بن عمرو العُتْواري، وروايته عنه ضعيفة.

(٧) الوسيط ٣/ ١٥٤ .

(٨) ما بين حاصرتين من المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٤ .

(٩) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٩ .

(١٠) النكت والعيون ٣/ ٣١٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ يحتملُ وجهين: أحدهما: ما ذكره لهم من العبرِ والقرونِ الخالية. الثاني: ما أوضحه لهم من دلائلِ الربوبية[١]، وقد تقدَّم في «سبحان»[٢]، فهو على الوجهِ الأوّل زجرٌ، وعلى الثاني بيان.

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: جدالاً ومجادلةً، والمرادُ به النضرُ بن الحارث وجدالُه في القرآن. وقيل: الآيةُ في أُبيِّ بنِ خلف. وقال الزجاجُ: أي: الكافرُ أكثرُ شيءٍ جدلاً؛ والدليلُ على أنه أرادَ الكافرَ قولُه: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾[٣].

وروى أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يُؤتَى بالرجلِ يومَ القيامة من الكفارِ فيقولُ الله له: ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك؟ فيقول: ربِّ آمنتُ بك، وصدَّقت برسلك، وعملتُ بكتابك. فيقول الله له: هذه صحيفتُك ليس فيها شيءٌ من ذلك. فيقول: يا رب، إني

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣١٧.

(٢) ص٨٧ من هذا الجزء.

(٣) الوسيط ٣/ ١٥٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٦.

لا أقبلُ ما في هذه الصحيفةِ. فيقال له: هذه الملائكةُ الحَفَظةُ يشهدون عليك. فيقول: ولا أقبلُهم يا رب، وكيفَ أقبلهم ولا هم من عندي، ولا من جهتي؟ فيقول الله تعالى: هذا اللوحُ المحفوظ أمُّ الكتاب قد شهدَ بذلك. فقال: يا رب، ألم تُجِرني من الظلمِ؟ قال: بلى. فقال: يا رب، لا أقبلُ إلا شاهداً عليَّ من نفسي. فيقولُ الله تعالى: الآنَ نبعثُ عليك شاهداً من نفسِك. فيَتفكَّرَ مَن ذا الذي يشهدُ عليه من نفسِه، فيُخْتَم على فيه، ثم تنطقُ جوارحُه بالشركِ، ثم يُخلَّى بينَه وبينَ الكلام، فيدخلُ النارَ وإنَّ بعضَه لَيلعن بعضاً، يقول لأعضائِه: لَعنكُنَّ اللهُ فَعنكنَّ كنتُ أُناضل. فتقولُ أعضاؤه: لعَنكَ الله، أفتعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يُكْتَم حديثاً. فذلك قولُه تعالى: «وكان الإنسان أكثَر شيءٍ جدلاً»[1]. أخرجه مسلمٌ[2] بمعناه من حديثِ أنس أيضاً.

وفي «صحيح» مسلم، عن عليٍّ، أنَّ النبيَّ ﷺ طَرقه وفاطمةَ فقال: «ألا تُصلُّون؟» فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّما أَنفسُنا بيدِ الله، فإذا شاءَ أن يبعثَنا بعثنا، فانصرفَ رسولُ الله ﷺ حينَ قلت له ذلك، ثم سَمعتُه وهو مُدبِرٌ يضرب فخذَه ويقول: «وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيء جدلا»[3].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: القرآنُ والإسلامُ ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام[4]، ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سُنتُنا في إهلاكِهم[5]، أي: ما مَنعهم عن الإيمان إلَّا حكمي عليهم بذلك، ولو حكمت عليهم بالإيمان؛ آمنوا. وسنةُ الأوّلين: عادةُ الأوّلين في عذابِ الاستئصال[6]. وقيل: المعنى: وما منع الناسَ أن يؤمنوا إلَّا طلبُ أن تأتيَهم سنةُ

(١) لم نقف عليه بهذه السياقة.

(٢) برقم (٢٩٦٩).

(٣) صحيح مسلم (٧٧٥)، وهو عند البخاري (١١٢٧).

(٤) زاد المسير ٥/ ١٥٧ ، والنكت والعيون ٣/ ٣١٨ .

(٥) البغوي ٣/ ١٦٨ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣١٨ .

الأوّلين، فحذف، وسنةُ الأوّلين: معاينةُ العذاب، فطلبَ المشركون ذلك، وقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾[1] الآية [الأنفال: ٣٢]. «أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قِبَلاً» نصب على الحال[2]، ومعناه عِياناً؛ قاله ابن عباس[3]. وقال الكلبيُّ: هو السيفُ يومَ بَدْر. وقال مقاتل: فجأةً. وقرأ أبو جعفر وعاصم، والأعمش وحمزة، ويحيى والكسائي: «قُبُلاً»[4] بضمتين أرادوا به أصنافَ العذابِ كلِّه؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وسُبُل. النحاس: ومذهب الفراء[5] أن «قُبُلا» جمع قَبِيل أي: متفرِّقاً يتلو بعضُه بعضاً. ويجوزُ عنده أن يكونَ المعنى عِياناً. وقال الأعرج ـ وكانت قراءتُه «قُبُلاً» ـ معناه: جميعاً. وقال أبو عمرو ـ وكانت قراءتُه «قِبَلاً» ـ ومعناه: عِياناً[6].

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ أي: بالجنةِ لمن آمن. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مُخوِّفين بالعذابِ مَن كفر[7]. وقد تقدَّم. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ قيل: نزلت في المقتسمين، كانوا يُجادلون في الرسولِ ﷺ، فيقولون: ساحرٌ ومجنونٌ، وشاعرٌ وكاهنٌ كما تقدّم[8]. ومعنى «يدحِضوا»: يزيلوا ويُبطِلوا. وأصلُ الدَّحْض الزَّلَقُ. يقال: دَحَضتْ رِجلُه، أي: زَلِقت، تَدْحَض دَحْضاً، ودَحَضَتِ الشمسُ عن كبد السماءِ: زالت، ودَحَضت حُجَّتُه دُحوضاً: بَطلت، وأدحضَها الله. والإدحاضُ الإزلاق[9]. وفي وصفِ الصراط: «ويُضرَب الجِسرُ على جهنم، وتَحِلُّ

(١) البغوي ٣/ ١٦٨، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٢، و«قِبَلا» التي قرأ بها المصنف هي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، وابن عامر كما في السبعة ص٣٩٣.

(٣) البغوي ٣/ ١٦٩.

(٤) السبعة ص٣٩٣، والتيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٤٧.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٢.

(٧) ذكر نحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٥، وسلف ٨/ ٣٨٤.

(٨) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ١٥٤، وسلف ١٢/ ٢٥٥.

(٩) الصحاح (دحض).

الشفاعةُ فيقولون: اللهمَّ سَلِّم سَلِّم» قيل: يا رسولَ الله، وما الجِسرُ؟ قال: «دَحْضٌ مَزَلَّة»[١]، أي: تَزلَقُ فيه القدمُ. قال طَرَفة:

أبا منذِرٍ رُمْتَ الوفاءَ فهِبتَهُ وحِدْتَ كما حَادَ البعِيرُ عن الدَّحْضِ[٢]

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ يعني: القرآن[٣] ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ من الوعيدِ ﴿هُزُوًا﴾. و«ما» بمعنى المصدر أي: والإنذار. وقيل: بمعنى الذي[٤]، أي: اتخذوا القرآنَ[٥] والذي أُنذِروا به من الوعيدِ هُزواً، أي: لعباً وباطلاً، وقد تقدَّم في «البقرة» بيانُه[٦]. وقيل: هو قولُ أبي جهل في الزُّبدِ والتَّمرِ: هذا هو الزقُّوم[٧]. وقيل: هو قولُهم في القرآنِ: هو سحرٌ وأضغاثُ أحلامٍ وأساطيرُ الأوَّلين، وقالوا للرسول: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] و﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ لنفسِه ممَّن وُعِظ بآياتِ ربه، فتهاونَ بها وأعرضَ عن قَبولِها[٨]، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ترك كفرَه ومعاصيَه فلم يتبْ منها[٩]، فالنسيانُ هنا بمعنى الترك. وقيل: المعنى: نسيَ ما قدَّم لنفسه وحصَّل من العذاب، والمعنى متقاربٌ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري، ووقع في (م): مزلقة بدل مزلة.

(٢) ديوان طرفة ص١٧٢، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٤٠٨، ودون نسبة عند الطبري ١٥/٣٠٢، وروايته:

رَدِيتُ ونجَّس اليشكريَّ حذاره وحاد كما حاد البعيرُ عن الدحض

(٣) تفسير السمرقندي ٢/٣٠٣.

(٤) الكشاف ٢/٤٨٩.

(٥) البغوي ٣/١٦٩.

(٦) ٤/١٠١.

(٧) سلف في سورة الإسراء، عند الآية (٦٠).

(٨) تفسير الرازي ٢١/١٤٢.

(٩) إعراب النحاس ٢/٤٦٢.

﴿يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بسببِ كفرِهم، أي: نحن مَنَعْنا الإيمانَ من أن يدخلَ قلوبهم وأسماعهم ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إلى الإيمان[١] ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ نَزل في قومٍ معينين[٢]، وهو يردُّ على القَدَريةِ قولَهم، وقد تقدَّم معنى هذه الآيةِ في «سبحان»[٣] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: للذنوب، وهذا يختصُّ به أهلُ الإيمان دون الكفرةِ بدليلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]. «ذو الرحمة» فيه أربعُ تأويلات: أحدها: ذو العفو. الثاني: ذو الثواب، وهو على هذين الوجهين مختصٌّ بأهلِ الإيمان دون الكفر. الثالث: ذو النعمةِ. الرابع: ذو الهدى، وهو على هذين الوجهين يعمُّ أهلَ الإيمانِ والكفر؛ لأنه يُنعِمُ في الدنيا على الكافرِ، كإنعامِه على المؤمن، وقد أوضحَ هُداه للكافرِ كما أوضحه للمؤمنِ، وإنِ اهتدى به المؤمنُ دون الكافر[٤]. ومعنى قوله: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: من الكفرِ والمعاصي[٥] ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ ولكنَّه يُمهل، ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أي: أجلٌ مقدَّر يُؤخَّرون إليه[٦]، نظيرُه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] أي: إذا حلَّ لم يتأخرْ عنهم إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة، ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي: ملجأ؛ قاله ابنُ عباس وابن زيد[٧]، وحكاه الجوهريُّ في «الصحاح». وقد وَأَلَ يَئِلُ وَأْلاً وَوُؤُولاً على فُعول، أي: لجأ، وواءَل منه على فَاعَلَ،

---

(١) زاد المسير ٥/ ١٥٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٧.

(٣) ص٩٥ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٢٠.

(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٤.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٢٠.

(٧) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٠٥.

أي: طلب النجاة[١]. وقال مجاهد: مَحْرِزاً. قتادةُ: وليًّا[٢]. وأبو عبيدة[٣]: مَنْجًى. وقيل: مَحيصاً، والمعنى واحدٌ. والعربُ تقول: لا وَألتْ نفسُه، أي: لا نَجَت[٤]، ومنه قولُ الشاعر:

لا وَألتْ نفسُك خَلَّيْتَها ... للعامِرِيَّيْنِ ولم تُكْلَم[٥]

وقال الأعشى[٦]:

وقد أخالِسُ رَبَّ البيتِ غَفْلَتَهُ ... وقد يُحاذِرُ مِنِّي ثم ما يَئِلُ

أي: ما ينجو[٧].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ «تلك» في موضعِ رفعٍ بالابتداء. «القرى» نعتٌ أو بدل. و«أهلكناهم» في موضعِ الخبرِ محمول على المعنى؛ لأنَّ المعنى: أهل القرى. ويجوزُ أن تكون «تلك» في موضع نصب على [قول] مَن قال: زيداً ضربته[٨]. أي: وتلك القرى التي قَصصنا عليك نبأهم، نحو قُرى عادٍ وثمودَ ومدينَ وقوم لوط أهلكناهم لمَّا ظلموا وكفروا. ﴿وجَعَلنا لِمُهْلَكِهِمْ موعداً﴾ أي: وقتاً معلوماً لم تَعْده[٩]. و«مُهْلَك» من أُهلِكوا، وقرأ عاصم: «مَهْلَكهم» بفتح الميمِ واللام[١٠]

---

(١) الصحاح (وأل).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٠٥ ، وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٧٨ .

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٨ .

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٩ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٢٠ ، والبيت لضمرة بن ضمرة النهشلي، وهو شاعر جاهلي، والبيت في النوادر ص٥٥ ، وهو دون نسبة عند الطبري ١٥/ ٣٠٤ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٨ .

وقال البغدادي في الخزانة ٩/ ٢٨٦ : وقوله: لا وألت نفسك..إلخ، هذا دعاء على رجل استأسر لأعدائه دون أن يجرح.

(٦) في ديوانه ص١٠٩ .

(٧) زاد المسير ٥/ ١٦٠ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٣ ، وما بين حاصرتين منه.

(٩) الكشاف ٢/ ٤٨٩ - ٤٩٠ .

(١٠) هذه رواية أبي بكر عن عاصم، وروى حفص عن عاصم: بفتح الميم وكسر اللام. «السبعة» ص٣٩٣ .

وهو مصدرُ هَلَك، وأجازَ الكسائيُّ والفراء: «لمَهْلِكِهِم» بكسر اللامِ وفتحِ الميم. النحاس: [قال الكسائي]: وهو أحبُّ إليَّ؛ لأنَّه من هَلك. الزجاج: اسمٌ للزمانِ، والتقديرُ: لوقتِ مَهْلِكهم، كما يقال: أتت الناقةُ على مَضْرِبِها[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ﴾ الجمهورُ من العلماءِ وأهلِ التاريخ أنَّه موسى بنُ عمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقةٌ منها نَوْفٌ البِكَاليُّ: إنه ليس ابنَ عمران، وإنَّما هو موسى بنُ منشا بنِ يوسفَ بنِ يعقوب، وكان نبيًّا قبل موسى بنِ عمران[2]. وقد ردَّ هذا القولَ ابنُ عباس في «صحيح» البخاري[3] وغيرِه. وفتاه: هو يوشعُ بنُ نون. وقد مضى ذكرُه في «المائدةِ» وآخرَ «يوسف»[4]. ومَن قال: هو ابنُ منشا؛ فليسَ الفتى يوشعَ بنَ نون. «لَا أَبْرَحُ» أي لا أزال أسِير[5]؛ قال الشاعر:

وأَبْرَحُ ما أدامَ اللهُ قَومِي ... بحمدِ اللهِ مُنْتَطِقاً مُجِيدَا[6]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٣ ، وما بين حاصرتين منه، والتيسير ص١٤٤ ، والسبعة ص٣٩٣ ، والنشر ٢/ ٣١١ .

وقوله: أتت الناقة على مضربها، قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ : أي: على زمان ضِرابها.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٧ .

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) في المائدة ٧/ ٤٠٣ وما بعدها، وفي يوسف ١١/ ٤٦٤ .

(٥) الطبري ١٥/ ٣٠٨ .

(٦) البيت لخداش بن زهير العامري، نسبه إليه ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٨٢ ، وهو عند الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٨ دون نسبة. وفي المعاني الكبير: رخيَّ البال، بدل: بحمد الله. وقال ابن قتيبة: =

وقيل: «لَا أَبْرَحُ» لا أفارقك[١] ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي: ملتقاهما. قال قتادة: وهو بحرُ فارس والروم، وقاله مجاهد[٢]. قال ابنُ عطية: وهو ذراعٌ يخرجُ من البحرِ المحيط من شمالٍ إلى جنوب في أرضِ فارس من وراء أَذْرَبِيجان، فالركنُ الذي لاجتماعِ البحرين مما يلي بَرَّ الشامِ هو مجمعُ البحرين[٣] على هذا القولِ. وقيل: هما بحر الأرْدُنِّ وبحر القُلْزُم[٤]. وقيل: مجمعُ البحرين عندَ طنجة؛ قاله محمد ابن كعب[٥]. ورُوي عن أُبيٍّ بنِ كعب أنه بأفريقية. وقال السُّديُّ: الكُرُّ والرَّسُّ بأرمينية. وقال بعضُ أهل العلم: هو بحرُ الأندلس من البحر المحيط؛ حكاه النَّقاشُ، وهذا ممَّا يُذكر كثيراً. وقالت فرقةٌ: إنَّما هما موسى والخضر، وهذا قولٌ ضعيف[٦]، وحُكي عن ابنِ عباس، ولا يصحُّ[٧]؛ فإنَّ الأمر بُيِّنَ من الأحاديث أنَّه إنما رُسِم[٨] له بحر ماء.

وسببُ هذه القصةِ ما خرَّجه الصحيحان[٩] عن أُبيٍّ بن كعب، أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى عليه السلام قامَ خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِل: أيُّ الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنا، فعتَبَ الله عليه؛ إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحى الله إليه: إنَّ لي عبداً بمَجْمَع البحرين هو أعلمُ منك. قال موسى: يا ربِّ، فكيفَ لي به؟ قال: تأخذُ معك

= منتطقاً فيه قولان، أحدهما أن يشد الدرع عليه بالنطاق، ويروى عن يونس أنه قال: تقول: انتطق الرجل فرسه إذا قاده، مجيداً: أقود فرساً تلد الجياد.

(١) النكت ٣/ ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٧.

(٤) التعريف والإعلام ص١٠٣.

(٥) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٠٩.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٧، وقول السدي في المفهم ٦/ ١٩٥.

(٧) المفهم ٦/ ١٩٥.

(٨) في (م): وسم، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز **٣/ ٥٢٨ والكلام منه.**

(٩) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

حُوتاً فتجعَلُه في مِكتَلٍ، فحيثُما فَقدتَ الحُوتَ فهو ثَمَّ» وذكر الحديثَ، واللفظُ للبخاري.

وقال ابنُ عباس: لمَّا ظهر موسى وقومُه على أرض مصرَ، أنزلَ قومَه مصر، فلما استقرت بهمُ الدار، أَمره اللهُ: أنْ ذَكِّرهم بأيام الله، فخطب قومَه فذكَّرهم ما آتاهم اللهُ من الخير والنعمة؛ إذ نجَّاهم من آلِ فرعون، وأهلكَ عدوَّهم، واستخلفهم في الأرض، ثم قال: وكلَّم الله نبيكم تكليماً، واصطفاه لنفسِه، وأَلقى عليَّ محبةً منه، وآتاكم من كلِّ ما سألتموه، فجعلكم أفضلَ أهل الأرض، ورزَقكم العزَّ بعد الذلِّ، والغنى بعدَ الفقر، والتوراةَ بعدَ أن كنتم جهالاً، فقال له رجلٌ من بني إسرائيل: عَرَفنا الذي تقول، فهل على وجهِ الأرض أحدٌ أعلمُ منكَ يا نبيَّ الله؟ قال: لا؛ فعتبَ اللهُ عليه حين لم يردَّ العلم إليه، فبعثَ الله جبريل: أن يا موسى، وما يُدريكَ أين [أضع] علمي؟ بلى! إنَّ لي عبداً بمجمَعِ البحرين أعلم منك، وذكر الحديث[1].

قال علماؤنا: قولُه في الحديث: «هو أعلمُ منك» أي: بأحكامِ وقائعَ مفصَّلة، وحُكمِ نوازلَ معينة، لا مطلقاً، بدليل قولِ الخضرِ لموسى: إنَّك على علم علَّمكه اللهُ لا أَعلمُه أنا، وأنا على علمٍ عَلَّمنيه لا تَعلمُه أنت، وعلى هذا فيصدقُ على كلِّ واحد منهما أنَّه أعلمُ من الآخر بالنسبةِ إلى ما يعلمُه كلُّ واحد منهما ولا يعلمُه الآخر، فلما سمعَ موسى هذا تشوَّفت نفسُه الفاضلة، وهمتُه العالية، لتحصيل علمِ ما لم يعلم، وللقاءِ مَن قيل فيه: إنه أعلمُ منك، فعزم فسألَ سؤالَ الذليل: بكيف السبيل؟ فأُمِر بالارتحالِ على كل حال. وقيل له: احملْ معك حوتاً مالحاً في مِكْتل ـ وهو الزِّنْبيل ـ فحيثُ يَحيا وتَفقِدُه، فثَمَّ السبيلُ، فانطلقَ مع فتاه لما واتاه، مجتهداً طَلِباً قائلاً: «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين»[2]. ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ بضمِّ الحاءِ والقافِ وهو الدهرُ، والجمع أحقاب. وقد تُسكن قافُه فيقال: حُقْب، وهو ثمانونَ سنة، ويقال:

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٣٠، وما بين حاصرتين منه.

(٢) المفهم ٦/ ١٩٥ - ١٩٦.

أكثر من ذلك، والجمع حِقاب، والحِقْبةُ، بكسرِ الحاء: واحدةُ الحقَب وهي السِّنون[١].

الثانية: في هذا من الفقهِ: رحلةُ العالم في طلب الازديادِ من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادمِ والصاحبِ، واغتنام لقاءِ الفضلاءِ والعلماءِ وإن بَعُدت أقطارُهم، وذلك كان دأب السلفِ الصالحِ، وبسبب ذلك وصلَ المرتحلون إلى الحظِّ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسختْ لهم في العلومِ أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذكرِ والأجرِ والفضل أَفضلُ الأقسام[٢]. قال البخاري[٣]: ورحلَ جابرُ بنُ عبدِ الله مسيرةَ شهرٍ إلى عبدِ الله بن أُنيس في حديثٍ واحد[٤].

الثالثة: قولُه تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ» للعلماءِ فيه ثلاثةُ[٥] أقوال:

أحدها: أنه كان معه يخدُمه، والفتى في كلامِ العرب الشابُّ، ولما كان الخَدَمةُ أكثرَ ما يكونون فتياناً قيل للخادمِ: فتًى على جهةِ حسنِ الأدب، ونَدبتِ الشريعةُ إلى ذلك في قولِ النبي ﷺ: «لا يقل أَحدُكم: عبدي ولا أَمتي، وليقل: فَتايَ وفتاتي» فهذا ندبٌ إلى التواضع، وقد تقدَّم هذا في «يوسف»[٦]. والفتى في الآية هو الخادمُ وهو يوشعُ بنُ نون بن إفراثيم بن يوسف عليه السلام.

ويقال: هو ابنُ أختِ موسى عليه السلام. وقيل: إنَّما سُمي فتى موسى؛ لأنَّه لزمَه ليتعلمَ منه وإن كان حرًّا، وهذا معنى الأوَّل. وقيل: إنَّما سماه فتًى؛ لأنه قام مقامَ الفتى وهو العبد، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]،

---

(١) الصحاح (حقب)، وقد نقله المصنف بواسطة أبي العباس القرطبي في المفهم.

(٢) المفهم ٦/١٩٦.

(٣) في الصحيح قبل حديث (٧٨).

(٤) ليست في (د) و(ز) و(م)، وهي من (ظ) و(ف) وصحيح البخاري.

(٥) ليست في (ظ) و(ف)، وفي أحكام ابن العربي ٣/ ١٢٣٢ ، والكلام منه قال: فيه قولان.

(٦) ١١/ ٣٥٣ ، وما بعدها.

وقال: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٠] قال ابنُ العربي[١]: فظاهرُ القرآنِ يقتضي أنه عبدٌ، وفي الحديث: أنه كان يوشعَ بنَ نون. وفي التفسيرِ: أنه ابنُ أخته، وهذا كلُّه ممَّا لا يُقطع به، والتوقفُ فيه أسلمُ.

الرابعة: قوله تعالى: «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» قال عبدُ الله بنُ عَمرو: والحُقب ثمانونَ سنة. مجاهد: سبعونَ خريفاً. قتادة: زمان[٢]. النحاسُ: الذي يعرفُه أهلُ اللغةِ أنَّ الحُقبَ والحِقبة زمانٌ من الدهرِ مبهمٌ غيرُ محدود، كما أنَّ رهطاً وقوماً مبهمٌ غيرُ محدود، وجمعُه أحقاب[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ الضميرُ في قوله: «بينهما» للبحرين؛ قاله مجاهد[٤]. والسَّرَب: المسلكُ؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: جَمَد الماءُ فصار كالسَّرَب[٥]. وجمهورُ المفسرين أنَّ الحوت بقي موضعُ سلوكِه فارغاً، وأن موسى مشَى عليه متبعاً للحوت، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرةٍ في البحر، وفيها وجد الخَضِرَ. وظاهرُ الروايات والكتابِ أنَّه إنما وجدَ الخضرَ في ضفةِ البحر. وقوله: «نسيا حوتهما» وإنَّما كان النسيانُ من الفتى وحدَه فقيل: المعنى:

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٢ ، وما قبله منه.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٣١٠ - ٣١١ ، وقول مجاهد في التفسير ١/ ٣٧٨ .

(٣) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٣ و ٥/ ١٣٠ .

(٤) في التفسير ١/ ٣٧٨ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣١١ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٣١٤ ، وقول مجاهد في السرب ذكره في النكت والعيون ٣/ ٣٢٣ .

نسيَ أن يُعلِم موسى بما رأى من حاله، فنسبَ النسيان إليهما للصحبة[١]، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنَّما يخرج من المِلحِ، وقولِه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرسلُ من الإنس لا من الجن. وفي «البخاري»[٢]: فقال لفتاه: لا أُكلفك إلا أن تخبرَني بحيثُ يُفارقك الحوتُ، قال: ما كلَّفتَ كثيراً، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: «وإذ قال موسى لفتاه» يوشع بن نون ـ ليست عن سعيد[٣] ـ قال: فبينا هو في ظلِّ صخرةٍ في مكانٍ ثَرْيَانَ إذ تَضَرَّبَ[٤] الحوتُ وموسى نائمٌ فقال فتاه: لا أُوقظِه، حتى إذا استيقظَ نسيَ أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتى دخلَ البحر، فأمسكَ الله عنه جِرْيَةَ البحرِ حتى كأنَّ أثرَه في حَجَر. قال لي عمرو[٥]: هكذا كأنَّ أثرَه في حَجَر، وحَلَّقَ بينَ إبهاميه واللتين تَلِيانِهِما. وفي روايةٍ[٦]: وأمسكَ الله عن الحوتِ جِرْيةَ الماءِ فصار عليه مثلَ الطاق[٧]، فلما استيقظَ، نسيَ صاحبُه أن يخبره بالحوتِ، فانطلقا بقيةَ يومِهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: «آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَباً» ولم يجدْ موسى النَّصَبَ حتى جاوزَ المكانَ الذي أَمَر الله به، فقال له فتاه: «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ».

وقيل: إنَّ النسيانَ كان منهما؛ لقولِه تعالى: «نسِيا» فنَسَب النسيانَ إليهما[٨]،

---

(١) الكلام بنحوه في المفهم ٦/١٩٦ - ١٩٧ ، والمحرر الوجيز ٣/٥٢٨ .

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٦)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث ابن عباس.

(٣) قال الحافظ في فتح الباري ٨/ ٤١٤ : القائل ليست عن سعيد هو ابن جريج، ومراده أن تسمية الفتى ليست عنده في رواية سعيد بن جبير.

(٤) ثريان، أي: مبلول، من: ثرَّى التربة تثرية: بلَّها. وتضرَّب: تحرَّك وماج. القاموس (ثري) و(ضرب).

(٥) أي: عمرو بن دينار، والقائل هو ابن جريج كما في فتح الباري لابن حجر ٨/ ٤١٦ .

(٦) عند البخاري (٤٧٢٥).

(٧) الطاق: هو النَّقْب الذي يُدخَل منه كما في المفهم ٦/١٩٦ .

(٨) الكلام بنحوه في زاد المسير ٥/ ١٦٥ - ١٦٦ ، والكشاف ٢/ ٤٩١ .

وذلك أنَّ بدوَّ حملِ الحوت كان من موسى؛ لأنَّه الذي أُمِرَ به، فلما مضيا؛ كان فتاه هو الحاملَ له حتى أَويا إلى الصخرةِ نزلا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يعني: الحوتَ هناك منسيًّا[1] ـ أي: متروكاً ـ فلما سألَ موسى الغداءَ؛ نسبَ الفتى النسيانَ إلى نفسِه عند المخاطبة، وإنَّما ذكر الله نسيانَهما عند بلوغِ مَجمع البحرين وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكاً في النسيان؛ لأن النسيانَ التأخير، من ذلك قولُهم في الدعاء: أَنسأَ الله في أجلك، فلمَّا مَضيا من الصخرة أخَّرا حوتَهما عن حملِه فلم يحمله واحدٌ منهما، فجازَ أن يُنسَب إليهما؛ لأنَّهما مضيا وتركا الحوت.

قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فيه مسألةٌ واحدة، وهو اتخاذُ الزادِ في الأسفار، وهو ردٌّ على الصوفيةِ الجَهَلة الأغمار الذين يقتحمونَ المهامهَ والقِفار زعماً منهم أنَّ ذلك هو التوكلُ على الله الواحدِ القهار، هذا موسى نبيُّ الله وكليمُه من أهل الأرض قد اتخذَ الزادَ مع معرفته بربه، وتوكله على ربِّ العباد. وفي «صحيح» البخاري[2]: إنَّ ناساً من أهلِ اليمن كانوا يحجُّون ولا يَتزوَّدون، ويقولون: نحنُ المتوكلون، فإذا قدِموا سألوا الناسَ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقد مَضى هذا في «البقرة»[3].

واختُلِف في زادِ موسى ما كان، فقال ابن عباس: كان حوتاً مملوحاً في زِنبيل، وكانا يُصيبان منه غداءً وعشاءً، فلما انتهيا إلى الصخرةِ على ساحلِ البحر، وضعَ فتاهُ المِكتلَ، فأصابَ الحوتَ جريُ البحرِ، فتحرك الحوتُ في المكتلِ، فقلبَ المكتلَ وانسربَ الحوت، ونسي الفتى أن يذكر قصةَ الحوتِ لموسى. وقيل: إنَّما كان الحوتُ دليلاً على موضعِ الخضر؛ لقولِه في الحديث: احملْ معكَ حوتاً في مِكتلٍ، فحيثُ

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٢٣، وزاد المسير ٥/ ١٦٦.

(٢) برقم (١٥٣٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ٣/ ٣٢٨ - ٣٢٩.

فقدتَ الحوتَ، فهو ثَمَّ، على هذا فيكون تَزوَّدا شيئاً آخر غيرَ الحوت، وهذا ذكره شيخُنا الإمامُ أبو العباس واختاره[١]. وقال ابنُ عطية[٢]: قال أبي ﷺ: سمعتُ أبا الفضل الجوهريَّ يقول في وعظِه: مشَى موسى إلى المناجاة فبقي أربعينَ يوماً لم يحتجْ إلى طعام، ولمَّا مشى إلى بَشَرٍ لحِقَه الجوعُ في بعضِ يوم.

وقوله: «نَصَباً» أي: تعباً، والنَّصَب: التعبُ والمشقة. وقيل: عَنى به هنا الجوعَ، وفي هذا دليلٌ على جوازِ الإخبار بما يجدُه الإنسانُ من الألمِ والأمراض، وأنَّ ذلك لا يقدحُ في الرضا، ولا في التسليمِ للقضاء، لكنْ إذا لم يصدرْ ذلك عن ضجرٍ ولا سخط.

وفي قوله: «وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» أنْ مع الفعلِ بتأويلِ المصدر، وهو منصوبٌ بدلَ اشتمالٍ من الضميرِ في «أنسانيه» وهو بدلُ الظاهرِ من المضمرِ، أي: وما أنساني ذكرَه إلا الشيطان، وفي مصحف عبد الله: «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وهذا إنَّما ذكره يوشعُ في مَعرضِ الاعتذارِ؛ لقولِ موسى: لا أُكلفُك إلا أن تُخبرَني بحيثُ يُفارقُك الحوت، فقال: ما كَلَّفتَ كثيراً، فاعتذرَ بذلك القول[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يحتملُ أن يكونَ من قولِ يوشع لموسى، أي: اتخذَ الحوتُ سبيلَه عجباً للناس. ويحتمل أن يكون قوله: «واتخذ سبيله في البحر» تمامَ الخبر، ثم استأنفَ التعجب[٤] فقالَ من نفسه: «عجباً» لهذا الأمرِ. وموضعُ العجبِ أن يكونَ حوتٌ قد ماتَ فأُكِل شقُّه الأيسرُ ثم حَيِيَ بعدَ ذلك. قال أبو شجاع في «كتابِ الطبري»[٥]: رأيتُه ـ أُتِيت به ـ فإذا هو شِقُّ حوتٍ وعينُ

---

(١) المفهم ٦/ ١٩٧ ، والحديث الذي أشار إليه أخرجه البخاري (٤٧٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ .

(٣) المفهم ٦/ ١٩٧ - ١٩٨ ، وقراءة عبد الله ﷺ في تفسير الطبري ١٥/ ٣١٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ ، وعندهما «أذكركه» بدل «أذكره».

(٤) في (م) و(د): التعجيب.

(٥) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣١٥ .

واحدة، وشِقٌّ آخرُ ليس فيه شيءٌ. قال ابنُ عطية[١]: وأنا رأيتُه والشِّقُّ الذي ليس فيه شيءٌ عليه قشرةٌ رقيقة ليست تحتَها شوكة. ويحتمل أن يكون قولُه: «واتّخَذَ سَبِيلَهُ» إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إمَّا أن يخبرَ عن موسى أنَّه اتخذَ سبيلَ الحوت من البحرِ عجباً، أي: تَعجَّب منه. وإمَّا أن يخبرَ عن الحوتِ أنه اتخذَ سبيلَه عجباً للناس.

ومن غريبِ ما رُوي في البخاريِّ[٢] عن ابنِ عباس من قصصِ هذه الآية، أنَّ الحوتَ إنَّما حَيِيَ؛ لأنَّه مَسَّه ماءُ عينٍ هناك تُدعَى عينَ الحياة، ما مَسَّت قطُّ شيئاً إلا حَيِيَ. وفي «التفسيرِ»: إنَّ العلامةَ كانت أن يَحيا الحوتُ، فقيل: لمَّا نزل موسى بعد ما أَجهده السفرُ على صخرةٍ إلى جنبها ماءُ الحياة، أَصابَ الحوتَ شيءٌ من ذلك الماءِ فحيِيَ. وقال الترمذيُّ[٣] في حديثِه: قال سفيان: يزعمُ ناسٌ أنَّ تلك الصخرةَ عندها عينُ الحياة، ولا يصيبُ ماؤها ميتاً[٤] إلا عاش. قال: وكان الحوتُ قد أُكِل منه، فلما قطرَ عليه الماءُ عاشَ. وذكر صاحبُ كتابِ «العروس» أنَّ موسى عليه السلام توضَّأ من عينِ الحياةِ، فقَطَرتْ من لحيتِه على الحوتِ قطرةٌ فحيِيَ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي﴾[٥] أي: قالَ موسى لفتاه: أَمرُ الحوتِ وفَقدُه هو الذي كنا نطلب، فإنَّ الرجل الذي جئنا له ثَمَّ، فرجعا يَقصَّان آثارَهما لئلا يُخطِئا طريقَهما[٦] وفي «البخاري»[٧]: فوجدا خضراً على طِنْفِسةٍ خضراء على كَبِد البحرِ مُسَجًّى بثوبه، قد جعل طَرفَه تحت رجليه، وَطرَفَه تحت رأسه، فسلَّم عليه موسى،

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ ، وما قبله منه.

(٢) برقم (٤٧٢٧).

(٣) في السنن (٣١٤٩).

(٤) في (ظ) و(م): شيئاً، والمثبت من (د) و(ف) و(ز)، وسنن الترمذي.

(٥) قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بياء في الوصل وبغير ياء في الوقف، وابن كثير يثبت الياء فيهما جميعاً في الوصل والوقف كما في السبعة ص٣٩١ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ .

(٧) برقم (٤٧٢٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فكشف عن وجهِه وقال: هل بأرضِي[١] من سلام؟! مَن أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنُك؟ قال: جئتُ لتعلِّمني مما عُلِّمت رشداً، الحديث.

وقال الثعلبيُّ في كتابِ «العرائس»[٢]: إنَّ موسى وفتاه وَجدا الخضرَ وهو نائم على طِنْفِسة خضراء على وجهِ الماء وهو مُتَّشِح بثوبٍ أخضرَ، فسلَّم عليه موسى، فكشفَ عن وجهِه فقال: وأنَّى بأَرضِنا السلام؟! ثم رفعَ رأسَه واستوى جالساً وقال: وعليك السلامُ يا نبيَّ بني إسرائيل، فقال له موسى: وما أَدراك بي؟ ومَن أخبرك أنِّي نبي بني إسرائيل؟ قال: الذي أَدراكَ بي ودَلَّك عليَّ؛ ثم قال: يا موسى، لقد كان لك في بني إسرائيل شغلٌ، قال موسى: إنَّ ربي أرسلني إليك لأتبعَك وأتعلمَ من علمك، ثم جلسا يتحدَّثان، فجاءت خُطَّافةٌ وحملت بمنقارِها من الماء، وذكر الحديثَ على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ العبدُ هو الخضرُ عليه السلام في قولِ الجمهور، وبمقتضى الأحاديثِ الثابتة. وخالفَ مَن لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحبُ موسى بالخضر بل هو عالِمٌ آخر. وحكى أيضاً هذا القول القُشيريّ، قال: وقال قومٌ: هو عبدٌ صالح[٣]، والصحيح أنَّه كان الخضر، بذلك وردَ الخبرُ عن النبي ﷺ. قال مجاهد: سُمِّي الخضرَ لأنَّه كان إذا صلَّى اخضرَّ ما حوله[٤]. وروى الترمذيُّ[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما سُمِّي الخضرَ؛ لأنه جلسَ على فروةٍ بيضاء فاهتزت[٦] تحتَه خضراء» هذا حديث صحيح غريب[٧]. الفروةُ هنا

---

(١) في (م): بأرضك.

(٢) ص٢٢٧ ، وفيه: قائم على طنفسة بدل نائم، ولعل في النسخة التي اعتمدها المصنف زيادة على المطبوع الذي بين أيدينا.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ ، دون ذكر القشيري.

(٤) البغوي ٣/ ١٧٢ .

(٥) في سننه (٣١٥١).

(٦) في (م) و(د) و(ز): فإذا هي تهتز، والمثبت من (ف) و(ظ) وسنن الترمذي.

(٧) في سنن الترمذي: حديث حسن صحيح.

وجهُ الأرض؛ قاله الخَطَّابيُّ وغيرُه. والخضرُ نبيٌّ عند الجمهور. وقيل: هو عبدٌ صالح غير نبيٍّ، والآيةُ تشهدُ بنبوّته؛ لأن بواطنَ أفعالِه هل كانت[١] إلا بوحي. وأيضاً فإنَّ الإنسانَ لا يتعلم ولا يَتَّبع إلا مَن فوقه، وليس يجوزُ أن يكونَ فوقَ النبيِّ مَن ليس بنبيٍّ. وقيل: كان مَلَكاً أمرَ الله موسى أن يأخذَ عنه ممَّا حملَه من علمِ الباطن[٢]. والأوّلُ الصحيحُ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ الرحمةُ في هذه الآيةِ النبوةُ[٣]. وقيل: النعمة[٤]. ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي: علم الغيب. ابن عطية[٥]: كان علمُ الخضرِ[٦] معرفةَ بواطنَ قد أُوحيتْ إليه، لا تُعطي ظواهرُ الأحكام أفعالَه بحسبها، وكان علمُ موسى علمَ الأحكامِ والفتيا بظاهرِ أقوالِ الناسِ وأفعالهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قولُه تعالى: «قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ» هذا سؤالُ الملاطِف، والمخاطِب المستنزل المبالغ في حسنِ الأدب، المعنى: هل يتفقُ لك ويَخِفُّ عليك؟ وهذا كما في الحديث: هل تستطيعُ أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ[٧]؟

---

(١) في (م): لا تكون، والمثبت من النسخ الخطية، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ ، والكلام منه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٢٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٢٤ ، وزاد: الطاعة وطول الحياة.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ .

(٦) بعدها في (م): علم.

(٧) أخرجه أحمد (١٦٤٣١)، والبخاري (١٨٥)، ومسلم (٢٣٥)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم ﷺ.

وعلى بعضِ التأويلات يجيء كذلك قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢][١] حسب ما تقدم بيانُه في «المائدة».

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المتعلم تبعٌ للعالم وإن تفاوتتِ المراتب[٢]، ولا يُظَن أنَّ في تعلمِ موسى من الخضر ما يدلُّ على أنَّ الخضر كان أفضلَ منه، فقد يَشذُّ عن الفاضلِ ما يعلمه المفضول، والفضلُ لمن فضَّله الله، فالخضرُ إن كان وليًّا فموسى أفضلُ منه؛ لأنه نبيٌّ والنبي أفضلُ من الوليِّ، وإن كان نبيًّا فموسى فَضَلَه بالرسالة[٣]. والله أعلم. «ورشداً» مفعولٌ ثانٍ بـ «تعلمني».

﴿قَالَ﴾ الخضرُ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: إنك يا موسى، لا تطيقُ أن تصبرَ على ما تراه من علمي[٤]؛ لأن الظواهرَ التي هي علمك لا تُعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأً ولم تُخبَر بوجه الحكمة فيه، ولا طريقِ الصواب، وهو معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ والأنبياءُ لا يُقِرُّون على منكر، ولا يجوزُ لهم التقرير[٥]. أي: لا يسعك السكوتُ جرياً على عادتك وحُكمك. وانتصب «خُبْراً» على التمييزِ المنقولِ عن الفاعل. وقيل: على المصدرِ الملاقي في المعنى، لأنَّ قوله: «لَمْ تُحِطْ» معناه: لم تَخبُرْه، فكأنه قال: لم تَخبره خُبراً، وإليه أشارَ مجاهد. والخبيرُ بالأمورِ هو العالمُ بخفاياها وبما يختبرُ منها[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: سأصبرُ بمشيئةِ الله، ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي: قد ألزمتُ نفسي طاعتَك. وقد اختلف في الاستثناءِ، هل هو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٣ .

(٣) المفهم ٦/ ٢١٧ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠ : عملي، والكلام منه.

(٥) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ١٧٣ .

(٦) المفهم ٦/ ٢٠٢ . وفي تفسير مجاهد ١/ ٣٨١ : خُبراً: يعني: علماً.

يشملُ قوله: «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً» أم لا؟ فقيل: يشملُه كقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقيل: استثنى في الصَّبر فصبَرَ، وما استثنى في قوله: «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً» فاعترضَ وسأل[١]. قال علماؤنا: إنَّما كان ذلك منه؛ لأنَّ الصبر أمرٌ مستقبل ولا يَدري كيف يكون حالُه فيه، ونفيُ المعصيةِ معزومٌ عليه حاصلٌ في الحال، فالاستثناءُ فيه ينافي العزمَ عليه. ويمكنُ أن يُفرَّق بينَهما بأنَّ الصبر ليس مكتسباً لنا بخلافِ فعلِ المعصية وتركها، فإنَّ ذلك كلَّه مكتَسبٌ لنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أكونَ أنا الذي أُفسره لك، وهذا من الخضرِ تأديبٌ وإرشادٌ لِما يَقتضي دوامَ الصحبةِ، فلو صَبَر ودَأَب؛ لرأى العجبَ، لكنَّه أكثرَ من الاعتراضِ، فتَعيَّن الفراقُ والإعراض[٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: في «صحيح» مسلم والبخاري[٣]: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت سفينة فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضرَ فحملوه بغير نَوْل، فلما ركبا في السفينة لم يَفْجأ[٤] إلا والخضرُ قد قلعَ منها لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قومٌ حملونا بغير نَوْل عَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتَها لتغرقَ أهلها «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٣ - ١٢٣٤.

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٣، وما قبله منه.

(٣) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث ابن عباس ﷺ.

(٤) بعدها في (م): موسى.

تُرهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً». قال وقال رسولُ الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نِسياناً قال: وجاء عصفورٌ فوقع على حَرْفِ السفينة فَنقَر في البحر نقرةً، فقال له الخضر: ما عِلمي وعِلمُك من علمِ الله إلا مثل ما نَقَص هذا العصفورُ من هذا البحر».

قال علماؤنا: حرفُ السفينةِ: طَرفُها، وحَرْف كلِّ شيءٍ: طرفُه، [ومنه حرف الجبل][1] وهو أعلاه المحدَّد. والعِلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٥٥] أي: من معلوماته، وهذا من الخضرِ تمثيلٌ، أي: معلوماتي ومعلوماتك لا أثرَ لها في علمِ الله، كما أنَّ ما أَخذَ هذا العصفورُ من هذا البحرِ لا أثر له بالنسبةِ إلى ماء البحرِ، وإنَّما مثَّل له ذلك بالبحرِ؛ لأنَّه أكثر ما نُشاهدُه ممَّا بينَ أيدينا، وإطلاقُ لفظِ النقصِ هنا تجوُّز قُصِدَ به التمثيلُ والتفهيمُ؛ إذ لا نقصَ في علمِ الله، ولا نهايةَ لمعلوماته. وقد أوضحَ هذا المعنى البخاريُّ فقال: والله ما علمي وما علمُك في جنبِ علمِ الله إلا كما أخذَ هذا الطيرُ بمنقارِه من البحر[2].

وفي «التفسير» عن أبي العالية: لم يرَ الخضرَ حين خرقَ السفينة غيرُ موسى وكان عبداً لا تراه إلا عينُ مَن أرادَ الله له أن يريه، ولو رآه القومُ لمنعوه من خرقِ السفينة. وقيل: خرج أهلُ السفينةِ إلى جزيرة، وتخلَّف الخضرُ فخرقَ السفينة. وقال ابنُ عباس: لمَّا خرقَ الخضر السفينةَ تنحَّى موسى ناحية، وقال في نفسه: ما كنتُ أَصنع بمصاحبةِ هذا الرجل! كنت في بني إسرائيل أتلو كتابَ الله عليهم غدوةً وعشيّة فيطيعوني! قال له الخضرُ: يا موسى، أَتريدُ أن أخبرك بما حدَّثتَ به نفسَك؟ قال: نعم. قال: كذا وكذا. قال: صدقتَ، ذكره الثعلبيُّ في كتاب «العرائس»[3].

الثانية: في خرقِ السفينة دليلٌ على أنَّ للوليِّ أن يَنقُصَ مالَ اليتيم إذا رآه صلاحاً، مثل أن يخافَ على رَيْعه ظالماً فيُخرِّبَ بعضَه[4]. وقال أبو يوسف: يجوزُ للوليِّ أن

---

(١) ما بين حاصرتين من المفهم ٦/ ٢١٥ ، والكلام منه.

(٢) المفهم ٦/ ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) ص٢٢٨ .

(٤) الكلام بنحوه في المفهم ٦/ ٢٠٤ .

يصانعَ السلطان ببعض مالِ اليتيم عن البعض. وقرأ حمزةُ والكسائي: «لِيَغْرَقَ» بالياء «أَهْلُهَا» بالرفع فاعل يَغرَق[١]، فاللامُ على قراءةِ الجماعة في «لِتغرِق» لامُ المآلِ مثل: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]. وعلى قراءةِ حمزةَ لامُ كي، ولم يقل: لتُغرقني؛ لأنَّ الذي غَلبَ عليه في الحال فرطُ الشفقةِ عليهم، ومراعاةُ حقِّهم. و«إِمْراً» معناه عجباً؛ قاله القتبيُّ[٢]. وقيل: منكَراً؛ قاله مجاهد[٣]. وقال أبو عبيدة: الإمرُ: الداهيةُ العظيمةُ؛ وأنشد:

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنِّي نُكْرَا ... داهِيَةً دَهْيَاءَ إِدًّا إِمْرَا[٤]

وقال الأخفشُ: يقالُ: أَمِرَ أَمْرُهُ يَأْمَر [أَمْراً] إذا اشتدَّ، والاسمُ الإِمْرُ[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ في معناه قولان: أحدُهما: يُروى عن ابنِ عباس قال: هذا من معاريضِ الكلام[٦]. والآخر: أنَّه نسي فاعتذر. ففيه ما يدلُّ على أنَّ النسيان لا يقتضي المؤاخذة، وأنه لا يدخلُ تحتَ التكليف، ولا يتعلقُ به حكم طلاقٍ ولا غيره، وقد تقدَّم، ولو نسي في الثانيةِ لاعتذرَ[٧].

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ في «البخاري»[٨]: قال يَعْلَى: قال

---

(١) التيسير ص١٤٤، والسبعة ص٣٩٥.

(٢) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٩.

(٣) في تفسيره ١/ ٣٧٩، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٣٦.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٤٠٩، والرجز عند الطبري ١٥/ ٣٣٦ - ٣٣٧. وفي الصحاح (أمر).

(٥) الصحاح (أمر) والمفهم ٦/ ٢٠٤، وما بين حاصرتين منهما.

(٦) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٧، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٣٨ بهذا اللفظ عن أبي بن كعب.

(٧) وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٧١ قولاً ثالثاً أنه بمعنى الترك، فالمعنى: لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه، ذكره ابن الأنباري.

(٨) برقم (٤٧٢٦)، وسلف في تفسير الآية ٦٤ من هذه السورة.

سعيد: وجدَ غلماناً يلعبون فأخذَ غلاماً كافراً، فأضجعه ثم ذبَحه بالسكين، «قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ» لم تعملْ بالحِنْثِ. وفي «الصحيحين» و«صحيح» الترمذي[١]: ثم خرجا من السفينةِ فبينما هما يمشيانِ على الساحلِ إذ أبصرَ الخضرُ غلاماً يلعبُ مع الغلمان، فأخذَ الخضرُ رأسه بيدِه فاقتلَعه بيده فقتلَه، قال له موسى: «أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً» قال[٢]: وهذه أشدُّ من الأولى. «قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً». لفظ البخاري. وفي «التفسيرِ»: إنَّ الخضرَ مرَّ بغلمانٍ يلعبون فأخذَ بيدِه غلاماً ليس فيهم أَضوأُ منه، وأخذ حجراً فضرب به رأسَه حتى دَمَغه، فقتله[٣]. قال أبو العالية: لم يَره إلا موسى، ولو رأَوه لحالوا بينَه وبين الغلام.

قلت: ولا اختلافَ بين هذه الأحوال الثلاثةِ، فإنه يحتملُ أن يكون دَمَغه أوَّلاً بالحجر، ثم أضجعه فذبَحه، ثم اقتلعَ رأسه؛ والله أعلمُ بما كان من ذلك، وحسبُك بما جاءَ في «الصحيح».

وقرأ الجمهورُ: «زَاكِيَةً» بالألف. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر: «زَكِيَّةً» بغير ألفٍ وتشديدِ الياء[٤]؛ قيل: المعنى واحد؛ قاله الكسائي. وقال ثعلب: الزكيةُ أبلغُ. قال أبو عمرو: الزاكيةُ التي لم تذنبْ قطُّ، والزكيةُ التي أَذنبت ثم تابت[٥].

قوله تعالى: «غلاما» اختلفَ العلماء في الغلام، هل كان بالغاً أم لا؟ فقال الكلبي: كان بالغاً يقطع الطريقَ بين قريتين، وأبوه من عظماءِ أهل إحدى القريتين، وأمُّه من عظماء القرية الأخرى، فأخذه الخضرُ فصرعه، ونزع رأسَه عن جسده[٦].

---

(١) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩).

(٢) القائل سفيان بن عيينة كما صرَّح به البخاري (١٢٢)، وذكره في إرشاد الساري للقسطلاني ٧/ ٢٢٠.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٤ بنحوه.

(٤) التيسير ص١٤٤، والسبعة ص٣٩٥.

(٥) المفهم ٦/ ٢٠٥، وفيه أنَّ قول أبي عمرو في الزكية: التي ما حلَّ ذنبها.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٧٤.

قال الكلبي: واسمُ الغلام شمعون. وقال الضَّحاك: حيسون. وقال وهب: اسمُ أبيه سلاس، واسمُ أمِّه رُحْمَى[١]. وحكى السهيليُّ أنَّ اسمَ أبيه كازير، واسمَ أُمه سهوى[٢]. وقال الجمهور: لم يكن بالغاً، ولذلك قالَ موسى: زاكية لم تذنب. وهو الذي يقتضيه لفظُ الغلام؛ فإنَّ الغلامَ في الرجال يقال على مَن لم يبلغ، وتقابلُه الجاريةُ في النساء. وكان الخضرُ قتله لِمَا علمَ من سِرِّه، وأنه طُبع كافراً كما في صحيح الحديث، وأنَّه لو أدركَ لأرهقَ أبويه كفراً. وقَتلُ الصغيرِ غيرُ مستحيل إذا أذنَ الله في ذلك؛ فإنَّ الله تعالى الفعالُ لما يريد، القادرُ على ما يشاء[٣].

وفي كتابِ «العرائس»: إنَّ موسى لمَّا قال للخضر: «أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّة» ـ الآية ـ غضبَ الخضرُ واقتلع كتفَ الصبيِّ الأيسر، وقشرَ اللحمَ عنه، وإذا في عظمِ كتفِه مكتوبٌ: كافرٌ لا يؤمنُ بالله أبداً[٤]. وقد احتجَّ أهلُ القولِ الأول بأنَّ العرب تُبقي على الشابِّ اسمَ الغلام[٥]، ومنه قولُ ليلى الأخيلية:

شَفَاها من الدَّاءِ العُضالِ الذِي بِها ... غُلامٌ إذا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا[٦]

وقال صفوان لحسان:

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيفِ عَنِّي فإنَّني ... غُلامٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بشاعِر[٧]

وفي الخبر: إنَّ هذا الغلامَ كان يفسد في الأرض، ويُقسِم لأبويه أنَّه ما فَعل، فيقسمان على قَسَمِه، ويحميانه ممَّن يطلبه. قالوا: وقوله: «بِغَيْرِ نَفْسٍ» يقتضي أنه لو

---

(١) المفهم ٦/ ٢٠٥ .

(٢) التعريف والإعلام ص١٠٥ .

(٣) الكلام بنحوه في المفهم ٦/ ٢٠٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٢٨ ، وزاد المسير ٥/ ١٧٢ .

(٤) عرائس المجالس ص٢٢٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ .

(٦) سلف ٥/ ١٢٢ .

(٧) البيت في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٥ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٦١٨ ، والبداية والنهاية ٦/ ٢٠١ . وذُباب السيف: حَدُّه أو طرفه المتطرف كما في القاموس (ذبب).

كانَ عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدلُّ على كبَرِ الغلام، وإلَّا فلو كان لم يحتلم، لم يجب قتلُه بنفسٍ[١]. وإنما جاز قتلُه؛ لأنه كان بالغاً عاصياً. قال ابنُ عباس: كان شابًّا يقطعُ الطريق[٢]. وذهب ابن جبير إلى أنَّ بلغَ سنَّ التكليف لقراءةِ أُبيٍّ وابنِ عباس «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين» والكفرُ والإيمان من صفاتِ المكلَّفين، ولا يُطلَق على غير مكلَّف إلا بحكم التبعيةِ لأبويه، وأبوا الغلامِ كانا مؤمنين بالنص فلا يَصدقُ عليه اسمُ الكافر إلا بالبلوغ، فتعين أن يُصار إليه[٣]. والغلامُ من الاغتلامِ وهو شدةُ الشَّبَق.

قوله تعالى: ﴿نُكْرًا﴾ اختلف الناسُ أيُّهما أبلغُ «إمرا» أو قوله: «نكرا» فقالت فرقة: هذا قَتلٌ بيِّن، وهناك مُترقَّب؛ فـ «نكرا» أبلغُ. وقالت فرقة: هذا قَتلُ واحدٍ، وذاك قتلُ جماعة فـ «إمرا» أبلغ. قال ابنُ عطية[٤]: وعندي أنَّهما لمعنيين وقوله: «إِمْراً» أفظعُ وأهولُ من حيثُ هو متوقع عظيم، و«نُكْراً» بيِّن في الفساد؛ لأنَّ مكروهَه قد وقع. وهذا بَيِّن. قوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ شرطٌ وهو لازم، والمسلمون عند شروطِهم، وأحقُّ الشروطِ أن يُوفَّى به ما التزمَه الأنبياء، والتُزِمَ للأنبياء. وقوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ يدلُّ على قيامِ الاعتذار بالمرةِ الواحدةِ مطلقاً، وقيامِ الحجةِ من المرة الثانيةِ بالقطع؛ قاله ابنُ العربي[٥]. ابنُ عطية: ويشبهُ أن تكونَ هذه القصةُ أيضاً أصلاً للآجالِ في الأحكامِ التي هي ثلاثة، وأيامُ التلومِ[٦] ثلاثة، فتأمله[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٦ .

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٧ .

(٣) المفهم ٦/ ٢١١ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ ، وما قبله منه.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ٢٣٤ ، وما قبله منه.

(٦) في (م): المتلوم.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ .

قوله تعالى: «فَلَا تُصَاحِبْنِي» كذا قرأ الجمهور؛ أي: تتابعني. وقرأ الأعرجُ: «تَصْحَبَنِّي» بفتحِ التاءِ والباء وتشديدِ النون. وقرئ: «تَصْحَبْنِي» أي: تتبعني. وقرأ يعقوب «تُصْحِبْنِي» بضمِّ التاء وكسر الحاء، ورواها سهل، عن أبي عمرو[١]؛ قال الكسائي: معناهُ: فلا تتركني أَصحَبُك. «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً» أي: بلغتَ مبلغاً تُعذر به في تركِ مصاحبتي. وقرأ الجمهور: «مِنْ لَدُنِّي» بضمِّ الدال، إلا أنَّ نافعاً وعاصماً خفَّفا النون، فهي «لدن» اتصلت بها ياءُ المتكلم التي في غلامي وفرسي، وكُسر ما قبلَ الياء كما كُسر في هذه. وقرأ أبو بكرٍ عن عاصم: «لَدْنِي» بفتح اللام وسكون الدال وتخفيفِ النون، ورُوي عن عاصم: «لُدْنِي» بضمِّ اللام وسكون الدال، قال ابنُ مجاهد[٢]: وهي غلطٌ. قال أبو علي: هذا التغليطُ يُشبه أن يكونَ من جهة الروايةِ، فأمَّا على قياسِ العربية؛ فهي صحيحةٌ[٣]. وقرأ الجمهور: «عُذْراً»، وقرأ عيسى: «عُذُراً» بضمِّ الذال، وحكى الداني أنَّ أُبيًّا روى عن النبيِّ ﷺ: «عُذْري» بكسرِ الراء وياءٍ بعدها[٤].

مسألة: أسندَ الطبريُّ[٥] قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا دعا لأحدٍ بدأَ بنفسه، فقال يوماً: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو صَبَر على صاحبِه لرأى العجبَ ولكنَّه قال: «فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً»». والذي في «صحيحِ» مسلم قالَ رسولُ الله ﷺ: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل، لرأى العجبَ ولكنَّه أَخذته من صاحبِه ذَمَامةٌ ولو صَبَر؛ لرأى العجبَ» قال: وكان إذا ذَكَر أحداً من الأنبياء بدأَ بنفسِه: «رحمةُ اللهِ علينا وعلى أخي كذا»[٦]. وفي البخاري عن النبيِّ ﷺ قال: «يرحمُ الله

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ ، ونسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨١ قراءة الأعرج إلى ابن مسعود، وقراءة يعقوب إلى الجحدري والنخعي. وقراءة يعقوب ذكرها البغوي ٣/ ١٧٥ .

(٢) في السبعة ص٣٩٦ ، وما قبله منه.

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ١٦٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ .

(٥) في التفسير ١٥/ ٣٤٥ ، ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ .

(٦) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

موسى، لوَدِدْنا أنه صَبَر حتى يقصَّ علينا من أمرِهما»[١].

الذَّمامةُ بالذالِ المعجمةِ المفتوحة، وهو بمعنى المَذَمَّة بفتح الذالِ وكسرها، وهي الرقةُ، والعارُ من تَرْكِ الحرمةِ: يقال: أخذتني منك مَذَمَّةٌ ومَذِمَّة وذَمَامة، وكأنه استحيا من تكرارِ مخالفتِه، وممَّا صدرَ عنه من تغليظِ الإنكارِ[٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾

فيه ثلاثَ عَشْرةَ مسألةً:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ في «صحيح» مسلم[٣] عن أُبيِّ بنِ كعب، عن النبيِّ ﷺ: «لئاماً»، فطافا في المجالس فـ ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يقول: مائل. قال: ﴿فَأَقَامَهُۥۖ﴾ الخضرُ بيده قال له موسى: قومٌ أتيناهم فلم يُضيِّفونا، ولم يُطعِمونا ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا . قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ قال رسولُ الله ﷺ: «يرحمُ الله موسى، لوَدِدْتُ أنَّه كان صَبَر حتى يقصَّ علينا من أخبارِهما».

الثانية: واختلفَ العلماءُ في القرية، فقيل: هي أَيْلة[٤]؛ قاله قتادةُ، وكذلك قال محمد بنُ سيرين، وهي أبخلُ قرية وأبعدُها من السماء. وقيل: أنطاكية. وقيل: بجزيرةِ الأندلس، رُوي ذلك عن أبي هريرة وغيرِه، ويذكر أنها الجزيرةُ الخضراء. وقالت

---

(١) صحيح البخاري (١٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٦ .

(٣) برقم (٢٣٨٠): ١٧٢ .

(٤) في (م): أبلة، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٦/ ٢٠٧ ، وإكمال المعلم ٧/ ٣٧٧ ، وعرائس المجالس ص٢٢٩ ، ووقع في تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٧ ، والوسيط ٣/ ١٦٠ ، والمحرر ٣/ ٥٣٣ ، وزاد المسير ٥/ ١٧٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٣٠ : الأُبُلَّة.

فرقة: هي أبو جوزان[١] وهي بناحيةِ أذْرَبيجان. وحكى السُّهيليُّ وقال: إنَّها برقة[٢]. الثَّعلبي: هي قريةٌ من قرى الروم يقالُ لها: ناصرة، وإليها تُنسَب النصارى[٣]. وهذا كلُّه بحسب الخلاف في أي ناحيةٍ من الأرضِ كانت قصةُ موسى، والله أعلمُ بحقيقةِ ذلك[٤].

الثالثة: كان موسى عليه السلام حينَ سقى لبنتي شعيب أَحوجَ منه حين أَتى القريةَ مع الخضر، ولم يَسألْ قوتاً بل سقى ابتداءً، وفي القريةِ سألا القوت، وفي ذلك للعلماءِ انفصالاتٌ كثيرة، منها أنَّ موسى كان في حديث مَدْين منفرداً، وفي قصةِ الخضرِ تبعاً لغيره[٥].

قلتُ: وعلى هذا المعنى يَتمشّى قولُه في أوّلِ الآية لفتاه: «آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً» فأَصابه الجوعُ مراعاةً لصاحبِه يوشع. والله أعلم.

وقيل: لمَّا كانَ هذا سفرَ تأديب، وُكِل إلى تكلُّف المشقة، وكان ذلك سفرَ هجرةٍ، فوُكِل إلى العونِ والنُّصرةِ والقوة[٦].

الرابعة: في هذه الآيةِ دليلٌ على سؤالِ القوت، وأنَّ مَن جاع وجبَ عليه أن يطلب ما يردُّ جوعَه خلافاً لجهالِ المتصوفة. والاستطعامُ سؤالُ الطعام، والمرادُ به هنا سؤالُ الضيافة، بدليل قوله: «فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا» فاستحقَّ أهلُ القرية لذلك أن يُذمُّوا، ويُنسبوا إلى اللُّؤمِ والبخل، كما وصفَهم بذلك نبيُّنا عليه الصلاةُ والسلام[٧]. قال قتادةُ في هذه الآيةِ: شرُّ القُرَى التي لا تُضيِّف الضيفَ، ولا تعرفُ لابنِ السبيل حقَّه.

---

(١) في (م): بَاجَروان، والمثبت من النسخ، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ ، والكلام منه: أبو حوران.

(٢) التعريف والإعلام ص١٠٥ .

(٣) عرائس المجالس ص٢٢٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٥ .

(٦) في (م): بالقوت، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٥ ، والكلام منه.

(٧) أخرجه أحمد (٢١١٢٠) في الزوائد، ومسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، من حديث أبي بن كعب ﷺ.

ويظهرُ من ذلك أنَّ الضيافة كانت عليهم واجبةً، وأنَّ الخضر وموسى إنَّما سألا ما وجبَ لهما من الضِّيافة، وهذا هو الأليقُ بحالِ الأنبياء، ومنصبِ الفضلاء والأولياء، وقد تقدَّم القولُ في الضيافةِ في «هود»[١] والحمدُ لله. ويعفو اللهُ عن الحريريِّ[٢] حيثُ استخفَّ في هذه الآيةِ وتَمجَّن، وأتى بخَطَلٍ من القول وزلَّ، فاستدلَّ بها على الكُدْيةِ[٣] والإلحاحِ فيها، وأنَّ ذلك ليس بمعيبٍ على فاعله، ولا منقصة عليه؛ فقال:

وإنْ رُدِدْتَ فما في الردِّ مَنقصةٌ عليكَ قد رُدَّ موسى قبلُ والْخَضِرُ

قلت: وهذا لعبٌ بالدين، وانسلالٌ عن احترام النبيين، وهي شِنْشِنَةٌ أدبية، وهفوةٌ سخافية؛ ويرحمُ الله السلفَ الصالح، فلقد بالغوا في وصيةِ كل ذي عقل راجح، فقالوا: مهما كنت لاعباً بشيءٍ فإياك أن تلعبَ بدينك[٤].

الخامسة: قولُه تعالى: «جِدَاراً» الجدارُ والجَدْرُ بمعنًى، وفي الخبر: «حتى يبلغَ الماءُ الجَدْرَ». ومكانٌ جَدِيرٌ: بُني حَواليه جدارٌ، وأصلُه الرفع. وأَجدرتِ الشجرةُ: طلعت، ومنه الجُدَريُّ[٥].

السادسة: قوله تعالى: «يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ» أي: قَرُب أن يسقط[٦]، وهذا مجازٌ وتوسُّع، وقد فسَّره في الحديث بقوله: «مائل» فكانَ فيه دليلٌ على وجودِ المجازِ في القرآن، وهو مذهبُ الجمهور[٧]. وجميعُ الأفعالِ التي حقُّها أن تكونَ للحي الناطقِ متى أُسنِدت إلى جمادٍ أو بهيمة، فإنَّما هي استعارة، أي: لو كان مكانَهما إنسانٌ،

---

(١) ١١/ ١٥٩ وما بعدها، والكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٧ ، وأثر قتادة أخرجه الطبري ١٥/ ٣٤٧ .

(٢) هو: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد البصري، له: درة الغواص في وهم الخواص، والملحة، والمقامات. (ت٥١٦هـ). السير ١٩/ ٤٦٠ - ٤٦٥ .

(٣) الكُدية: حِرفةُ السائلِ المُلِحِّ. المعجم الوسيط (كدى).

(٤) المفهم ٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وقول الحريري في مقاماته ص٣٢٦ .

(٥) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٣٤ - ٦٣٥ . والخبر أخرجه البخاري (٤٥٨٥)، وسلف ٦/ ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٣٥٠ .

(٧) المفهم ٦/ ٢٠٨ .

لكان ممتثلاً لذلك الفعل، وهذا في كلام العربِ وأشعارِها كثيرٌ[١]، فمن ذلك قولُ الأعشى:

أتَنْتَهون ولَا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ كالطَّعْنِ يَذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُلُ[٢]

فأضافَ النَّهيَ إلى الطعنِ، ومن ذلك قولُ الآخر:

يُرِيدُ الرمحُ صدرَ أَبِي بَرَاءٍ ويرغبُ عن دماءِ بني عقيل[٣]

وقال آخر:

إنَّ دهراً يلُفُّ شَمْلي بِجُمْلٍ لَزمَانٌ يَهُمُّ بالإحسان[٤]

وقال آخر:

في مهمهٍ فُلِقت به هاماتُها فَلْقَ الفؤوس إذا أَردن نُصُولاً[٥]

أي: ثبوتاً في الأرض، من قولهم: نَصَل السيفُ إذا ثَبَت في الرميَّة؛ فشبَّه وقعَ السيوف على رؤوسهم بوقع الفؤوسِ في الأرض، فإنَّ الفأسَ يقعُ فيها ويثبت لا يكاد يخرج[٦]. وقال حسانُ بنُ ثابت[٧]:

لَوَ انَّ اللُّؤْمَ يُنسبُ كان عَبْداً قبيحَ الوجهِ أَعْوَرَ من ثَقِيفِ

وقال عَنْتَرة:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ .

(٢) ديوان الأعشى ص١١٣ ، وسلف ١/ ٣٢٠ .

(٣) البيت في مجاز القرآن ١/ ٤١٠ ونسبه للحارثي، وفي تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٧ ، والصناعتين ص٢٨٤ دون نسبة.

(٤) البيت في الطبري ١٥/ ٣٤٨ ، والصحاح (دهر)، وتهذيب اللغة ٦/ ١٩٢ ، بهذه السياقة، وهو في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٢١٩ بلفظ: بسعدى بل بجمل. ولفظه في ديوان بشار بن برد ٢/ ٥٤٥ :

إنَّ دهراً يضم شملي بسلمى لزمان قد همَّ بالإحسان

(٥) البيت للراعي النميري في ديوانه ص٢٢٢ ، وفي ديوان المعاني ٢/ ١٢٣ .

(٦) المفهم ٦/ ٢٠٨ - ٢٠٩ . وما قبله فيه.

(٧) في ديوانه ص١٦١ .

فـازْوَرَّ مـن وَقْـعِ الـقَـنَـا بِـلَـبَـانِـه وشَـكَـا إلـيَّ بـعَـبْـرةٍ وتَـحَـمْـحُـمِ

وقد فَسَّر هذا المعنى بقوله:

لو كان يَدْرِي ما الْمُحَاوَرةُ اشتكَى[1]

وهذا في هذا المعنى كثيرٌ جدًّا. ومنه قولُ الناس: إنَّ داري تنظرُ إلى دارِ فلان[2]. وفي الحديث: «اشتكتِ النارُ إلى ربِّها»[3].

وذهبَ قومٌ إلى منعِ المجاز في القرآن، منهم أبو إسحاق الإِسْفَرايني[4] وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني[5] وغيرهما، فإنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ وكلامَ رسوله حَمْلُه على الحقيقةِ أولى بذي الفضلِ والدِّين؛ لأنه يَقصُّ الحقَّ كما أخبرَ الله تعالى في كتابِه. وممَّا احتجوا به أن قالوا: لو خاطبنا الله تعالى بالمجازِ؛ لزمَ وصفُه بأنَّه مُتجوِّز أيضاً، فإنَّ العدولَ عن الحقيقةِ إلى المجاز يقتضي العجزَ عن الحقيقة، وهو على الله تعالى محالٌ[6]، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقال تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ

---

(١) صدر بيت لعنترة، وعجزه: ولكان لو علم الكلام مكلمي، وهو وما قبله في شرح المعلقات لابن النحاس ٢/ ٤٤ .

وقال النحاس: ازورَّ: مال. والتحمحم: صوت مقطع وليس بالصهيل.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ ، وما قبله منه.

(٣) أخرجه أحمد (٧٧٢٢)، والبخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧): ١٨٥ ، من حديث أبي هريرة.

(٤) هو: ركن الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، من تصانيفه: كتاب جامع الخلي في أصول الدين، وغيرها. (ت٤١٨هـ). السير ١٧/ ٣٥٣ .

ونقل مَنْعَه للمجاز ابن العربي في المحصول ص٣١ .

(٥) هو: الظاهري صاحب كتاب الزهرة في الآداب والشعر، وكتاب التقصي في الفقه. (ت٢٩٧هـ). السير ١٣/ ١٠٩ وما بعدها.

ونقل مَنْعَه للمجاز الرازي في المحصول ١/ ٣٣٣ .

(٦) المحصول للرازي ١/ ٣٣٣ .

﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٧]، و«اشتكتِ النارُ إلى ربها»[١]، «واحتجت النار والجنة»[٢] وما كان مثلَها حقيقة، وأنَّ خالقَها الذي أنطق كلَّ شيء أنطقَها.

وفي «صحيح» مسلم من حديث أنس، عن النبي ﷺ: «فيُختَم على فِيهِ ويقالُ لفخذه: انطقي، فتنطقُ فخذُه ولحمه وعظامُه بعملِه وذلك لِيُعذِر من نفسه، وذلك المنافقُ وذلك الذي يَسخطُ الله عليه»[٣]. هذا في الآخرة.

وأمَّا في الدنيا؛ ففي «الترمذي» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تقومُ السَّاعةُ حتى تُكلِّمَ السِّباعُ الإنسَ، وحتى تُكلِّمَ الرجلَ عذَبَةُ سَوْطِهِ، وشِراكُ نَعلِه، وتُخبرَه فَخذُه بما أحدثَ أهلهُ مِن بعدِه» [قال أبو عيسى]: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديثٌ حسنٌ غريب[٤].

السابعة: قوله تعالى: «فَأَقَامَه» قيل: هدمَه ثم قعد يبنيه[٥]، فقال موسى للخضر: «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» لأنه فعلٌ يَستحقُّ أجراً. وذكر أبو بكر الأنباري، عن ابنِ عباس، عن أبي بكر، عن رسولِ الله ﷺ أنه قرأ «فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه». قال أبو بكر: وهذا الحديثُ إنْ صحَّ سندُه فهو جارٍ من الرسولِ عليه الصلاة والسلام مجرى التفسيرِ للقرآن، وإنَّ بعضَ الناقلين أدخلَ [تفسير][٦] قرآنٍ في موضعٍ فَسَرى أنَّ ذلك قرآنٌ نَقصَ من مُصحف عثمان، على ما قاله بعضُ الطاعنين. وقال سعيد بنُ جبير: مَسحه بيدِه وأقامه فَقام[٧]، وهذا القولُ هو الصحيح،

---

(١) تقدم تخريجه آنفاً.

(٢) أخرجه أحمد (٧٧١٨)، والبخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٨)، وهذا لفظ حديث أبي هريرة، وحديث أنس عند مسلم (٢٩٦٩) بلفظ: قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله.

(٤) سنن الترمذي (٢١٨١)، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه أحمد (١١٧٩٢).

(٥) الطبري ١٥/ ٣٥٠.

(٦) زيادة من (م) يقتضيها السياق.

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٥١.

وهو الأشبهُ بأفعالِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل والأولياء. وفي بعض الأخبار: إنَّ سُمْكَ ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعاً بذراع ذلك القرن، وطولَه على وجهِ الأرض خَمسُمائة ذراعٍ، وعرضَه خمسون ذراعاً، فأقامه الخضرُ عليه السلام أي: سوَّاه بيده فاستقام. قاله الثَّعلبي في كتاب «العرائس»[١]. فقال موسى للخضر: «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» أي: طعاماً تأكله[٢]، ففي هذا دليلٌ على كراماتِ الأولياء، وكذلكَ ما وصفَ من أحوالِ الخضر عليه السلام في هذا الباب كلُّها أمورٌ خارقةٌ للعادة، هذا إذا تَنزَّلنا على أنَّه وليٌّ لا نبيٌّ.

وقوله تعالى: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» يدلُّ على نبوّتِه وأنه يوحَى إليه بالتكليفِ والأَحكام، كما أُوحي للأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام غير أنَّه ليس برسول، والله أعلم[٣].

الثامنة: واجبٌ على الإنسانِ ألَّا يتعرض للجلوس تحتَ جدار مائل يُخاف سقوطُه، بل يسرع في المشي إذا كان مارًّا عليه؛ لأنَّ في حديثِ النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا مرَّ أحدكم بِطِرْبالٍ مائل فليُسرِعِ المشي»[٤]. قال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: كان أبو عبيدة يقول: الطِّرْبال شبيهٌ بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصّومعة؛ والبناء المرتفع؛ قال جرير:

أَلْوَى بِهَا شَذبُ العُرُوقِ مُشَذَّبٌ فَكَأَنَما وَكَنَتْ عَلَى طِرْبَالِ[٥]

يقال منه: وَكَن يَكِن إذا جلسَ. وفي «الصحاح»: الطِّرْبالُ: القطعةُ العاليةُ من

---

(١) عرائس المجالس ص٢٢٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ .

(٣) المفهم ٦/ ٢٠٩ .

(٤) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ١٨ ، وما بعده منه.

(٥) ديوان جرير ٢/ ٩٦٠ ، وقال شارحه: ألوى بها: ذهب بها حيث أراد. شذب العروق: ليس عليه لحم. وَكَنَت: جلست. طربال: حصن معروف.

الجدار، والصخرةُ العظيمةُ المشرفة من الجبل، وطَرابيلُ الشامِ صوامعُها. ويقال: طَرْبَل بَوْلَه إذا مدَّه إلى فوق[١].

التاسعة: كراماتُ الأولياءِ ثابتة على ما دلَّت عليه الأخبارُ الثابتة، والآياتُ المتواترة، ولا يُنكِرها إلا المبتدعُ الجاحد، أو الفاسقُ الحائد، فالآياتُ ما أخبرَ الله تعالى في حقِّ مريم من ظهورِ الفواكهِ الشَّتويةِ في الصيف، والصَّيفيةِ في الشتاء ـ على ما تقدم ـ وما ظهر على يدِها حيثُ أُمرتِ النخلةَ وكانت يابسةً فأثمرت، وهي ليست بنبيَّة، على الخلاف. ويدلُّ عليها ما ظهرَ على يد الخضرِ عليه السلام من خرقِ السفينة، وقتلِ الغلام، وإقامةِ الجدار. قال بعضُ العلماء: ولا يجوزُ أن يقالَ: كان نبيًّا؛ لأنَّ إثباتَ النبوةِ لا يجوز بأخبارِ الآحادِ، لا سيَّما وقد رُوي من طريقِ التواتر ـ من غيرِ أن يحتملَ تأويلاً ـ بإجماعِ الأمةِ قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا نبيَّ بعدي»[٢]. وقال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] والخضرُ وإلياس[٣] جميعاً باقيان مع هذه الكرامةِ، فوجبَ أن يكونا غيرَ نبيين[٤]؛ لأنَّهما لو كانا نبيين، لوجبَ أن يكونَ بعد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام نبيٌّ، إلا ما قامتِ الدلالةُ في حديثِ عيسى أنَّه ينزلُ بعده.

قلت: الخضرُ كان نبيًّا ـ على ما تقدم ـ وليس بعدَ نبينا عليه الصلاةُ والسلام نبيٌّ، أي: يَدَّعي النبوَّةَ بعده أبداً. والله أعلم.

العاشرة: اختلفَ الناسُ، هل يجوزُ أن يعلمَ الوليُّ أنه وليٌّ أم لا؟ على قولين[٥]:

أحدهما: أنه لا يجوز، وأنَّ ما يظهر على يديه يجبُ أن يلاحظه بعينِ خوفِ

---

(١) الصحاح (طربل).

(٢) سلف ١/٣٩٨.

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ف): دانيال، والمثبت من (ظ).

(٤) قال بذلك القشيري في رسالته ٤/١٦١، وينظر المفهم ٦/٢١٧.

(٥) ذكر هذه المسألة القشيري في رسالته ٤/ ١٥٠ - ١٥١.

المكر؛ لأنه لا يأمنُ أن يكون مكراً واستدراجاً له، وقد حُكِي عن السَّريِّ أنه كان يقول: لو أنَّ رجلاً دخل بستاناً فكلَّمه من رأسِ كل شجرة طيرٌ بلسانٍ فصيح: السلامُ عليك يا وليَّ الله، فلو لم يخفْ أن يكون ذلك مكراً، لكانَ ممكوراً به[١]. ولأنه لو علم أنَّه وليٌّ لزالَ عنه الخوف، وحصلَ له الأمن. ومِن شرطِ الوليِّ أن يستديمَ الخوف إلى أن تتنزلَ عليه الملائكة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، ولأنَّ الوليَّ مَن كان مختوماً له بالسعادة، والعواقبُ مستورةٌ ولا يدري أحدٌ ما يُختَم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاةُ والسلام: «إنَّما الأعمالُ بالخواتيم»[٢].

القول الثاني: أنَّه يجوز للوليِّ أن يعلمَ أنه وليٌّ؛ ألا تَرى أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يجوزُ أن يعلم أنَّه وليٌّ، ولا خلافَ أنه يجوزُ لغيره أن يعلمَ أنه وليُّ الله تعالى، فجاز له أن يعلمَ ذلك. وقد أخبرَ النبي عليه الصلاة والسلام مِن حالِ العَشرة مِن أصحابه أنَّهم من أهلِ الجنة، ثم لم يكن في ذلك زوالُ خوفِهم، بل كانوا أكثرَ تعظيماً لله سبحانه وتعالى، وأشدَّ خوفاً وهيبة، فإذا جازَ للعشرةِ ذلك ولم يُخرجْهم عن الخوفِ، فكذلك غيرُهم.

وكان الشِّبْليُّ يقول: أنَا أَمَانُ هذا الجانب، فلما ماتَ ودُفن عبرَ الدَّيلمُ دجلةَ ذلك اليوم، واستَولَوا على بغداد[٣]، ويقول الناس: مُصيبتانِ موتُ الشبليِّ وعبورُ الديلم. ولا يقالُ: إنه يحتملُ أن يكون ذلك استدراجاً؛ لأنه لو جازَ ذلك؛ لجازَ ألَّا يَعرِف النبيُّ أنه نبيٌّ ووليُّ الله؛ لجوازِ أن يكونَ ذلك استدراجاً، فلمَّا لم يجز ذلك؛ لأنَّ فيه إبطالَ المعجزاتِ لم يَجُزْ هذا، لأنَّ فيه إبطالَ الكرامات. وما رُوي من ظهورِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٤/ ١٥٦ .

(٢) سلف ١/ ٢٩٦ .

(٣) ذكر هذا القول صاحب الديباج المذهب ١/ ٣٦٣ . والديلم: جيل سُمُّوا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر، وليس باسم لأب لهم، وإقليم الديلم يشمل قُومِس وجرجان وطبرستان والدَّيلمان والخزر. معجم البلدان ٢/ ٥٤٤ ، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للبشاري ص٢٧١ .

الكراماتِ على يدي بِلْعام[١] وانسلاخِه عن الدينِ بعدها لقولِه: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] فليس في الآيةِ أنه كان وليًّا ثم انسلختْ عنه الوِلاية. وما نُقِل أنه ظهرَ على يديه ما يجري مَجرى الكراماتِ هو أخبارُ آحادٍ لا تُوجِب العلمَ[٢]. والله أعلم.

والفرقُ بينَ المعجزةِ والكرامةِ أنَّ الكرامةَ من شرطها الاستتارُ، والمعجزةَ من شرطِها الإظهارُ. وقيل: الكرامةُ ما تظهرُ من غيرِ دعوى، والمعجزةُ ما تظهر عند دَعوى الأنبياءِ، فيُطَالَبون بالبرهانِ، فيظهرُ أثر ذلك[٣]. وقد تقدَّم في مقدَّمةِ الكتاب[٤] شرائطُ المعجزة، والحمدُ لله تعالى وحدَه لا شريكَ له.

وأمَّا الأحاديثُ الواردةُ في الدِّلالةِ على ثبوتِ الكرَامات، فمن ذلك ما خرَّجه البخاريُّ[٥] من حديث أبي هريرة قال: بعثَ رسول الله ﷺ عشرةَ رَهْط سريةً عَيْناً وأَمَّر عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصاريَّ، وهو جدُّ[٦] عاصم بنِ عمر بنِ الخطاب ﷺ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدأة وهي بين عُسفان ومكة ذُكِروا لحيٍّ من هُذَيْل يقال لهم بنو لَحيان، فنَفَّروا إليهم قريباً من مائتي راجلٍ كلُّهم رامٍ، فاقتصُّوا آثارَهم حتى وجدوا مأْكلهم تمراً تزوَّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمرُ يثرب، فاقتصوا آثارَهم، فلمَّا رآهم عاصم وأصحابه لَجؤوا إلى فَدْفَد[٧]، وأحاط بهم القومُ، فقالوا لهم: انزلوا فأَعطونا بأيديكم[٨] ولكم العهدُ والميثاق، ولا[٩] نقتلُ منكم أحداً؛ فقال عاصمُ بنُ ثابت أميرُ

---

(١) هو بِلعام بن باعوراء، ينظر ما تقدم في ٩/ ٣٨٣ .

(٢) ذكر بعضاً من أخباره ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٠/ ٣٩٦ - ٤٠٤ .

(٣) الرسالة القشيرية ٤/ ١٤٨ .

(٤) ١/ ١١٢ وما بعدها.

(٥) في صحيحه (٣٠٤٥).

(٦) وقال القسطلاني في إرشاد الساري ٥/ ١٦٣ : وقال مصعب الزهري: إنما هو خال عاصم لا جده؛ لأن عاصم بن عمر بن الخطاب أمه جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح أخت عاصم بن ثابت وكان اسمها عاصية. قال الكرماني: وعليه الأكثر.

(٧) الفدفد: المرتفع. القاموس (فدد).

(٨) في (د) و(م): أيديكم.

(٩) في (م): ألا.

السرية: أما أنا[١] فوالله لا أنزلُ اليوم في ذمةِ الكافر، اللهمَّ أَخبِرْ عنَّا نبيَّك، فَرَموا بالنَّبل فقتلوا عاصماً في سبعةٍ، فنزل إليهم ثلاثةُ رهطٍ بالعهد والميثاقِ، وهم: خُبَيبٌ الأنصاري وابنُ الدَّثِنة ورجلٌ آخر[٢]، فلما استمكنوا منهم، أَطلقوا أوتارَ قِسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أوّلُ الغدر! والله لا أَصحبكم؛ إنَّ لي في هؤلاء لأسوةً ـ يريدُ القتلى ـ فجرَّروه وعالجوه على أنْ يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، فانطلقوا بخُبيبٍ وابن الدَّثِنة حتى باعوهما بمكةَ بعد وقعة بدر، فابتاع خُبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خُبيب هو الذي قتلَ الحارثَ بن عامرٍ يوم بدر، فلبث خُبيب عندهم أسيراً؛ فأخبرني[٣] عبيدُ الله بنُ عياض أنَّ بنتَ الحارث أَخبرته أنهم حينَ اجتمعوا، استعارَ منها موسى يَسْتحِدُّ بها فأعارته، فأخذَ ابناً[٤] لي وأنا غافلةٌ حتى أتاه، قالت: فوجدته مُجلِسَه على فخذه والموسى بيده، ففزِعتُ فزعةً عرفها خُبيبٌ في وجهي، فقال: أَتخشَيْنَ أن أَقتلَه؟ ما كنتُ لأفعل ذلك. قالت: والله ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خُبيب؛ واللهِ لقد وجدتُه يوماً يأكل من قِطْفِ عنبٍ في يده، وإنَّه لموثَقٌ بالحديد، وما بمكة من ثمر؛ وكانت تقول: إنه لرزقٌ رزقه الله تعالى خُبيباً، فلمَّا خرجوا به من الحرمِ ليقتلوه في الحِلِّ قال لهم خُبيب: دعوني أركعْ ركعتين، فتركوه فركعَ ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا أنَّ ما بي جزعٌ من الموت لزدت؛ ثم قال[٥]: اللهمَّ أَحْصِهِم عدداً، واقتلهم بَدَداً، ولا تُبقِ منهم أحداً، ثم قال:

ولستُ أُبالي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... على أيِّ شِقٍّ كان لِلّه مَصْرَعي

وذلك في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ ... يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[٦]

---

(١) ليست في (د) و(م).

(٢) هو عبد الله بن طارق البلوي كما في إرشاد الساري ٥/ ١٦٤ .

(٣) في (م) و(د): فأخبر.

(٤) في (م): ابن. وهو أبو الحسين بن الحارث بن عدي بن نوفل بن عبد مناف كما في إرشاد الساري ٥/ ١٦٥ .

(٥) قوله: من الموت لزدت ثم قال. ليس في النسخ الخطية.

(٦) وقال القسطلاني ٥/ ١٦٥ : وقال ابن هشام: أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لخبيب.

فقتله بنو الحارث، وكان خُبيب هو الذي سنَّ الركعتين لكلِّ امرئ مسلم قُتل صَبْراً، فاستجاب الله تعالى لعاصم يومَ أصيب، فأُخبر النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأصحابُه خبرَهم وما أُصيبوا. وبعثَ ناسٌ من كفارِ قريش إلى عاصم حين حُدِّثوا أنه قُتل ليُؤتَوا بشيء منه يعرفونه، وكان قد قَتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبعثَ الله على عاصم مثلَ الظُّلَّةِ من الدَّبْر[١] فَحَمَتْه من رُسلِهم، فلم يَقدِروا على أن يَقطعوا من لحمِه شيئاً.

وقال ابن إسحاق[٢] في هذه القصة: وقد كانت هذيل حين قُتِل عاصمُ بن ثابت أرادوا رأسَه ليبيعوه من سُلَافة بنت سعد بن شُهَيْد، وقد كانت نذرت حين أصابَ ابنيها بأُحُد: لئن قَدَرتْ على رأسه لتشرَبنَّ في قِحْفِهِ[٣] الخمرَ فمنَعهم الدَّبْر، فلمَّا حالت بينَه وبينهم قالوا: دعوه حتى يُمسِي فتذهب عنه فنأخذه، فبعثَ الله تعالى الوادي فاحتمل عاصماً فذهبَ، وقد كان عاصم أَعطى الله تعالى عهداً ألَّا يمسَّ مشركاً ولا يمسه مشركٌ أبداً في حياتِه، فمنَعه الله تعالى بعدَ وفاتِه مما امتنعَ منه في حياته.

وعن عمرو بنِ أمية الضَّمْري: وكان رسولُ الله ﷺ بَعثه عيناً وحدَه فقال: جئتُ إلى خشبةِ خُبَيب فرقيتُ فيها وأنا أَتخوف العيونَ، فأطلقته، فوقعَ في الأرض، ثم اقتحمتُ فانتبذتُ قليلاً، ثم التفتُّ فكأنما ابتلعتْه الأرضُ. وفي رواية أخرى زيادة: فلم يُذكر لخبيب رِمَّةٌ حتى الساعة. ذكره البيهقي[٤].

الحادية عشرة: ولا يُنكر أن يكونَ للوليِّ مالٌ وضَيْعةٌ يصونُ بها مالَه وعياله،

---

(١) جماعة النحل والزنابير. القاموس (دبر).

(٢) في السير والمغازي ص٣٢٩ - ٣٣٠ ، وقد نقله المصنف بواسطة ابن هشام في السيرة ٢/ ١٧١ .

(٣) القِحف: العظم الذي فوق الدماغ. الصحاح (قحف).

(٤) في دلائل النبوة ٣/ ٣٣٢ ، وهو عند أحمد (١٧٢٥٢)، وإسناده ضعيف، فيه إبراهيم بن إسماعيل وهو ابن مجمع الأنصاري، وهو ضعيف وقد اضطرب فيه. وفي (م): فلم نذكر لخبيب رمة.

وحسبُك بالصحابةِ وأموالهم مع ولايتهم وفضلِهم، وهم الحجةُ على غيرهم. وفي «صحيح» مسلمٍ عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرض فسمع صوتاً في سحابةٍ: اسقِ حديقةَ فلان، فتنحَّى ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَه في حَرَّةٍ، فإذا شَرْجَة من تلك الشِّراجِ قد استوعبت ذلك الماءَ كلَّه، فتتبَّع الماءَ فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحوِّل الماءَ بمِسْحاته، فقال: يا عبدَ الله، ما اسمُك؟ قال: فلان، الاسم الذي سمعه في السَّحابة، فقال له: يا عبد الله، لِمَ سألتني عن اسمي؟ قال: إني سمعتُ صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤُه يقول: اسقِ حديقةَ فلان لاسمك، فما تصنعُ فيها؟ قال: أمَّا إذ قُلتَ هذا، فإني أنظرُ إلى ما يخرجُ منها فأتصدقُ بثلثِه، وآكلُ أنا وعيالي ثلثاً، وأَردُّ فيها ثلثَه»، وفي رواية «وأجعلُ ثلثَه في المساكين والسائلين وابن السبيل»[(١)].

قلت: وهذا الحديثُ لا يناقضُه قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا تَتخذوا الضيْعةَ فتركَنوا إلى الدنيا» خرَّجه الترمذي[(٢)] من حديثِ ابنِ مسعود وقال فيه: حديثٌ حسن؛ فإنَّه محمولٌ على من اتخذَها مستكثراً أو متنعماً ومتمتعاً بزهرتها، وأمَّا منِ اتخذَها معاشاً يصونُ بها دينَه وعيالَه؛ فاتخاذُها بهذه النيةِ من أفضلِ الأعمال، وهي من أفضلِ الأموال؛ قال عليه الصلاةُ والسلام: «نِعم المالُ الصالح للرجلِ الصالح»[(٣)]. وقد أكثرَ الناسُ في كراماتِ الأولياء، وما ذكرناهُ فيه كفايةٌ، واللهُ الموفقُ للهداية.

الثانية عشرة: قولُه تعالى: «لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» فيه دليلٌ على صحةِ جوازِ الإجارة، وهي سنةُ الأنبياء والأولياء على ما يأتي بيانُه في سورة «القصص»[(٤)] إن شاءَ

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٤)، وهو عند أحمد (٧٩٤١).

(٢) سنن الترمذي (٢٣٢٨)، وهو عند أحمد (٣٥٧٩)، والبخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٥٤ ، وإسناده ضعيف لضعف المغيرة بن سعد بن الأخرم.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، وابن حبان (٣٢١٠)، من حديث عمرو بن العاص ﷺ.

(٤) عند الآية ٢٦ .

الله تعالى. وقرأ الجمهورُ: «لَاتَّخَذْتَ» وأبو عمرو: «لَتَخِذْتَ» وهي قراءةُ ابنِ مسعود والحسن وقتادة[١]، وهما لغتان بمعنى واحد من الأَخْذ[٢]، مثل قولك: تَبِع واتّبع، وتَقى واتّقى[٣]. وأدغم بعض القرَّاء الذَّالَ في التاء، ولم يدغمها بعضهم. وفي حديث أبيٍّ بن كعب: لو شئت لأوتيت أجراً[٤]. وهذه صدرت من موسى سؤالاً على جهة العَرْض لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر: «هذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ» بحكم ما شرطتَ على نفسِك[٥]. وتكريره: «بيني وبينك» وعدوله عن بيننا؛ لمعنى التأكيد. قال سيبويه: كما يقال: أخزى اللهُ الكاذبَ منِّي ومنك، أي: منَّا[٦]. وقال ابن عباس: وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلبِ شيء من الدنيا، فكان سببَ الفِراق[٧]. وقال وهب بنُ مُنَبِّه: كان ذلك الجدار جداراً طوله في السماء مئة ذراع.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» تأويل الشيء: مآله، أي: قال له: إنِّي أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ. وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر: إنَّها حُجَّة على موسى، وعجباً له. وذلك أنَّه لما أنكر أمر خَرْقِ السفينة نُوديَ: يا موسى، أين كان تدبيرُك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليمِّ؟ فلما أنكر أمرَ الغلام قيل له: أين إنكارُك هذا مِن وكزك القِبْطيَّ وقضائِك عليه؟ فلما أنكر إقامةَ الجدار نُوديَ: أين هذا مِن رَفْعِك حجرَ البئر لبناتِ شعيب دون أجرٍ؟![٨]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ ، والكلام منه، والتيسير ص١٤٥ ، والسبعة ص٣٩٦ .

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ .

(٥) المفهم ٦/ ٢١٠ .

(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٠٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٨ .

(٧) لطائف الإشارات ٢/ ٤١١ .

(٨) عرائس المجالس ص٢٣١ - ٢٣٢ .

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ استدلَّ بهذا مَن قال: إنَّ المسكينَ أحسنُ حالاً من الفقير، وقد مضى هذا المعنى مستوفى في سورة براءة[1]. وقد قيل: إنَّهم كانوا تجاراً، ولكن من حيث هم مسافرون عن قلَّة في لجَّة بحر، وبحال ضَعْف عن مدافعة خَطْب، عَبَّر عنهم بمساكين، إذ هم في حالة يُشفَق عليهم بسببها، وهذا كما تقول لرجل غنيٍّ وقع في وَهْلَة أو خَطْب: مسكينٌ[2]. وقال كعب وغيره: كانت لعشَرة إخوةٍ من المساكين ورثوها من أبيهم، خمسة زَمْنى، وخمسة يعملون في البحر[3]. وقيل: كانوا سبعةً، لكل واحد منهم زَمَانة ليست بالآخر. وقد ذكر النقَّاش أسماءَهم[4]، فأمَّا العمّال منهم؛ فأحدهم كان مجذوماً، والثاني: أعور، والثالث: أعرج، والرابع: آدَر، والخامس: محموماً لا تنقطع عنه الحمَّى الدَّهرَ كلَّه، وهو أصغرهم، والخمسة الذين لا يطيقون العمل: أعمى وأصمُّ وأخرس ومُقْعد ومجنون، وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس والروم، ذكره الثعلبيُّ.

وقرأت فرقة: «لِمَسَّاكِينَ» بتشديد السين[5]، واختلف في ذلك فقيل: هم مَلَّاحو

---

(١) ١٠/٢٤٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٥٣٤ - ٥٣٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/١٧٦، والمفهم ٦/٢١٠.

(٤) التعريف والإعلام ص١٠٤.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٥٣٥، وقرأ بها سيدنا علي بن أبي طالب كما في البحر المحيط ٦/١٥٣.

السفينة، وذلك أنَّ المسَّاك هو الذي يُمسِك رجل السفينة، وكلُّ الخدمة تصلح لإمساكه، فسمِّي الجميعُ مسَّاكين. وقالت فرقة: أراد بالمسَّاكين: دَبَغة المُسُوك، وهي الجلود، واحدها: مَسْك. والأظهر قراءة: «مساكين» بالتخفيف، جمع مسكين، وأنَّ معناها: إنَّ السفينةَ لقوم ضعفاء ينبغي أن يُشفَق عليهم[١]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيب، يقال: عِبتُ الشيءَ فعاب، إذا صار ذا عَيب، فهو معِيب وعائب[٢].

وقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير: «صحيحةٍ»[٣]، وقرأ أيضاً ابن عباس وعثمان بن عفان: «صالحةٍ»[٤]. و«وراء» أصلها بمعنى خَلْف، فقال بعض المفسرين: إنَّه كان خَلْفه وكان رجوعهم عليه[٥]. والأكثر على أنَّ معنى «وراء» هنا أمام، يَعضُده قراءةُ ابنِ عباس وابنِ جبير: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْباً»[٦]. قال ابن عطيَّة[٧]: «وراءهم» هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظَ إنَّما تجيء مراعًى بها الزمان، وذلك أنَّ الحادث المقدَّم الموجود هو الأمام، والذي يأتي بعده هو الوراء وهو ما خَلْف، وذلك بخلاف ما يظهر باديَ الرأي، وتأمَّل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت، تَجِدْها تَطَّرِد، فهذه الآية معناها: إنَّ هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده في الزمان غصب هذا الملك، ومن قرأ: «أمامهم» أراد في المكان، أي: كأنَّهم يسيرون إلى بلد. وقوله عليه الصلاة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ .

(٢) الصحاح (عيب).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ ، وقراءة ابن عباس أخرجها الطبري ١٥/ ٣٥٦ .

(٤) قراءة ابن عباس أخرجها البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، والطبري ١٥/ ٣٥٦ ، وقراءة عثمان بن عفان ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٥ .

(٦) تقدمت القراءة قريباً.

(٧) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ .

والسلام: «الصلاةُ أمامك»[١] يريد في المكان، وإلَّا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمان، وتأمَّل هذه المقالةَ فإنَّها مريحةٌ من شغب هذه الألفاظ، ووقع لقتادة في كتاب الطبري[٢]: «وكان وراءهم ملك» قال قتادة: أمامهم، ألا تراه يقول: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] وهي بين أيديهم. وهذا القول غيرُ مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسنُ بنُ أبي الحسن يضجُّ منها، قاله الزجَّاج[٣].

قلت: وما اختاره هذا الإمامُ قد سبقه إليه في ذلك ابنُ عرفة قال الهَرويُّ: قال ابن عرفة: يقول القائل كيف قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٦] وهي أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو عليٍّ قُطْرُب أنَّ هذا من الأضداد، وأنَّ وراء في معنى قُدَّام، وهذا غيرُ محصَّل؛ لأنَّ أمام ضدُّ وراء، وإنَّما يصلح هذا في الأوقات، كقولك للرجل إذا وعد وعداً في رجب لرمضان ثم قال: ومن ورائك شعبان، لجاز وإن كان أمامه؛ لأنَّه يَخْلفه إلى وقت وعده، وأشار إلى هذا القول أيضاً القشيريُّ وقال: إنَّما يقال هذا في الأوقات، ولا يقال للرجل أمامك: إنَّه وراءك، قاله الفرَّاء[٤]، وجوَّزه غيرُه، والقوم ما كانوا عالمينَ بخبر الملك، فأخبر اللهُ تعالى الخضرَ حتى عَيَّب السفينةَ، وذكره الزجَّاج[٥]. وقال الماورديُّ[٦]: اختلف أهلُ العربية في استعمال «وراء» موضعَ «أمام» على ثلاثة أقاويل: أحدها: يجوز استعمالها بكلِّ حال، وفي كل مكان، وهو من الأضداد، قال الله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] أي: من أمامهم: وقال الشاعر:

أترجو بَنُو مَرْوانَ سَمْعِي وطاعتي ... وقَوْمِي تَمِيمٌ والفَلَاةُ وَرَائِيَا[٧]

---

(١) سلف ٣/ ٣٤٢.

(٢) في التفسير ١٥/ ٣٥٤.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٥٧.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٥٧.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٠٥.

(٦) في النكت والعيون ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٧) نسب هذا البيت لسوَّار بن المُضَرَّب، ونسب أيضاً لمساور بن حمثان، وسلف ١٢/ ١٢٠.

يعني: أمامي.

والثاني: أنَّ «وراء» تستعمل في موضع «أمام» في المواقيت والأزمان؛ لأنَّ الإنسانَ يَجُوزها فتصير وراءَه، ولا يجوز في غيرها.

الثالث: أنَّه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحَجَرين متقابلين، كلُّ واحد منهما وراءَ الآخر، ولا يجوز في غيرها، وهذا قول علي بن عيسى.

واختلف في اسم هذا الملك فقيل: هُدَد بنُ بُدَد. وقيل: الجَلَنْدي[١]، وقال السهيليُّ[٢]: وذكر البخاريُّ اسمَ الملك الآخذ لكلِّ سفينة غصباً فقال: هو [هُدَد بن بَدد، وذكر اسم الغلام المقتول فقال هو:] جَيْسور، وهكذا قيَّدناه في «الجامع» من رواية أبي يزيد المَرْوزيِّ، وفي غير هذه الرواية: حَيْسور بالحاء[٣]، وعندي في حاشية الكتاب رواية ثالثة: وهي حسنون[٤]. وكان يأخذ كلَّ سفينة جيِّدة غصباً، فلذلك عابها الخضرُ وخَرَقَها، ففي هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقَّق وجهها، وجواز إصلاح كلِّ المال بإفساد بعضه[٥]، وقد تقدَّم. وفي «صحيح مسلم»[٦] وجهُ الحكمةِ بِخَرْق السفينة وذلك قوله: فإذا جاء الذي يُسخِّرها، وجدها منخرقةً فتَجاوَزها، فأصلحوها بخشبة، الحديث. وتحصَّل من هذا الحضُّ على الصبر في الشدائد، فكم في ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦][٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ ، والمفهم ٦/ ٢١٠ ، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٩ .

(٢) في التعريف والإعلام ص١٠٤ - ١٠٥ ، وما بين حاصرتين منه، ومن صحيح البخاري (٤٧٢٦)، وينظر فتح الباري ٨/ ٤٢٠ .

(٣) في (د): جيسور بالجيم.

(٤) في (م): حيسون. وفي التعريف والإعلام ص١٠٥ : جنون. وينظر فتح الباري ٨/ ٤٢٠ .

(٥) المفهم ٦/ ٢٠٤ .

(٦) برقم (٢٣٨٠).

(٧) المفهم ٦/ ٢١٠ - ٢١١ .

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ جاء في صحيح الحديث: «أنَّه طُبع يوم طُبع كافراً»[١] وهذا يؤيِّد ظاهره أنَّه غيرُ بالغ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ قيل: هو من كلام الخضرِ عليه السلام، وهو الذي يَشهد له سياقُ الكلام، وهو قول كثيرٍ من المفسِّرين[٢]، أي: خِفْنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً، وكان اللهُ قد أَباح له الاجتهادَ في قتل النفوس على هذه الجهة. وقيل: هو من كلامِ الله تعالى وعنه عبَّر الخضر، قال الطبريُّ[٣]: معناه: فعلمنا، وكذا قال ابن عباس أي: فعلمنا، وهذا كما كنى عن العِلْم بالخوف في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وحكي أنَّ أُبيًّا قرأ: «فَعَلِمَ ربُّك». وقيل: الخشية بمعنى الكراهة، يقال: فرَّقت بينهما خشيةَ أن يقتتلا، أي: كراهةَ ذلك. قال ابن عطيَّة[٤]: والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل ـ وإن كان اللفظُ يدافعه ـ أنَّها استعارةٌ، أي: على ظنِّ المخلوقين والمخاطبين لو عَلموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود: «فخاف ربك»[٥] وهذا بيِّن في الاستعارة، وهذا نظير ما وقع في القرآن في جهة الله تعالى من «لعل» و«عسى» وأنَّ جميعَ ما في هذا كلِّه من ترجٍّ وتوقُّع وخوف وخشية إنَّما هو بحسبكم أيُّها المخاطبون. و«يرهقهما»: يجشِّمهما ويكلِّفهما، والمعنى أن يلقيهما حبُّه في اتِّباعه، فيضلَّا ويتدينا بدِينه.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قرأ الجمهور: بفتح الباء وشدِّ الدال، وقرأ عاصم: بسكون الباء وتخفيف الدال[٦]، أي: أن يرزقهما اللهُ ولداً.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ ، والحديث أخرجه مسلم (٢٣٨٠)، وأحمد (٢١١١٨) عن أُبي بن كعب ﷺ.

(٢) المفهم ٦/ ٢١٣ .

(٣) في التفسير ١٥/ ٣٥٧-٣٥٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٥) أخرجها عنه الطبري ١٥/ ٣٥٧ .

(٦) السبعة ص٣٩٧ ، والتيسير ص١٤٥ .

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: ديناً وصلاحاً، يقال: بدَّل وأبدل، مثل مَهَّلَ وأمهل، ونَزَّل وأنزل. ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قرأ ابن عامر[١]: «رُحُماً» بالضمِّ، قال الشاعر:

وكيف بظلمِ جاريةٍ ومنها اللِّينُ والرُّحُمُ[٢]

الباقون بسكونها[٣]، ومنه قول رُؤْبةَ بنِ العَجَّاج:

يا مُنْزِلَ الرُّحمِ على إدريسَا ومُنْزِلَ اللَّعْنِ على إبليسَا[٤]

واختلف عن أبي عمرو[٥].

و«رحماً» معطوف على «زكاة» أي: رحمة، يقال: رَحِمه رَحْمةً ورُحْماً، وألفه للتأنيث، ومذكَّره رُحْم. وقيل: الرُّحم هنا بمعنى الرَّحِم، قرأها ابن عباس: «وأَوْصَلَ رُحْماً» أي: رَحِماً[٦]. وقرأ أيضاً: «أزكى منه». وعن ابن جبير وابن جريج أنَّهما بُدِّلا جاريةً[٧]، قال الكلبيُّ: فتزوَّجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت له نبيًّا، فهدى اللهُ تعالى على يديه أمَّة من الأمم. قتادة: ولدت اثني عشَر نبيًّا. وعن ابن جريج أيضاً أنَّ أمَّ الغلام يوم قُتل كانت حاملاً بغلام مسلم، وكان المقتولُ كافراً. وعن ابن عباس: فولدت جاريةً ولدت نبيًّا، وفي رواية: أبدلهما اللهُ به جاريةً ولدت سبعين نبيًّا[٨]، وقاله جعفر بنُ محمد عن أبيه[٩]، قال علماؤنا: وهذا بعيد، ولا تُعرف كثرة الأنبياء

---

(١) في النسخ: ابن عباس، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ والعبارة منه، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٨٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ بفتح الراء وكسر الحاء.

(٢) القائل الوليد بن يزيد، والبيت في ديوانه ص١١١ .

(٣) قرأ ابن عامر بضمِّ الحاء، وقرأ الباقون بسكونها، واختلف عن أبي عمرو فروي عنه تسكين الحاء وتحريكها. السبعة ص٣٩٧ ، والتيسير ص١٤٥ .

(٤) ملحق ديوان رؤبة ص١٧٥ .

(٥) تقدم الكلام عليها قريباً.

(٦) المفهم ٦/ ٢١٣ ، وفيه: ومذكَّره رحيم.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ١٧٧ .

إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم[١].

ويستفاد من هذه الآية تهوينُ المصائب بفَقْد الأولاد وإن كانوا قِطَعاً من الأكباد، ومن سَلَّم للقضاء، أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء[٢]. قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين وُلد وحَزِنا عليه حين قُتل، ولو بقي، كان فيه هلاكُهما، فالواجب على كلِّ امرئٍ الرضا بقضاءِ الله تعالى، فإنَّ قضاءَ اللهِ للمؤمن فيما يَكره خيرٌ له من قضائه له فيما يُحب[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وَصْفهما باليتم، واسمهما أَصرم وأصيرم[٤]. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يُتْمَ بعد بلوغٍ» هذا هو الظاهر. وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسمُ اليُتم بعد البلوغ إن كانا يتيمين، على معنى الشفقة عليهما[٥]. وقد تقدَّم[٦] أن اليُتمَ في الناس من قِبَلِ فَقْدِ الأب، وفي غيرهم من الحيوان من قِبَلِ فَقْدِ الأمِّ.

ودلَّ قوله: ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ على أنَّ القريةَ تسمَّى مدينةً، ومنه الحديث: «أُمرتُ بقرية تأكل القُرَى»[٧] وفي حديث الهجرة: «لمن أنت» فقال الرجل: من أهل

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٢) المفهم ٦/ ٢١٣ .

(٣) عرائس المجالس ص٢٣٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٢١١)، والطبري ١٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٧٢).

(٤) في (م): وصريم. وكذا في التعريف والإعلام ص١٠٥ ، والمثبت من (د) و(ظ) و(ز) و(ف)، والمفهم ٦/ ٢١٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ - ٥٣٧ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٩ ، والحديث أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٥٧ ، عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: حفظتُ عن رسول الله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل». قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٠١ : وقد أعلّه العقيلي وعبد الحق وابن القطان والمنذري وغيرهم، وحسَّنه النووي متمسكاً بسكوت أبي داود عليه.

(٦) ٢/ ٢٢٩ ، والكلام من المفهم ٦/ ٢١٤ .

(٧) أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢)، وأحمد (٧٢٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المدينة[١]، يعني: مكَّة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ اختلف الناس في الكنز، فقال عِكرِمة وقتادة: كان مالاً جسيماً[٣]. وهو الظاهر من اسم الكنز، إذ هو في اللغة: المال المجموع، وقد مضى القول فيه[٤].

وقال ابن عباس: كان عِلْماً في صُحُفٍ مدفونة[٥]. وعنه أيضاً قال: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبتُ لمن يؤمن بالقَدَر كيف يَحزن، عجبتُ لمن يؤمنُ بالرزق كيف يتعب، عجبتُ لمن يؤمن بالموت كيف يَفرح، عجبتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يَغفل، عجبتُ لمن يؤمن بالدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يَطمئن لها، لا إله إلا الله محمَّد رسول الله[٦]. وروي نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة[٧]، ورواه عثمان بن عفان ﷺ عن النبيِّ ﷺ[٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنَّه والدهما دِنْيةً[٩]. وقيل: هو الأبُ السابع، قاله جعفر بنُ محمد. وقيل: العاشر، فَحُفِظا فيه وإن لم

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) في كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة، واللفظ له، والكلام من المفهم ٥/ ٢٧٧ .

(٢) بعدها في (د) و(ظ): واسم هذه المدينة، قاله مقاتل.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ ، وأخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٦٥ .

(٤) ١٠/ ١٨٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٦٢ بنحوه.

(٦) عرائس المجالس ص٢٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٧٧ ، وزاد المسير ٥/ ١٨١ .

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ عن عمر مولى غفرة، ولم نقف عليه من قول عكرمة.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥ (١٢٨٨٠) عن أبي ذر مرفوعاً، وأبو الليث السمرقندي ٢/ ٣٠٨ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٦٢ ، عن أنس مرفوعاً، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٣٥ عن علي مرفوعاً، وعزاه لابن مردويه، وينظر الكافي الشاف ص١٠٤ .

(٩) في (د): زينة، وفي (ظ): دفنه.

يُذْكَرا بصلاح[١]، وكان يسمَّى: كاشحاً[٢]، قاله مقاتل. واسم أمِّهما: دنيا، ذكره النقَّاش.

ففيه ما يدلُّ على أنَّ الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بَعدُوا عنه. وقد روي أنَّ اللهَ تعالى يحفظ الصالحَ في سبعة من ذرِّيَّته، وعلى هذا يدلُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦][٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ يقتضي أنَّ الخضر نبيٌّ، وقد تقدَّم الخلاف في ذلك.

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: تفسير. ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قرأت فرقة: «تَسْتَطِعْ». وقرأ الجمهور: «تَسْطِعْ» قال أبو حاتم: كذا نقرأ كما في خطِّ المصحف[٤]. **وهنا خمس مسائل:**

الأولى: إن قال قائل: لم يُسمَع لفتى موسى ذِكْر في أوَّل الآية ولا في آخرِها، قيل له: اختلف في ذلك، فقال عكرمة لابن عباس: لم يُسمَع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال: شرب الفتى من الماء فخلّد، وأخذه العالِم فطبَّق عليه سفينة ثم أرسله في البحر، وإنَّها لتموج به فيه إلى يوم القيامة، وذلك أنَّه لم يكن له أن يشرب منه، فشرب منه. قال القشيريُّ: وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون، فإنَّ يوشعَ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ إلا أنه لم يذكر جعفر بن محمد، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٦٢ - ١٦٣، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٦.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٠، والبغوي ٣/ ١٧٧، والمفهم ٦/ ٢١٤ وفيه أن اسمه: كاسحاً. وكذا في (ظ).

(٣) المفهم ٦/ ٢١٤، وأخرج ابن المبارك في الزهد ١/ ١١١ - ١١٢، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٤٨، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٥٩ عن محمد بن المنكدر أنه قال: إن الله عزَّ وجلَّ ليحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم. وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٣٦ وقال بعده: وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ مثله. اهـ ولم نقف عليه.

وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٣٧٥ (١٢٨٨٣) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧.

ابنَ نون قد عُمِّر بعد موسى وكان خليفتَه، والأظهر أنَّ موسى صرف فتاه لما لقي الخضر. وقال شيخنا الإمام أبو العباس[١]: يحتمل أن يكون اكتفى بذِكْر المتبوع عن التابع، والله أعلم.

الثانية: إن قال قائل: كيف أضاف الخضرُ قصَّةَ استخراج كنز الغلامين للهِ تعالى، وقال في خرق السفينة: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا» فأضاف العيبَ إلى نفسه؟ قيل له: إنَّما أسند الإرادة في الجدار إلى الله تعالى؛ لأنَّها في أمر مستأنف في زمن طويل غيبٍ من الغيوب، فحسُن إفرادُ هذا الموضع بذِكْر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد ذلك، الذي أعلمه اللهُ تعالى أنه يريده. وقيل: لما كان ذلك خيراً كلَّه أضافه إلى اللهِ تعالى، وأضاف عيبَ السفينة إلى نفسِه؛ رعاية للأدب، لأنَّها لفظةُ عيب، فتأدَّب بأن لم يُسند الإرادةَ فيها إلا إلى نفسِه، كما تأدَّب إبراهيمُ عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأسند الفِعْلَ قبلُ وبعدُ إلى الله تعالى، وأسند إلى نفسِه المرضَ، إذ هو معنى نقص ومصيبة[٢]، فلا يُضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يُستحسَن منها دونَ ما يُستقبَح، وهذا كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ واقتصر عليه فلم ينسب الشَّرَّ إليه، وإن كان بيده الخيرُ والشرُّ والضرُّ والنفع، إذ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خبير.

ولا اعتراضَ بما حكاه عليه الصلاة والسلام عن ربِّه عزَّ وجلَّ أنَّه يقول يوم القيامة: «يا ابنَ آدم مرضتُ فلم تَعُدْني، واستطعمتُك فلم تُطعمني، واستسقيتك فلم تَسقني»[٣] فإنَّ ذلك تَنزُّلٌ في الخطاب، وتلطُّف في العتاب، مقتضاه التعريف بفَضْل ذي الجلال، وبمقادير ثواب هذه الأعمال، وقد تقدَّم هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

---

(١) في المفهم ٦/ ٢٠٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧.

(٣) سلف ٢/ ٤٣٨.

ولله تعالى أن يُطلِق على نفسه ما يشاء، ولا نُطلِق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة، جلَّ وتعالى عن النقائص والآفات علوًّا كبيراً. وقال في الغلام: «فأردنا» فكأنَّه أضاف القَتْلَ إلى نفسه، والتبديلَ إلى الله تعالى. والأشدُّ كمال الخَلْق والعقل. وقد مضى الكلام فيه في «الأنعام»[١]، والحمد لله.

الثالثة: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قومٌ من زنادقة الباطنيَّة إلى سلوك طريق يلزم منه هدُّ[٢] الأحكام الشرعيَّة، فقالوا: هذه الأحكام الشرعيَّة العامة إنَّما يُحكم بها على الأغبياء[٣] والعامَّة، وأمَّا الأولياء وأهلُ الخصوص فلا يَحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنَّما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرِهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم، عن الأكدار، وخلوِّها عن الأغيار، فتتجلَّى لهم العلوم الإلهيَّة، والحقائق الربانيَّة، فيقفون على أسرار الكائنات، ويَعلمون أحكام الجزئيَّات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليَّات، كما اتفق للخضر؛ فإنَّه استغنى بما تجلَّى له من العلوم، عمَّا كان عند موسى من تلك الفُهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفتِ قلبَك وإن أفتاكَ المُفْتون[٤]. قال شيخنا ﷺ: وهذا القول زندقةٌ وكُفْر، يُقتَل قائلُه ولا يستتاب؛ لأنَّه إنكار ما عُلم من الشرائع، فإنَّ اللهَ تعالى قد أجرى سنَّته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تُعلَم إلا بواسطة رُسُله السفراء بينه وبين خَلْقه، وهم المبلِّغون عنه رسالته وكلامه، المبيِّنون شرائعَه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصَّهم بما هنالك، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ

---

(١) ٩/ ١١١ وما بعدها.

(٢) في النسخ: هذه، والمثبت من المفهم ٦/ ٢١٨، الكلام منه.

(٣) في (ظ) والمفهم: الأغنياء، وفي (م): الأنبياء. والمثبت من (ز) و(د).

(٤) سلف ٨/ ٤٥٨.

﴿ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] إلى غيرِ ذلك من الآيات.

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعيُّ، واليقين الضروريُّ، واجتماع السلف والخَلَف على أن لا طريقَ لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرَف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إنَّ هناك طريقاً آخرَ يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يُستغنى عن الرسل، فهو كافر، يُقتَل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جوابٍ، ثم هو قول بإثباتِ أنبياء بعد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، الذي قد جعله اللهُ خاتمَ أنبيائه ورسله، فلا نبيَّ بعدَه ولا رسولَ. وبيان ذلك أنَّ من قال: يأخذ عن قلبه، وأنَّ ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنَّه يعمل بمقتضاه، وأنَّه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سُنَّة، فقد أثبت لنفسِه خاصَّة النبوَّة، فإنَّ هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ روح القدس نَفثَ في رُوْعي» الحديث[1].

الرابعة: ذهب الجمهور من الناس إلى أنَّ الخضرَ مات ﷺ. وقالت فرقة: حيٌّ؛ لأنَّه شرب من عين الحياة، وأنه باقٍ في الأرض، وأنَّه يحجُّ البيت. قال ابن عطيَّة[2]: وقد أَطنب النقَّاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن عليٍّ بن أبي طالب

---

(١) المفهم ٦/ ٢١٩ ، والحديث أخرجه الشافعي في مسنده (١/ ١٣ - ١٤ بدائع المنن)، والبغوي في شرح السنة (٤١١٠)، من حديث المطلب بن حنطب مرفوعاً مرسلاً، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٢٧ ، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والعسكري في تصحيفات المحدثين ١/ ٢٠٩ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤ ، والبغوي في شرح السنة (٤١١١) و(٤١١٢) و(٤١١٣) من طرق، عن ابن مسعود مرفوعاً وبعضه منقطع، والآخر مرسل. وأخرجه أيضاً البزار في مسنده (٢٩١٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٧١ : رواه البزار وفيه: قدامة بن زائدة بن قدامة ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات.

وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٦ - ٢٧ من حديث أبي أمامة مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١١٦ : وفيه عفير بن معدان، وهو ضعيف.

وله شاهد من حديث أبي الزبير عن جابر عند الحاكم ٢/ ٤ وقال: صحيح على شرط مسلم.

قال العسكري في تصحيفات المحدثين ١/ ٢١٠ : النفث بالفم شبيه بالنفخ، ومعنى رُوعي: في خَلَدي ونفسي.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ ، وما قبله منه.

وغيره، وكلُّها لا تقوم على ساقٍ. ولو كان الخضرُ عليه السلام حيًّا يحجُّ لكان له في ملَّة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربَّ غيره. ومما يقضي بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة والسلام: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنَّه لا يَبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ»[١].

قلت: إلى هذا ذهب البخاريُّ، واختاره القاضي أبو بكر بن العربي[٢]، والصحيح القول الثاني، وهو أنَّه حيٌّ على ما نذكره. والحديث خرَّجه مسلم في «صحيحه»[٣] عن عبد الله بن عمر قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذاتَ ليلة صلاةَ العشاء في آخر حياته، فلما سلَّم قام فقال: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنَّ على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ» قال ابن عمر: فَوَهَل[٤] الناسُ في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدَّثون من هذه الأحاديث عن مئة سنة، وإنَّما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ» يريد بذلك أن يَنْخرِم ذلك القَرْن.

ورواه أيضاً من حديث جابر بنِ عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموتَ بشهر: «تسألوني عن الساعة وإنَّما عِلْمها عند الله وأُقسم بالله، ما على الأرض من نفس مَنْفُوسة تأتي عليها مئة سنة» وفي أخرى: قال سالم: تذاكرنا أنَّها هي مخلوقة يومئذ. وفي أخرى: «ما من نفسٍ منفوسة اليوم يأتي عليها مئة سنة وهي حيَّة يومئذ». وفسَّرها عبد الرحمن صاحبُ السقاية قال: نقص العمر[٥].

وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث[٦].

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) التعريف والإعلام ص١٠٤ .

(٣) برقم (٢٥٣٧)، وهو عند البخاري (١١٦)، وأحمد (٥٦١٧).

(٤) وَهَل: غلط، ووهَلت إليه وَهَلاً: إذا ذهب وهمك إليه وأنت تريد غيره. المفهم ٦/ ٤٩١ .

(٥) صحيح مسلم الأُولى برقم (٢٥٣٨): (٢١٨)، والثانية برقم (٢٥٣٨): (٢٢٠)، والثالثة برقم (٢٥٣٨): (٠٠)، وكلام عبد الرحمن صاحب السقاية إثر هذه الرواية.

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٣٩).

قال علماؤنا: وحاصل ما تضمَّنه هذا الحديثُ أنَّه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أنَّ كلَّ من كان من بني آدم موجوداً في ذلك الوقت لا يزيد عمرُه على مئة سنة لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من نفس مَنْفوسة» وهذا اللفظ لا يتناول الملائكةَ ولا الجنَّ؛ إذ لم يصحَّ عنهم أنَّهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل؛ لقوله: «ممَّن هو على ظهر الأرض أحدٌ» وهذا إنَّما يقال بأصل وَضْعه على من يعقل، فتعيَّن أنَّ المرادَ بنو آدم. وقد بيَّن ابنُ عمر هذا المعنى، فقال: يريد بذلك أن يَنْخرم ذلك القَرْن. ولا حجَّة لمن استدل به على بطلانِ قول من يقول: إنَّ الخضر حيٌّ؛ لعموم قوله: «ما من نفس منفوسة» لأنَّ العمومَ وإن كان مؤكَّد الاستغراق، فليس نَصًّا فيه، بل هو قابلٌ للتخصيص، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فإنَّه لم يمت ولم يقتل، فهو حيٌّ بنصِّ القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجَّالَ مع أنَّه حيٌّ؛ بدليل حديث الجَسّاسة، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهداً للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبةِ بعضهم بعضاً، فمثل هذا العموم لا يتناوله[1].

وقد قيل: إنَّ أصحابَ الكهف أحياءٌ ويحجُّون مع عيسى عليه الصلاة والسلام، كما تقدَّم. وكذلك فتى موسى في قول ابنِ عباس كما ذكرنا. وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي في كتاب «العرائس»[2] له: والصحيح أنَّ الخضر نبيٌّ مُعمَّر محجوب عن الأبصار، وروى محمد بن المتوكل، عن ضمرة[3]، عن عبد الله بن سوَّار قال: الخضر عليه السلام من وَلَدِ فارس، وإلياس من بني إسرائيل، يلتقيان كلَّ عام في الموسم. وعن عمرو بن دينار قال: إنَّ الخضر وإلياس لا يزالان حيَّين في الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رُفع، ماتا.

---

(١) المفهم ٦/ ٤٩٠، وحديث الجساسة أخرجه مسلم (٢٩٤٢) من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

(٢) ص٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) ليست في (د).

وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللَّخمي في «شرح الرسالة» له للقشيري حكاياتٍ كثيرةً عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنَّهم رأوا الخضر عليه السلام ولَقوه، يفيد مجموعها غايةَ الظَّنِّ بحياته مع ما ذكره النقَّاش والثعلبيُّ وغيرهما.

وقد جاء في «صحيح مسلم»[١]: «أنَّ الدجَّالَ ينتهي إلى بعض السِّباخ التي تلي المدينةَ، فيخرج إليه يومئذٍ رجلٌ هو خير الناس، أو: من خير الناس» الحديث، وفي آخره قال أبو إسحاق: يعني أنَّ هذا الرجلَ هو الخضرُ.

وذكر ابنُ أبي الدنيا في كتاب «الهواتف»[٢] بسند يوقفه إلى عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ أنَّه لَقِيَ الخضرَ وعلَّمه هذا الدعاء، وذكر أنَّ فيه ثواباً عظيماً ومغفرةً ورحمة لمن قاله في إثر كل صلاة، وهو: يا من لا يَشغله سمعٌ عن سمع، ويا من لا تَغلطه المسائل، ويا من لا يتبرَّم من إلحاح الملحِّين، أذقني بَرْد عفوك، وحلاوةَ مغفرتك.

وذكَر أيضاً عن عمر بن الخطاب ﷺ في هذا الدعاء بعينه نحواً مما ذكر عن عليٍّ ابنِ أبي طالب ﷺ في سماعِه من الخضر[٣]. وذكَر أيضاً اجتماعَ إلياس مع النبيِّ عليه الصلاة والسلام[٤]. وإذا جاز بقاءُ إلياس إلى عهد النبيِّ ﷺ جاز بقاءُ الخضر، وقد ذكَر أنَّهما يجتمعان عند البيت في كلِّ حول، وأنَّهما يقولان عند افتراقهما: ما شاء الله ما شاء الله، لا يَصرِف السوءَ إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمةٍ فمن الله، ما شاء الله ما شاء الله، توكَّلت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل[٥]. وأما خبر

---

(١) برقم (٢٩٣٨).

(٢) ص٥٢ ، وفي إسناده صالح بن أبي الأسود، قال عنه الذهبي: واهٍ.

(٣) الهواتف ص٥٧ .

(٤) الهواتف ص٧٨ - ٧٩ ، وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٧ ، قال الذهبي في التلخيص: موضوع، قبَّح الله من وضعه. وسيأتي مطولاً في الصافات (١٢٣).

(٥) من قوله: وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الهواتف... إلى هنا نقله من التعريف والإعلام ص١٠٧ .

إلياس فيأتي في «والصافات»[١] إن شاء الله تعالى. وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد»[٢] عن عليٍّ ﷺ قال: لما توفي النبيُّ ﷺ وسُجِّي بثوب، هتف هاتفٌ من ناحية البيت يسمعون صوتَه ولا يرونَ شخصه: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته، السلامُ عليكم أهلَ البيت، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٥]، إنَّ في الله خَلَفاً من كلِّ هالك، وعِوضاً من كلِّ تالف، وعَزاء من كلِّ مصيبة، فبالله فثقوا، وإيَّاه فارجوا، فإنَّ المصابَ من حُرِم الثوابَ. فكانوا يرون أنَّه الخضر عليه الصلاة والسلام، يعني: أصحاب النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

والألف واللام في قوله: «على الأرض»[٣] للعهد لا للجنس، وهي أرض العرب، بدليل تصرُّفهم فيها وإليها غالباً، دون أرض يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزر الهند والسند مما لا يقرع السمعَ اسمُه، ولا يُعلَم علمه. ولا جواب عن الدجَّال.

قال السهيليُّ[٤]: واختلف في اسم الخضر اختلافاً متبايناً، فعن ابنِ منبِّه أنَّه قال: إيليا بن مَلْكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: هو ابن عاميل بن سمالجين بن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحاق، وأنَّ أباه كان مَلِكاً، وأنَّ أُمَّه كانت بنت فارس واسمها ألها، وأنَّها ولدته في مغارة، وأنَّه وجد هنالك وشاة ترضعه في كلِّ يوم من غنم رجل من القرية، فأخذه الرجل فربَّاه، فلما شَبَّ وطلب الملِكُ ـ أبوه ـ كاتباً وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصُّحف التي أُنزلت على إبراهيم وشيث، كان ممَّن أَقدم عليه من الكتَّاب ابنُه الخضرُ وهو لا يعرفه، فلما استحسن خطَّه ومعرفته، وبحث عن جليَّة أمره، عرف أنَّه ابنُه، فضمَّه لنفسه، وولَّاه أمر الناس، ثم إنَّ الخضرَ فرَّ من الملك لأسباب يَطول ذكرها إلى أن وجد عينَ الحياة فشرب منها،

---

(١) عند الآية (١٢٣).

(٢) ٢/ ١٦٢ ، والمؤلف نقله عن ابن عبد البر بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) في قوله ﷺ: «أريتكم ليلتكم هذه...» الحديث المتقدم قريباً، والكلام من المفهم ٦/ ٤٩٠ .

(٤) في التعريف والإعلام ص١٠٣ - ١٠٤ ، وفيه: عمائيل، بدل: عاميل.

فهو حيٌّ إلى أن يَخرج الدجَّالُ، وأنَّه الرجلُ الذي يقتله الدجَّالُ ويقطعه، ثم يحييه اللهُ تعالى. وقيل: لم يدرك زمنَ النبيِّ ﷺ، وهذا لا يصحُّ. وقال البخاريُّ وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بنُ العربي رحمه الله تعالى: إنَّه مات قبل انقضاءِ المئة، من قوله عليه الصلاة والسلام: «إلى رأس مئة عام لا يَبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحدٌ»[1] يعني: من كان حيًّا حين قال هذه المقالة. قلت: قد ذكرنا هذا الحديثَ والكلامَ عليه، وبيَّنا حياةَ الخضر إلى الآن، والله أعلم.

الخامسة: قيل: إنَّ الخضرَ لما ذهب يفارق موسى قال له موسى: أوصني. قال: كن بَسَّاماً ولا تكن ضَحَّاكاً، ودعِ اللَّجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تَعِبْ على الخطَّائين خطاياهم، وابْكِ على خطيئتك يا ابنَ عمران[2].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ قال ابن إسحاق[3]: وكان من خبر ذي القرنين أنَّه أُوتيَ ما لم يؤتَ غيرُه، فمدَّت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارقِ الأرض ومغاربها، لا يطأ أرضاً إلا سُلِّط على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخَلْق. قال ابن

(١) سلف تخريجه قريباً.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٠، والتعريف والإعلام ص١٠٦.

(٣) السيرة النبوية ١/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

إسحاق: حدَّثني من يسوق الأحاديثَ عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين أنَّ ذا القرنين كان من أهل مصر، اسمه مَرْزبان بنُ مَرْدبة اليونانيُّ من ولد يونان بنِ يافث بنِ نوح[١].

قال ابنُ هشام: واسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندريَّة فنُسبت إليه. قال ابن إسحاق: وقد حدَّثني ثورُ بنُ يزيد، عن خالد بن مَعْدان الكَلَاعيِّ ـ وكان خالدٌ رجلاً قد أدرك الناس ـ أنَّ رسول الله ﷺ سُئلَ عن ذي القرنين فقال: «مَلِكٌ مسح الأرضَ من تحتها بالأسباب». وقال خالد: وسمع عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهمَّ غَفْراً، أما رضيتم أن تُسمُّوا بأسماء الأنبياء حتى تسمَّيتم بأسماء الملائكة؟![٢] قال ابنُ إسحاق: فالله أعلم أي ذلك كان؟ أقال رسولُ الله ﷺ ذلك أم لا؟ والحقُّ ما قال.

قلت: وقد روي عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ مثلَ عمر، سمع رجلاً يدعو آخَرَ: يا ذا القرنين، فقال عليٌّ: أما كفاكم أن تسمَّيتم بأسماءِ الأنبياء حتى تسمَّيتم بأسماء الملائكة؟! وعنه: أنه عَبْد ملِك ـ بكسر اللام ـ صالح، نصح اللهَ فأيَّدَه[٣]. وقيل: هو نبيٌّ مبعوثٌ فتح الله تعالى على يدَيْه الأرض. وذكر الدارقطنيُّ في كتاب «الأخبار» أن مَلَكاً يقال له: رباقيل كان ينزل على ذي القرنين، وذلك المَلَك هو الذي يطوي الأرضَ يوم القيامة وينقضها، فتقع أقدامُ الخلائقِ كلِّهم بالساهرة، فيما ذكر بعضُ أهل العلم.

وقال السهيليُّ: وهذا مشاكل بتوكيله بذي القرنين الذي قطَع الأرضَ مشارقَها ومغاربَها، كما أنَّ قصةَ خالد بنِ سنان في تسخير النار له مشاكلة بحال الملَك الموكَّل بها، وهو مالِكٌ عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٩ - ٣٩٠، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٥)، وفيهما أن اسمه: مرزبا بن مردبه.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٩٠، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٥) و(٩٨٦).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨.

ذكر ابنُ أبي خَيْثَمة في كتاب «البدء» له خالدَ بنَ سِنان العبسيَّ، وذكر نبوَّته، وذكر أنَّه وُكِّلَ به من الملائكة مالكٌ خازن النار، وكان من أعلام نبوَّته أنَّ ناراً يقال لها: نار الحدثان، كانت تخرج على الناس من مغارةٍ فتأكلُ الناسَ ولا يستطيعون ردَّها، فردَّها خالدُ بن سنان فلم تَخرُج بعد[١].

واختلف في اسم ذي القرنين، وفي السبب الذي سُمِّيَ به بذلك اختلافاً كثيراً:

فأمَّا اسمه فقيل: هو الإسكندر الملِك اليوناني المقدوني، وقد تُشدَّد قافُه فيقال: المقّدوني[٢]. وقيل: اسمه هرمس. ويقال: اسمه هرديس. وقال ابن هشام: هو الصعب بنُ ذي يزن الحِميريُّ من ولد وائل بنِ حمير[٣]، وقد تقدَّم قولُ ابنِ إسحاق. وقال وهب بن منبِّه: هو روميٌّ. وذكر الطبريُّ حديثاً عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام أنَّ ذا القرنين شابٌّ من الروم. وهو حديثٌ واهي السَّند، قاله ابن عطيَّة[٤]. قال السُّهيليُّ[٥]: والظاهر من عِلْم الأخبار أنَّهما اثنان: أحدهما: كان على عهد إبراهيمَ عليه السلام، ويقال: إنَّه الذي قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه في بئر السبع بالشام. والآخر: أنَّه كان قريباً من عهد عيسى عليه السلام. وقيل: إنَّه أفريدون الذي قتل بيوراسب بن أرواناسب الملك الطاغي على عهد إبراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان.

وأما الاختلاف في السبب الذي سمي به، فقيل: إنه كان ذا ضفيرتين من شَعَر فسمِّي بهما، ذكره الثعلبيُّ وغيره[٦]. والضفائر: قرون الرأس، ومنه قول الشاعر[٧]:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/ ٢٩٨ (١١٧٩٣)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٩-٦٠٠ عن ابن عباس، قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ .

(٣) التعريف والإعلام ص١٠٨ ، وفيه: من ولد وائل بن حمير.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ ، والخبر عند الطبري ١٥/ ٣٩٠ .

(٥) في التعريف والإعلام ص١٠٨ ، وجاء فيه: بيوراسف بن أندراسف.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ ، وعرائس المجالس ص٣٦٢ .

(٧) القائل عمر بن أبي ربيعة، والبيت في ديوانه ص٤٣ .

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الحَشْرَجِ

وقيل: إنَّه رأى في أوَّل ملْكه كأنَّه قابضٌ على قرني الشمس، فقصَّ ذلك، ففسِّر أنَّه سيغلِب ما ذرت عليه الشمسُ، فسمِّي بذلك ذا القرنين. وقيل: إنَّما سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه بلغ المغربَ والمشرقَ، فكأنَّه حاز قرني الدنيا. وقالت طائفة: إنَّه لما بلغ مطلعَ الشمس كشف بالرؤية قرونَها، فسمِّي بذلك ذا القرنين، أو قرني الشيطان بها. وقال وهب بن منبِّه: كان له قرنان تحت عمامته[١].

وسأل ابنُ الكَوَّاء علياً ﷺ عن ذي القرنين أنبيًّا كان أم ملِكاً؟ فقال: لاذا ولاذا، كان عبداً صالحاً، دعا قومه إلى الله تعالى، فشجُّوه على قرنه، ثم دعاهم، فشجُّوه على قرنه الآخرَ، فسمِّي ذا القرنين[٢].

واختلفوا أيضاً في وقت زمانه، فقال قوم: كان بعد موسى. وقال قوم: كان في الفَتْرة بعد عيسى. وقيل: كان في وقتِ إبراهيم وإسماعيل، وكان الخضر عليه السلام صاحبَ لوائه الأعظم، وقد ذكرناه في «البقرة»[٣]. وبالجملة فإنَّ اللهَ تعالى مكَّنه وملَّكه ودانت له الملوك، فرُوي أنَّ جميعَ ملوك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود وإسكندر، والكافران: نمروذ وبختنصر[٤]، وسيملكها من هذه الأمة خامسٌ؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وهو المهديُّ. وقد قيل: إنَّما سُمِّيَ ذا القرنين؛ لأنَّه كان كريمَ الطرفين من أهل بيت شريف من قِبَل أبيه وأمِّه. وقيل: لأنَّه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حيٌّ. وقيل: لأنَّه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً. وقيل: لأنَّه أُعطيَ عِلْم الظاهر والباطن. وقيل: لأنَّه دخل الظلمة والنور. وقيل: لأنَّه مَلك فارس والروم[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٧٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٠) بنحوه.

(٣) ٤/ ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ ، وذكر الخبر أبو الليث في التفسير ٢/ ٣١٠ ونسبه إلى مجاهد.

(٥) عرائس المجالس ص٣٦٢ -٣٦٣ ، وزاد المسير ٥/ ١٨٣ - ١٨٤ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال عليٌّ ﷺ: سخِّر له السحاب، ومُدَّت له الأسباب، وبُسط له في النور، فكان الليلُ والنهارُ عليه سواء[١]. و في حديث عقبة بنِ عامر أنَّ النبيَّ ﷺ قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذي القرنين فقال: «إنَّ أوَّلَ أمره كان غلاماً من الروم فأُعطي ملكاً، فسار حتى أتى أرضَ مصر فابتنى بها مدينة يقال لها: الإسكندرية، فلما فرغ أتاه مَلَك فعرج به فقال له: انظر ما تحتك؟ قال: أرى مدينتي وحدها لا أرى غيرَها. فقال له الملَك: تلك الأرض كلُّها وهذا السواد الذي تراه محيطاً بها هو البحر، وإنَّما أراد اللهُ تعالى أن يُريَك الأرضَ، وقد جعل لك سلطاناً فيها، فَسِرْ في الأرض فعلِّم الجاهلَ وثبِّت العالم» الحديث[٢].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عباس: من كلِّ شيء علماً يتسبَّب به إلى ما يريد. وقال الحسن: بلاغاً إلى حيث أراد[٣]. وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخَلْق. وقيل: من كلِّ شيء يستعين به الملوك، من فَتْح المدائن وقهر الأعداء[٤]. وأصل السبب: الحبل، فاستعير لكلِّ ما يتوصَّل به إلى شيء[٥].

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «فَأَتْبَعَ سَبَباً» مقطوعة الألف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: «فَاتَّبَعَ سَبَباً» بوَصْلها[٦]، أي: اتَّبع سبباً من الأسباب التي أوتيها. قال الأخفش: تَبعته وأَتبعته بمعنى، مثل ردِفته وأَردفته[٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] ومنه الإتباع في

---

(١) الوسيط ٣/ ١٦٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٧٨ ، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٦٩).

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٦٨ - ٣٦٩ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٦)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٨ ، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٥/ ٣٧١ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٣٨ .

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٦٥ .

(٦) السبعة ص٣٩٧ - ٣٩٨ ، والتيسير ص١٤٥ .

(٧) الصحاح (تبع).

الكلام، مثل حَسَنٌ بَسَنٌ، وقَبِيح شَقِيح. قال النحَّاس[١]: واختار أبو عبيد قراءةَ أهلِ الكوفة قال: لأنَّها من السَّيْر، وحكى هو والأَصْمَعيُّ أنَّه يقال: تَبِعه واتَّبعه، إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه، قال أبو عبيد: ومثله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]. قال النحَّاس[٢]: وهذا التفريق وإن كان الأصمعي قد حكاه، لا يُقبَل إلا بعلَّة أو دليل. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ ليس في الحديث أنَّهم لحقوهم، وإنَّما الحديث: لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر، وحصَّل فرعونَ وأصحابَه، انطبق عليهم البحرُ. والحقُّ في هذا أن تبعَ واتَّبع وأَتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السَّيْر، فقد يجوز أن يكون معه لَحَاق، وألَّا يكون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «حامِيةٍ» أي: حارَّة. الباقون: ﴿حَمِئَةٍ﴾ أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء[٣]، تقول: حَمَأْتُ البئرَ حَمْأً ـ بالتسكين ـ إذا نزعت حَمْأَتها. وحَمِئت البئرُ حَمَأً ـ بالتحريك ـ كثرت حَمْأَتها. ويجوز أن تكون: «حامِيةٍ» من الحمأة، فخفِّفت الهمزة وقُلبت ياء. وقد يُجمَع بين القراءتين فيقال: كانت حارَّة وذات حَمْأة[٤]. وقال عبد الله بنُ عمرو: نظر النبيُّ ﷺ إلى الشمس حيث غَربت، فقال: «نارُ اللهِ الحاميةُ، لولا ما يَزَعُها من أَمْرِ الله لأَحرقت ما على الأرض»[٥]. وقال ابن عباس: أَقْرَأَنِيْها أُبَيٌّ كما أَقرأَه رسولُ الله ﷺ: «في عين حَمِئَة»[٦]، وقال معاوية: هي «حامية»، فقال عبد الله بنُ عمرو بنِ العاص: فأنا مع أمير المؤمنين، فجعلوا كعباً بينهم حَكَماً

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ .

(٣) السبعة ص٣٩٨ ، والتيسير ص١٤٥ ، وحجة القراءات ٥/ ١٦٩ - ١٧٠ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٨ .

(٥) أخرجه أحمد (٦٩٣٤)، والطبري ١٥/ ٣٧٨ ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٣١ : رواه أحمد، وفيه راوٍ لم يسمَّ، وبقية رجاله ثقات.

(٦) أخرجه أبو داود (٣٩٨٦)، والترمذي (٢٩٣٤)، والطبري ١٥/ ٣٧٨ .

وقالوا: يا كعبُ كيف تَجِدُ هذا في التوراة؟ فقال: أَجدها: تغرب في عين سوداء، فوافق ابنَ عباس[١]. وقال الشاعر وهو تُبَّع اليمانيُّ:

قد كان ذو القرنين قبلي مُسْلِماً ... مَلِكاً تدينُ له الملوك وتَسْجُدُ

بَلَغَ المغاربَ والمشارقَ يَبتغِي ... أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرْشِدِ

فرأى مغِيبَ الشَّمسِ عند غروبِها ... في عين ذِي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حِرْمَدِ

الخُلُب: الطين. والثأط: الحمأة. والحِرْمِد: الأسود[٢].

وقال القفَّال: قال بعض العلماء: ليس المراد أنَّه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل إلى جِرْمها ومسَّها؛ لأنَّها تدور مع السماء حولَ الأرض من غير أن تلتصقَ بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عينٍ من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفةً، بل المراد أنَّه انتهى إلى آخِر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها في رأي العين تغرب في عينٍ حمئة، كما أنَّا نشاهدها في الأرض الملساء كأنَّها تدخل في الأرض، ولهذا قال: «وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَّهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً» ولم يُرد أنَّها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنَّهم أولُ من تطلع عليهم.

وقال القتبيُّ: ويجوز أن تكون هذه العينُ من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءَها أو معها أو عندها، فيقام حرفُ الصفة مقامَ صاحبه، والله أعلم.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً﴾ أي: عند العين، أو عند نهاية العين، وهم أهل جَابَرْس، ويقال لها بالسريانية: جرجيسا، يسكنها قومٌ من نسلِ ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح، ذكره السُّهيليُّ[٣].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤١١، والطبري ١٥/ ٣٧٥، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٦٤ - ١٦٥، والثعلبي في عرائس المجالس ص٣٦٦.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٠، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٧، وعرائس المجالس ص٣٦٦.

(٣) في التعريف والإعلام ص١٠٨.

وقال وهب بن منبِّه: كان ذو القرنين رجلاً من الروم، ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندر، فلما بلغ وكان عبداً صالحاً قال الله تعالى: يا ذا القرنين! إنِّي باعثك إلى أمم الأرض وهم أُمم مختلفةٌ ألسنتهم، وهم أُمم جميع الأرض، وهم أصناف: أُمَّتان بينهما طول الأرض كله، وأُمَّتان بينهما عَرْض الأرض كلّه، وأُمم في وسط الأرض منهم الجنُّ والإنسُ ويأجوج ومأجوج، فأمَّا اللتان بينهما طولُ الأرض فأمَّة عند مغرب الشمس يقال لها: ناسك، وأمَّا الأُخرى فعند مطلعها ويقال لها: منسك. وأمَّا اللتان بينهما عَرْض الأرض، فأمَّة في قطر الأرض الأيمن يقال لها: هاويل، وأمَّا الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها: تاويل. فقال ذو القرنين: إلهي! قد ندبتني لأمرٍ عظيم لا يَقدر قَدْره إلا أنت، فأخبرني عن هذه الأُمم بأي قوَّة أُكاثرهم؟ وبأي صبر أُقاسيهم؟ وبأي لسان أُناطقهم؟ فكيف لي بأن أفقه لغتهم وليس عندي قوَّة؟ فقال الله تعالى: سأظفرك[1] بما حملتك، أَشرحُ لك صدرَك فتسمع كلَّ شيء، وأثبت لك فهمَك فتفقه كلَّ شيء، وأُلبسك الهيبةَ فلا يروعك شيء، وأُسخِّر لك النور والظلمة فيكونان جنداً من جنودك، يهديك النورُ من أمامك، وتحفظك الظلمةُ من ورائك.

فلما قيل له ذلك، سار بمن اتَّبعه، فانطلق إلى الأمَّة التي عند مغرب الشمس؛ لأنَّها كانت أقربَ الأمم منه وهي ناسك، فوجد جموعاً لا يحصيها إلا الله تعالى، وقوَّة وبأساً لا يطيقه إلا الله، وألسنة مختلفة، وأهواءً مُتشتِّتة، فكاثرهم بالظُّلمة، فضرب حولهم ثلاثَ عساكر من جند الظلمة قَدْر ما أَحاط بهم من كلِّ مكان، حتى جمعتهم في مكان واحد، ثم دخل عليه بالنور، فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر وصدَّ عنه، فأدخل على الذين تَولَّوا الظلمةَ، فغشيتهم من كلِّ مكان، فدخلت إلى أفواههم وأنوفِهم وأعينهم وبيوتهم وغشيتهم من كلِّ مكان، فتحيَّروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا، فعجُّوا[2] إلى الله تعالى بصوت

(١) في عرائس المجالس ص٣٦٥ : سأطوقك. والكلام منه.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٦٦ : ضجوا. والكلام منه.

واحد: إنَّا آمنا، فكشفها عنهم، وأخذهم عنوةً، ودخلوا في دعوته، فجنَّد من أهل المغرب أمماً عظيمة، فجعلهم جنداً واحداً، ثم انطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتحرسه مِن خلفه، والنور أمامَهم يقودُه ويدلُّه، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمَّةَ التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاويل، وسخَّر الله تعالى يدَه وقلبه وعقله ونظره فلا يُخطئ إذا عمل عملاً، فإذا أتوا مخاضة أو بحراً، بنى سفناً من ألواح صغار مثل النعال، فنظمها في ساعة، ثم جعل فيها جميعَ من معه من تلك الأُمم، فإذا قطعَ البحار والأنهار، فتَقَها ودفع إلى كلِّ رجل لوحاً، فلا يكترث بحمله، فانتهى إلى هاويل وفَعل بهم كفعله بناسك فآمنوا، ففرغ منهم، وأخذ جيوشَهم وانطلق إلى ناحية الأرض الأُخرى حتى انتهى إلى منسك عند مَطْلع الشمس، فعمل فيها وجنَّد منها جنوداً كفعله في الأُولى، ثم كَرَّ مقبلاً حتى أخذ ناحيةَ الأرض اليسرى يريد تاويل، وهي الأمَّة التي تقابل هاويل بينهما عَرْض الأرض، ففعل فيها كفعله فيما قبلها.

ثم عطَف إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجنِّ والإنس ويأجوج ومأجوج، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع التُّرك من المشرق، قالت له أمَّة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين! إنَّ بين هذين الجبلين خَلْقاً من خَلْق الله تعالى كثيراً ليس لهم عدد، وليس فيهم مشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العشبَ، ويفترسون الدوابَّ والوحش كما تفترسها السباع، ويأكلون حشراتِ الأرض كلها من الحيَّات والعقارب والوزغ وكلِّ ذي روح مما خَلَق الله تعالى في الأرض، وليس لله تعالى خَلْق ينمو نماءَهم في العام الواحد، فإن طالت المدَّة فسيملؤون الأرضَ، ويُجلون أهلها، فهل نجعل لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً؟ وذكر الحديث[1]، وسيأتي من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوعٌ منهم ما فيه كفاية.

---

(١) عرائس المجالس ص٣٦٤ - ٣٦٨ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٩٠ - ٣٩٨ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قال القشيريُّ أبو نصر: إن كان نبيًّا فهو وحيٌّ، وإن لم يكن نبيًّا فهو إلهام من الله تعالى.

﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ قال إبراهيم بن السريّ[1]: خَيَّره بين هذين، كما خَيَّر محمَّداً ﷺ فقال: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] ونحوه.

وقال أبو إسحاق الزجَّاج: المعنى أنَّ اللهَ تعالى خيَّره بين هذين الحكمين.

قال النحَّاس[2]: وردَّ عليُّ بنُ سليمان عليه قولَه؛ لأنَّه لم يصحَّ أنَّ ذا القرنين نبيٌّ فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربِّه عزَّ وجلَّ: «ثم يُردُّ إلى ربِّه»؟ وكيف يقول: «فسوف نعذِّبه» فيخاطب بالنون؟ قال: التقدير: قلنا يا محمَّد، قالوا: يا ذا القرنين. قال أبو جعفر النحَّاس: هذا الذي قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيءٌ. أمَّا قوله: «قلنا يا ذا القرنين» فيجوز أن يكون الله عزَّ وجلَّ خاطبه على لسان نبيٍّ في وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيِّه: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وأمَّا إشكال: «فسوف نعذِّبه ثم يردُّ إلى ربِّهِ» فإنَّ تقديرَه أنَّ الله تعالى لما خَيَّره بين القَتْل في قوله: «إمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» وبين الاستبقاء في قوله جلَّ وعزَّ: «وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً» قال لأولئك القوم: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: أقام على الكُفْر منكم: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي: بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديداً في جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: تاب من الكفر ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال أحمد بن يحيى: «أن» في موضع نصب في «إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً» قال: ولو رُفعت كان صواباً، بمعنى: فإمَّا هو، كما قال:

فسِيْرا فإمَّا حاجةٌ تقضيانها وإما مقيلٌ صالحٌ وصديقُ[3]

---

(١) وهو أبو إسحاق الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٣٠٩، وما بعده منه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ - ٤٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٨، وتفسير الطبري ١٦/ ١٠٩، والتدوين في أخبار قزوين ٢/ ٤١٦.

﴿فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم: «فَلَهُ جَزاءُ الْحُسْنَى» بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار. و«الحسنى» في موضع خفض بالإضافة، ويحذف التنوين للإضافة[١]، أي: له جزاء الحسنى عند الله تعالى في الآخرة وفي الجنة، فأضاف الجزاءَ إلى الجنَّة، كقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، قاله الفرَّاء[٢]. ويحتمل أن يريد: بـ«الحسنى» الأعمال الصالحة. ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين، أي: أُعطيه وأتفضَّل عليه.

ويجوز أن يحذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين، ويكون «الحسنى» في موضع رفع على البدل عند البصريين، وعلى الترجمة عند الكوفيين، وعلى هذا قراءة ابنِ أبي إسحاق: «فَلَهُ جَزاءُ الْحُسْنَى» إلا أنَّك لم تحذف التنوين، وهو أجود. وقرأ سائر الكوفيين: «فَلَهُ جَزاءَ الْحُسْنَى» منصوباً منوَّناً، أي: فله الحسنى جزاءً. قال الفرَّاء: «جزاءً» منصوب على التمييز. وقيل: على المصدر، وقال الزجَّاج: هو مصدر في موضع الحال، أي: مجزياً بها جزاء[٣].

وقرأ ابنُ عباس ومسروق: «فَلَهُ جَزاءَ الْحُسْنَى» منصوباً غيرَ منوَّن. وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين، مثل «فَلَهُ جَزاءُ الْحُسْنَى» في أحد الوجهين. النحَّاس[٤]: وهذا عند غيره خطأ؛ لأنه ليس موضعَ حذف تنوين؛ لالتقاء الساكنين، ويكون تقديره: فله الثواب جزاءَ الحسنى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ تقدَّم معناه أنَّ أتبع واتَّبع بمعنًى، أي: سلك طريقاً ومنازل. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن: بفتح الميم

---

(١) السبعة ص٣٩٨، والتيسير ص١٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٥٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١، وكلام الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٥٩، وكلام الزجَّاج في معاني القرآن ٣/ ٣٠٩.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧١ - ٤٧٢، وما قبله منه.

واللام[١]، يقال: طَلَعت الشمسُ والكواكب طُلوعاً ومَطْلَعاً. والمطلَع والمطلِع أيضاً: موضع طلوعها، قاله الجوهريُّ[٢]. المعنى أنَّه انتهى إلى موضعِ قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحدٌ من الناس، والشمس تَطلعُ وراءَ ذلك بمسافة بعيدة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

وقد اختلف فيهم، فعن وهب بن منبِّه ما تقدَّم، وأنَّها أُمَّةٌ يقال لها: منسك، وهي مقابلة ناسك، وقاله مقاتل. وقال قتادة: يقال لها: الزنج[٣]. وقال الكلبيُّ: هم تارس وهاويل ومنسك، حفاة عراة عماة عن الحقِّ[٤]، يتسافدون مثلَ الكلاب، ويتهارجون تهارجَ الحمر.

وقيل: هم أهل جَابَلْق، وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود، ويقال لهم بالسريانية: مرقيسا. والذين عند مغرب الشمس هم أهل جَابَرْس، ولكلٍّ واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب، بين كلِّ بابين فرسخ، ووراء جَابَلْق أُمم، وهم: تافيل وتارس، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج. وأهل جَابَرْس وجَابَلْق آمنوا بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، مرَّ بهم ليلةَ الإسراء، فدعاهم فأجابوه، ودعا الأُمم الآخَرين فلم يجيبوه، ذكره السهيليُّ[٥] وقال: اختصرت هذا كلَّه من حديثٍ طويل رواه مقاتل بنُ حيَّان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ. ورواه الطبريُّ مسنداً إلى مقاتل يرفعه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: حجاباً يَستترون منها عند طلوعها. قال قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، كانوا في مكان لا يستقرُّ عليه بناء، وهم

(١) الكشاف ٢/ ٤٩٨ ، وزاد المسير ٥/ ١٨٧ ، والبحر المحيط ٦/ ١٦١ .

(٢) في الصحاح (طلع).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤١٢ ، والطبري ١٥/ ٣٨٣ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٦٧ ، والوسيط ٣/ ١٦٥ .

(٥) في التعريف والإعلام ص١٠٩ ، والخبر أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٦٥ - ٧٥ .

يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثِهم[١]، يعني: لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنُّهم منها.

وقال أميَّة: وجدتُ رجالاً بسمرقند يحدِّثون الناسَ، فقال بعضهم: خرجتُ حتى جاوزتُ الصينَ، فقيل لي: إنَّ بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرتُ رجلاً يرينيهم حتى صبَّحتهم، فوجدتُ أحدَهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، وكان صاحبي يُحسِن كلامَهم، فبتنا بهم، فقالوا: فيمَ جئتم؟ قلنا: جئنا ننظر كيف تَطلعُ الشمس، فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصَّلصلة، فغشيَ عليَّ، ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي على الماء كهيئة الزيت، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلما ارتفعت أَدخلوني سرباً لهم، فلما ارتفع النهار وزالت الشمس عن رؤوسهم، خرجوا يصطادون السمك، فيطرحونه في الشمس فينضج[٢].

وقال ابنُ جريج: جاءهم جيش مرَّة، فقال لهم أهلُها: لا تطلع الشمس وأنتم بها، فقالوا: ما نبرحُ حتى تَطلُع الشمس. ثم قالوا: ما هذه العظام؟ قالوا: هذه والله عظام جيشٍ طلعت عليهم الشمس هاهنا، فماتوا. قال: فولَّوا هاربين في الأرض[٣].

وقال الحسن: كانت أرضُهم لا جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعَون كما تتراعى البهائم[٤].

قلت: وهذه الأقوال تدلُّ على أن لا مدينة هناك، والله أعلم. وربما يكون منهم من يدخل في النهر، ومنهم من يدخل في السّرب، فلا تناقضَ بين قولِ الحسن وقتادة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٢.

(٢) عرائس المجالس ص٣٦٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٢، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٠).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينيَّة وأَذْرَبِيجان. روى عطاء الخراساني عن ابنِ عباس: «بين السدين»: الجبلين: أرمينيَّة وأَذْرَبِيجان[1]. ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: من ورائهما: ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «يُفْقِهُونَ» بضمِّ الياء، وكسر القاف، من أفقه: إذا أبان، أي: لا يُفقِهون غيرَهم كلاماً. الباقون: بفتح الياء والقاف، أي: يَعلمون[2]. والقراءتان صحيحتان، فلا هم يَفقهون من غيرهم ولا يُفقِهون غيرَهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي: قالت له أُمَّة من الإنس صالحة: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال الأخفش[3]: من همز «يأجوج» فجعل الألِفين من الأصل يقول: يأجوج: يَفْعول، ومأجوج: مَفْعول؛ كأنَّه من أَجيج النار. قال: ومن لا يهمز، ويجعل الألِفين زائدتين يقول: «ياجوج» من يَجَجت، وماجوج من مَجَجت. وهما غير مصروفين، قال رؤبة:

لو أن ياجوجَ وماجوجَ مَعَا ... وَعادَ عادٌ واستجاشوا تُبَّعَا

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٣ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٧ .

(٢) السبعة ص٣٩٩ ، والتيسير ص١٤٥ ، والطبري ١٥/ ٣٨٧ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٢١ .

ذكره الجوهريُّ[١].

وقيل: إنَّما لم ينصرفا؛ لأنَّهما اسمان أعجميَّان، مثل: طالوت وجالوت، غير مشتقين، علَّتاهما في مَنْع الصَّرْف: العُجمة والتعريف والتأنيث. وقالت فرقةٌ: هو معرَّب، من أَجَّ وَأَجَّجَ، علَّتاه في مَنْع الصَّرْف: التعريفُ والتأنيث[٢].

وقال أبو عليٍّ[٣]: يجوز أن يكونا عربيَّين، فمن همز «يأجوج» فهو على وزن يَفْعُول، مثل يَربوع، من قولك: أَجَّت النارُ، أي: ضويت، ومنه: الأَجيج، ومنه: ملح أُجاج، ومن لم يهمز، أمكن أن يكون خفَّف الهمزة، فقلبها ألفاً، مثل راس، وأما «مأجوج» فهو مَفْعول، من أَجَّ، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق، ومن لم يَهمز، فيجوز أن يكون خفَّف الهمزة، ويجوز أن يكون فاعولاً مِن مَجَّ، وترك الصرف فيهما؛ للتأنيث والتعريف، كأنَّه اسم للقبيلة.

واختلف في إفسادهم: سعيد بن عبد العزيز: إفسادُهم أَكْل بني آدم. وقالت فرقة: إفسادهم إنَّما كان متوقَّعاً، أي: سيفسدون، فطلبوا وجه التحرُّز منهم. وقالت فرقة: إفسادهم هو الظُّلْم والغَشْم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر[٤]، والله أعلم.

وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنَّهم ولد يافث. روى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «وُلد لنوح سامٌ وحامٌ ويافثُ، فولد سامٌ العربَ وفارسَ والرومَ، والخير فيهم، وولد يافثٌ يأجوجَ ومأجوجَ والتركَ والصقالبةَ، ولا خيرَ فيهم، وولد حامٌ القبطَ والبربر والسودان»[٥].

---

(١) في الصحاح (أجج)، والبيت في ديوان رؤبة ص٩٢ ، ورواية الشطر الأول هكذا:

والـنـاس أحـلافـاً عـلـيـنـا شـيـعـا

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ .

(٣) في الحجة ٥/ ١٧٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ ، والغَشْم: الظلم والغصب. لسان العرب (غشم).

(٥) أخرجه البزار (٢١٨ كشف الأستار) وقال في إثره: لا نعلم أسنده عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة بهذا =

وقال كعب الأحبار: احتلم آدمُ عليه السلام، فاختلط ماؤه بالتراب، فأَسِفَ، فخلقوا من ذلك الماء، فهم متَّصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأمّ[١]. وهذا فيه نظرٌ؛ لأنَّ الأنبياءَ ـ صلوات الله عليهم ـ لا يحتلمون[٢]، وإنَّما هم من ولد يافث، وكذلك قال مقاتل وغيره[٣].

وروى أبو سعيد الخدريُّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا يموت رجل منهم حتى يُولَد لصلبه ألفُ رجل»[٤]. يعني: يأجوج ومأجوج.

وقال أبو سعيد: هم خمس وعشرون قبيلةً من وراء يأجوج ومأجوج، لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يَخرُج من صلبه ألفُ رجل، ذكره القشيريُّ.

وقال عبد الله بن مسعود: سَألتُ النبيَّ ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام: «يأجوج ومأجوج أُمَّتان، كلُّ أمَّة أربع مئة ألف أمة[٥]، كلُّ أمَّة لا يَعلم عددَها إلا اللهُ، لا يموت الرجل منهم حتى يُولَد له ألفُ ذَكَر من صُلْبه، كلُّهم قد حمل السلاح» قيل: يا رسولَ اللهَ صِفْهم لنا. قال: «هم ثلاثةُ أصناف، صِنْف منهم أمثال الأَرْز ـ شجر بالشام، طول الشجرة عشرون ومئة ذراع ـ وصِنْف عرضه وطوله

= الإسناد، تفرد به يزيد بن سنان، وتفرد به ابنه عنه، ورواه غيره مرسلاً، وإنما جعله من قول سعيد. اهـ

وأخرجه أحمد في العلل ٣/ ٣٥ ، وابن سعد في الطبقات ١/ ٤٢ - ٤٣ ، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٦٣ من قول سعيد بن المسيب.

(١) الوسيط ٣/ ١٦٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٨١ ، والتذكرة ص٦٩٦ .

(٢) أخرج الطبراني في الكبير ١١/ ٢٢٥ (١١٥٦٤) وفي الأوسط (٨٠٥٨)، عن ابن عباس قال: ما احتلم نبي قط، إنما الاحتلام من الشيطان. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٦٧ : رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت، وهو مجمع على ضعفه.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩٥٩ عن ابن عباس مرفوعاً.

(٣) التذكرة ص٦٩٦ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٠ .

(٥) ليست في (د) و(ز).

سواء، نحواً من الذراع، وصِنْف يفترش أُذُنه ويَلتحف بالأُخرى، لا يمرُّون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ويأكلون من مات منهم، مُقدِّمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يَشربون أنهارَ الشرق وبحيرة طبريَّة، فيمنعهم الله من مكَّة والمدينة وبيت المقدس»[١].

وقال عليٌّ ﷺ: وصِنْف منهم في طول شِبْر، لهم مخالب وأَنياب السباع، وتداعي الحَمام، وتسافد البهائم، وعُواء الذِّئاب، وشعور تَقِيْهم الحرَّ والبرد، وآذان عِظام، إحداها وَبرة يشتون فيها، والأُخرى جلدة يصيفون فيها[٢]، يحفرون السَّدَّ حتى كادوا ينقبونه، فيُعيده الله كما كان، فيقولون: ننقبه غداً إن شاء الله تعالى، فينقبونه ويَخرجون، ويتحصَّن الناس بالحصون، فيَرمون إلى السماء فيُردُّ السهم عليهم ملطَّخاً بالدم، ثم يُهلكهم الله تعالى بالنَّغَف[٣] في رقابهم. ذكره الغزنويُّ.

وقال عليٌّ عن النبيِّ ﷺ: «يأجوج أُمَّة لها أربع مئة أمير، وكذا مأجوج لا يَموت أحدُهم حتى يَنظُر إلى ألف فارس من ولده»[٤].

قلت: وقد جاء مرفوعاً من حديث أبي هريرة، خرَّجه ابن ماجه في «السنن» قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَحفرون كلَّ يوم، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاعَ الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيُعيده اللهُ أشدَّ ما كان، حتى إذا بلغت مُدَّتهم، وأَراد الله تعالى أن يَبعثهم على الناس، حفَروا، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاعَ الشمس قال: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى، فاستثنوا، فيَعودون إليه وهو كهيئتِه حين تركوه، فيحفرونه ويَخرجون على الناس فيَنْشِفون الماء،

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٠ - ٤٠١ موقوفاً مختصراً، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٨٦٧) عن حذيفة بن اليمان ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٨ : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه يحيى بن سعيد العطار، وهو ضعيف.

(٢) التذكرة ص٦٩٦ .

(٣) النَّغَف: دود يكون في أنوف البعير والغنم. النهاية (نغف).

(٤) التذكرة ص٦٩٤ .

ويتحصَّن الناسُ منهم في حصونهم، فيَرْمُون بسهامهم إلى السماء، فترجع عليها الدمُ الذي اجْفَظَّ[١] فيقولون: قَهرنا أهلَ الأرض وعَلَونا أهلَ السماء، فيبعث الله تعالى عليهم نغَفاً في أقفائهم فيقتلهم بها» قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنَّ دوابَّ الأرض لتسمن وتَشْكَر شَكَراً من لحومهم»[٢]. قال الجوهريُّ[٣]: شَكِرت الناقةُ تَشكَر شَكَراً فهي شكِرة، وأشكر الضرع: امتلأ لبناً.

وقال وهب بن منبِّه: رآهم ذو القرنين، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منَّا، لهم مخاليب في مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع، وأحناك كأحناك الإبل، وهم هُلْبٌ، عليهم من الشعر ما يُواريهم، ولكلٍّ واحد منهم أُذُنان عظيمتان، يَلتحِف إحداهما ويفترش الأخرى، وكل واحد منهم قد عرف أَجَلَه، لا يَموتُ حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكراً، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى[٤]. وقال السُّدِّيُّ والضحَّاك: الترك: شِرْذمة من يأجوج ومأجوج خرَجت تُغِيرُ، فجاء ذو القرنين فضرب السَّدَّ، فبقيت في هذا الجانب[٥]. قال السُّدِّيُّ: بُني السَّدُّ على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلةٌ واحدة دون السَّدِّ، فهم التُّرك. وقاله قتادة.

---

(١) في النسخ: أحفظ. وكذا في شرح السندي لابن ماجه ٢/ ٥١٧ حيث قال: لعل هذا من كلام الراوي بتقدير: هذا الذي أحفظه. اهـ. والمثبت من سنن ابن ماجه (٤٠٨٠) وشرحه مصباح الزجاجة ٢/ ٢٠١. قال السيوطي في شرحه على سنن ابن ماجه ١/ ٢٩٩: الذي اجْفَظَّ: أي ملأها، أي: ترجع السهم عليهم حال كون الدم محفوفاً وممتلئاً عليها، فكأن قوله: عليها الدم اجفظَّ: جملة حالية من قوله: فترجع. فلفظ: جفظ، من باب احمرَّ من الجفظ. وفي القاموس (جفظ): الجفيظ: المقتول المنتفخ، والجَفْظ: الملء.

(٢) ابن ماجه (٤٠٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٠٦٣٢)، والترمذي (٣١٥٣)، والحاكم ٤/ ٤٨٨، قال الترمذي: حديث حسن غريب وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٣) في الصحاح (شكر)، وفيه: واشتكر الضرع، بدل: وأشكر الضرع.

(٤) سلف ص٣٧١ من هذا الجزء.

(٥) زاد المسير ٥/ ١٩٠.

قلت: وإذا كان هذا، فقد نعت النبيُّ ﷺ التُّركَ كما نعت يأجوجَ ومأجوجَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعةُ حتى يقاتلَ المسلمون التُّركَ، قوماً وجوهُهم كالمجانِّ المُطْرَقَة، يلبَسون الشَّعر ويمشون في الشَّعر» في رواية: «ينتعلون الشَّعر» خرَّجه مسلم وأبو داود وغيرهما(١).

ولما عَلِمَ النبيُّ ﷺ عددَهم وكثرتَهم وحِدَّة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام: «اتركوا التُّركَ ما تركوكم»(٢). وقد خرج منهم في هذا الوقت أُمم لا يُحصيهم إلا اللهُ تعالى، ولا يردَّهم عن المسلمين إلا اللهُ تعالى، حتى كأنَّهم يأجوج ومأجوج أو مُقدِّمتهم.

وروى أبو داود(٣) عن أبي بَكْرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ينزل ناس من أمَّتي بغائط يسمُّونه البصرة عند نهر، يقال له: دِجْلة، يكون عليه جِسْر، يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين» قال ابنُ يحيى: قال أبو معمر: «وتكون من أمصار المسلمين فإذا كان في آخر الزمان، جاء بنو قنطوراء عِراض الوجوه، صغار الأعين، حتى ينزلوا على شاطئ النهر، فيتفرَّق أهلُها ثلاث فِرَق، فِرْقة يأخذون أذنابَ البقر والبرِّيَّة وهلكوا، وفِرْقة يأخذون لأنفسهم وكفروا، وفِرْقة يجعلون ذراريهم خَلْف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء». الغائط: المُطمئنُّ من الأرض. والبصرة: الحجارة الرخوة، وبها سمِّيت البصرة. وبنو قنطوراء: هم التُّرك. يقال: إنَّ قنطوراء اسمُ جارية كانت لإبراهيمَ صلوات الله وسلامه عليه، ولدت له أولاداً جاء من نَسْلهم الترك(٤).

---

(١) الرواية الأولى عند مسلم (٢٩١٢): (٦٥)، وأبي داود (٤٣٠٣)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٤٤ - ٤٥، وهي عند البخاري (٢٩٢٨)، وأحمد (٧٢٦٣) بنحوه، والثانية عند مسلم (٢٩١٢): (٦٣)، وأبي داود (٤٣٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٢)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٤٣ - ٤٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٧٦ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) في سننه برقم (٤٣٠٦).

(٤) معالم السنن ٦/ ١٦٨.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ استفهام على جهة حُسْن الأدب[١]. «خَرْجاً»: أي: جُعْلاً. وقُرئ: «خراجاً»[٢] والخرج أخصُّ من الخراج. يقال: أدِّ خَرْج رأسك وخَرَاج مدينتك. وقال الأزهريُّ[٣]: الخراج يقع على الضريبة، ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية، وعلى الغلَّة. والخراج: اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال. والخرج: المصدر[٤].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي: ردماً، والرَّدم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتَّصل. وثوب مردَّم، أي: مرقَّع، قاله الهرويُّ[٥]. يقال: رَدَمْتُ الثُّلْمة أردِمها بالكسر ردماً، أي: سددتها. والردم أيضاً الاسم، وهو السَّدُّ[٦].

وقيل: الردم أَبلغ من السَّدِّ، إذ السَّدُّ: كلُّ ما يسدُّ به، والردم: وَضْع الشيء على الشيء، من حجارة أو تراب أو نحوه، حتى يقوم من ذلك حجاب منيع. ومنه: ردَّم ثوبَه، إذا رقَّعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض. ومنه قول عنترة:

هل غادَر الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ

أي: من قول يُركَّب بعضه على بعض[٧].

وقُرئ: «سَدًّا»: بالفتح في السين، فقال الخليل وسيبويه: الضَّمُّ هو الاسم، والفتح المصدر. وقال الكسائي: الفتح والضمُّ لغتان بمعنى واحد. وقال عكرمة وأبو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ .

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. السبعة ص٤٠٠ ، والتيسير ص١٤٦ .

(٣) في تهذيب اللغة ٧/ ٤٧ - ٥٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧٣ .

(٥) في غريب الحديث ٣/ ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٦) الصحاح (ردم)، وفيه: تردَّم ثوبَه.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ ، والبيت في ديوان عنترة ص١٥ ، وتمامه: أم هل عرفتَ الدار بعد توهُّم

عمرو بن العلاء وأبو عبيدة[١]: ما كان من خِلْقة الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضَّمِّ، وما كان من صُنْع البشر، فهو بالفتح. ويَلزم أهلَ هذه المقالة أن يقرؤوا «سَدًّا» بالفتح، وقبله «بين السُّدَّيْنِ» بالضَّمِّ، وهي قراءة حمزة والكسائيِّ[٢]. وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكسَ ما قال أبو عبيدة. وقال ابن أبي إسحاق: ما رأته عيناك فهو سُدٌّ، بالضمِّ، وما لا ترى فهو سَدٌّ، بالفتح.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على اتِّخاذ السجون، وحبس أهلِ الفساد فيها، ومنعهم من التصرُّف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ **فيه مسألتان**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله تعالى لي من القُدْرة والملك خيرٌ من خَرْجكم وأموالكم، ولكن أَعينوني بقوَّة الأبدان، أي: برجال وعمل منكم بالأَبدان[٣]، والآلة التي أَبني بها الردمَ، وهو السَّدُّ. وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة، فإنَّ القومَ لو جمعوا له خرجاً لم يعنه أحدٌ ولَوَكَلوه إلى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربَّما أَربى ما ذكروه له على الخرج.

وقرأ ابن كثير وحده: «مَا مَكَّنَنِي» بنونين، وقرأ الباقون: «مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي»[٤].

الثانية: في هذه الآية دليل على أنَّ المِلك فرضٌ عليه أن يقوم بحماية الخَلْق في

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٤١٤ ، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤١ وما قبله منه، وقرأ بالفتح حمزة والكسائي. السبعة ص٣٩٩ ، والتيسير ص١٤٦ .

(٢) السبعة ص٣٩٩ ، والتيسير ص١٤٥ ، وحجة القراءات للفارسي ٥/ ١٧١ ، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٥٤١ وما بعده منه أيضاً.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ .

(٤) السبعة ص٤٠٠ ، والتيسير ص١٤٦ .

حفظ بيضتهم، وسدِّ فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي تجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن، لكان عليهم جَبْرُ ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألا يستأثر عليهم بشيء.

الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

الثالث: أن يسوِّي في العطاء بينهم على قَدْر منازلهم، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صُفْراً فأطلعتِ الحوادثُ أمراً، بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغْنِ ذلك فأموالهم تُؤخَذ منهم على تقدير، وتُصْرَف بتدبير، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكفَّ عنهم ما يَحذرونه من عاديَة يأجوج ومأجوج، قال: لستُ أحتاج إليه، وإنَّما أحتاج إليكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: اخدموا بأنفسكم معي، فإنَّ الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أنَّ الأموالَ لا تغني عنهم، فإنَّه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فيعود بالأَجر عليهم، فكان التطوُّع بخدمة الأبدان أولى. وضابط الأمر أنَّه لا يحلُّ مالُ أحدٍ إلا لضرورة تَعرِض، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سرًّا، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر، والله تعالى الموفِّق للصواب[1].

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: أعطوني زُبَر الحديد وناولونيها. أمَرَهم بنقل الآلة، وهذا كلُّه إنَّما هو استدعاء العطيَّة التي بغير معنى الهبة، وإنَّما هو استدعاء للمناولة؛ لأنَّه قد ارتبط من قوله: إنَّه لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبقَ إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان[2].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣.

و«زُبَرَ الْحَدِيدِ»: قِطَع الحديد. وأصل الكلمة: الاجتماع، ومنه: زُبْرة الأَسد؛ لما اجتمع من الشعر على كاهله. وزبرتُ الكتابَ، أي: كتبته وجمعت حروفه[١].

وقرأ أبو بكر والمفضَّل: «ردماً ايتوني»[٢] من الإتيان الذي هو المجيء، أي: جيئوني بزُبَر الحديد، فلما سقط الخافض انتصب الفعل، على نحو قول الشاعر:

أَمَرْتُكَ الخيرَ . . .

حذف الجار فنصب الفعل[٣]. وقرأ الجمهور: «زُبَرَ» بفتح الباء. وقرأ الحسن: بضمِّها، وكلُّ ذلك جمع زُبْرة، وهي القطعة العظيمة منه[٤].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ يعني: البناء، فحذف لقوَّة الكلام عليه. ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ قال أبو عبيدة[٥]: هما جانبا الجبل، وسُمِّيا بذلك؛ لتصادفهما، أي: لتلاقيهما. وقاله الهرويُّ[٦] وابن عباس[٧]، كأنَّه يُعرِض عن الآخر، من الصدوف، قال الشاعر:

كَلَا الصَّدَفَيْنِ يَنْفُذُه سَنَاهَا ... تَوقَّد مثلَ مِصباحِ الظَّلامِ[٨]

ويقال للبناء المرتفع: صدف، تشبيه بجانب الجبل. وفي الحديث: كان إذا مرَّ

---

(١) تهذيب اللغة ١٣/ ١٩٦ - ١٩٨ ، والصحاح (زبر).

(٢) قراءة أبي بكر في السبعة ص٤٠١ ، والتيسير ص١٤٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ ، والبيت لعمرو بن معديكرب وهو في ديوانه ص٣٥ ، وسلف ٤/ ١٢٣ وهو بتمامه:

أمرتك الخير فاصنع ما أمرت به ... فقد تركتك ذا مال وذا نشب

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ ، والقراءة في البحر المحيط ٦/ ١٦٤ .

(٥) في مجاز القرآن ١/ ٤١٤ .

(٦) في (ز) و(د) و(ف): الزهري، والمثبت من (ظ) وزاد المسير ٥/ ١٩٣ ، والكلام في تهذيب اللغة ١٢/ ١٤٦ .

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٤٠٦ .

(٨) النكت والعيون ٣/ ٣٤٣ ونسبه لعمرو بن شاش.

بصدف مائل أسرع المشيَ. قال أبو عبيد[١]: الصدف والهدف: كلُّ بناء عظيم مرتفع.

ابن عطيَّة: الصَّدَفان: الجبلان المتناوِحان[٢]، ولا يقال للواحد: صَدف، وإنَّما يقال: صَدَفان، للاثنين؛ لأنَّ أحدَهما يصادف الآخَرَ. وقرأ نافع وحمزة والكسائيُّ: «الصَّدَفَيْنِ»: بفتح الصاد وشدِّها وفتح الدال، وهي قراءةُ عمرَ بن الخطاب ﷺ وعمر ابن عبد العزيز، وهي اختيار أبي عبيدة؛ لأنَّها أشهر اللغات. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «الصُّدُفين»: بضمِّ الصاد والدال. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر «الصُّدْفَيْنِ»: بضمِّ الصاد وسكون الدال، نحو الجُرْف والجُرُف. فهو تخفيف. وقرأ ابن الماجشون: بفتح الصاد وضمِّ الدال. وقرأ قتادة: «بين الصَّدْفَين» بفتح الصاد وسكون الدال، وكلُّ ذلك بمعنى واحد، وهما الجبلان المتناوِحان[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ إلى آخر الآية، أي: على زُبَر الحديد بالأكيار، وذلك أنَّه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبُر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تَحمى، والحديد إذا أُوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً» ثم يُؤتَى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسَب الخلاف في القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتدَّ ولصق البعض بالبعض، استأنف وَضْع طاقةٍ أُخرى، إلى أن استوى العمل فصار جبلاً صَلْداً[٤].

قال قتادة: هو كالبُرْد المحبَّر، طريقةٌ سوداءُ، وطريقةٌ حمراءُ[٥].

ويُروى أنَّ رسولَ الله ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسولَ الله! إنِّي رأيت سَدَّ يأجوج

---

(١) في غريب الحديث ١/ ٧٧ - ٧٨ ، وما قبله منه، والحديث أورده ابن الأثير في النهاية (صدف).

(٢) التناوح: التقابل. القاموس (نوح)، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ وما بعده منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ ، وينظر مجاز القرآن ١/ ٤١٤ ، والسبعة ص٤٠١ ، والتيسير ص١٤٦ ، وزاد المسير ٥/ ١٩٢ - ١٩٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ .

(٥) الوسيط ٣/ ١٦٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٨٢ .

ومأجوج، قال: «كيف رأيته» قال: رأيته كالبُرْد المحبَّر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله ﷺ: «قد رأيته»[١].

ومعنى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: كالنار. ومعنى ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: أعطوني قِطْراً أُفرِغ عليه، على التقديم والتأخير. ومن قرأ: «ائتوني» فالمعنى عنده: تعالوا أُفرغ عليه نحاساً.

والقِطْر عند أكثر المفسرين: النحاس المذاب[٢]، وأصله من القَطْر؛ لأنَّه إذا أُذيب، قَطَرَ كما يقطر الماء. وقالت فرقة: القِطْر: الحديد المذاب[٣]. وقالت فرقة منهم ابن الأنباري: الرصاص المذاب. وهو مشتقٌّ من قَطَر يَقطُر قَطْراً[٤]. ومنه: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يَعلُوه ويَصعدوا فيه؛ لأنَّه أملسُ مستوٍ مع الجبل، والجبل عالٍ لا يُرام[٥]. وارتفاع السَّدِّ مئتا ذِراع وخمسون ذِراعاً[٦]. روي في طوله ما بين طَرَفي الجبلين مئة فَرْسَخ، وفي عرضه خمسون فرسخاً[٧]، قاله وهب بن منبِّه.

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٧٥٨)، وابن حجر في تغليق التعليق ٤/ ١٢ عن أبي بكرة الثقفي. قال ابن حجر: هذا إسناد صحيح إلى قتادة، فإن كان سمعه من هذا الرجل فهو حديث صحيح، لأن عدم معرفة اسم الصحابي لا تضر عند الجمهور لأن كلهم عدول، ولكن قد اختلف فيه على قتادة... اهـ. وأخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٤ عن قتادة مرسلاً.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٩ ونسبه لابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك.

(٣) منهم أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٤١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٢ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٤٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ .

﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لبُعْد عَرْضه وقوَّته، وروي في «الصحيح»[١] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «فُتح اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثلُ هذه» وعقَد وهب بن منبِّه بيده تسعين ـ وفي رواية ـ وحَلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، وذكر الحديث.

وذكر يحيى بن سلَّام، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يخرقون السَّدَّ كلَّ يوم، حتى إذا كادوا يَرون شعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً، فيعيده الله كأشدِّ ما كان حتى إذا بلغت مُدَّتهم وأراد اللهُ أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه إن شاء الله، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيخرقونه ويَخرجون على الناس» الحديث وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: «فَمَا اسْطَاعُوا» بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور. وقيل: هي لغة بمعنى استطاعوا. وقيل: بل استطاعوا بعينه، كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاءَ فقالوا: اسطاعوا. وحذف بعضهم منه الطاءَ فقال: استاع يستيع، بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده: «فما اسطّاعوا» بتشديد الطاء، كأنَّه أراد: استطاعوا، ثم أدغم التاء في الطاء فشدَّدها، وهي قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو عليٍّ: هي غير جائزة. وقرأ الأعمش: «فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً» بالتاء في الموضعين[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ القائل: ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم،

---

(١) البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١) واللفظ له.

(٢) ص٣٨٠ من هذا الجزء.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥ ، وقراءة حمزة في السبعة ص٤٠١ ، والتيسير ص١٤٦ ، وكلام أبي علي في الحجة ٥/ ١٧٨ .

والقوَّة عليه، والانتفاع به في دَفْعِ ضرر يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن أبي عَبْلة: «هذِهِ رَحْمَةٌ مِنْ ربي»[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أي: يوم القيامة. وقيل: وقت خروجهم[٢]. ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي: مستوياً بالأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الفجر: ٢١] قال ابن عرفة: أي: جعلت مستويةً لا أَكَمة فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال اليزيدي: أي: مستوياً، يقال: ناقة دكَّاء: إذا ذهب سنامها. وقال القتبيُّ[٣]: أي: جعله مدكوكاً ملصقاً بالأرض. وقال الكلبيُّ: قِطَعاً متكسِّراً، قال:

هل غيرُ غادٍ دَكَّ غاراً فانهدم[٤]

وقال الأزهريُّ: يقال: دككته، أي: دققته. ومن قرأ: «دَكَّاءَ» أراد جعل الجبلَ أرضاً دكَّاء: وهي الرابية التي لا تبلغ أن تكون جبلاً، وجمعها دكاوات[٥].

وقرأ حمزة وعاصم والكسائيُّ «دكاء» بالمدِّ على التشبيه بالناقة الدكَّاء، وهي التي لا سنامَ لها، وفي الكلام حذف، تقديره: جعله مثل دكاء، ولابدَّ من تقدير هذا الحذف؛ لأنَّ السَّد مذكَّر فلا يوصف بدكَّاء. ومن قرأ: «دَكًّا» فهو مصدر دَكَّ يدك، إذا هَدم ورَضّ، ويحتمل أن يكون «جعل» بمعنى خَلَق. وينصب «دَكًّا» على الحال. وكذلك النصب أيضاً في قراءة من مدَّ يحتمل الوجهين[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) في غريب القرآن ص٢٧١ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٤٥ ، ونسب البيت لأغلب.

(٥) ينظر الصحاح (دكك)، وتهذيب اللغة ٩/ ٤٣٦ - ٤٣٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤ ، والقراءة في السبعة ص٤٠٢ ، والتيسير ص١٤٦ ، والحجة ٥/ ١٨٢-١٨٣ .

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ الضمير في «تركنا» لله تعالى، أي: تركنا الجنَّ والإنسَ يوم القيامة يَموج بعضهم في بعض. وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ «يومئذ» أي: وقت كمال السَّدِّ يموج بعضهم في بعض. واستعارة الموج لهم عبارةٌ عن الحيرة، وتردُّد بعضهم في بعض، كالمولهين من هَمٍّ وخوف، فشبَّههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض[1]. وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ يوم انفتاح السَّدِّ يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم[2].

قلت: فهذه ثلاثة أقوال، أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول؛ لأنَّه تقدَّم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي»، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ تقدَّم في «الأنعام»[3]. ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ يعني: الجنَّ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٦٥.

(٢) الوسيط ٣/ ١٦٩.

(٣) ٨/ ٤٣٠.

والإنسَ في عَرَصات القيامة .﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: أبرزناها لهم[١] .﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ في موضع خفض، نعت «للكافرين» .﴿فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: هم بمنزلة من عينه مغطاة، فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى[٢] .﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يطيقون أن يَسمعوا كلامَ الله تعالى، فهم بمنزلة مَنْ صَمَّ.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ظنَّ. وقرأ عليٌّ وعكرمة ومجاهد وابن محيصن: «أَفَحَسْبُ» بإسكان السين وضمِّ الباء، أي: كَفَاهم .﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ يعني: عيسى والملائكة وعُزَيراً[٣] .﴿مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ ولا أعاقبهم؟! ففي الكلام حذف. وقال الزجَّاج: المعنى: أفحسبوا أن ينفعهم ذلك .﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ إلى قوله: ﴿وَزْنًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً» الآية، فيه دلالة على أنَّ مِن الناس مَن يعمل العمل وهو يظنُّ أنَّه محسن، وقد حَبِطَ سعيه، والذي يوجب إحباطَ السعي إما فسادُ الاعتقاد أو المراءاةُ، والمراد هنا الكُفْر[٤]. روى البخاريُّ[٥] عن مصعبٍ قال: سألت أبي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أهم الحَرُوريَّة؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. أما اليهود فكذَّبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنَّة، فقالوا: لا طعامَ فيها ولا شراب، والحروريَّة: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٢ ، والقراءة قرأ بها علي وابن عباس وابن يعمر والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن كثير بخلاف ونعيم بن ميسرة والضحاك ويعقوب وابن أبي ليلى. القراءات الشاذة ص٨٢ ، والمحتسب ٢/ ٣٤ .

(٤) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٦٨ .

(٥) في صحيحه برقم (٤٧٢٨).

مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] وكان سعد يُسمِّيهم الفاسقين.

والآية معناها التوبيخ، أي: قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري: يخيب سعيهم وآمالهم غداً، فهم الأخسرون أعمالاً، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ في عبادة من سواي. قال ابن عباس: يريد كفَّار أهل مكة. وقال عليٌّ: هم الخوارج أهلُ حروراء[١]. وقال مَرَّة: هم الرهبان أصحابُ الصوامع[٢]. وروي أنَّ ابنَ الكوَّاء سأله عن الأخسرين أعمالاً فقال له: أنت وأصحابُك[٣]. قال ابن عطيَّة[٤]: ويضعف هذا كلَّه قولُه تعالى بعد ذلك: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ وليس من هذه الطوائف من يَكفُر بالله ولقائه والبعث والنشور، وإنَّما هذه صفة مشركي مكَّة عبدة الأوثان، وعليٌّ وسعد رضي الله عنهما ذكرا أقواماً أخذوا بحظِّهم من هذه الآية. و«أعمالاً» نصب على التمييز. و«حبِطت» قراءة الجمهور: بكسر الباء. وقرأ ابن عباس «حبَطت»: بفتحها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ قراءة الجمهور: «نقيم» بنون العظمة. وقرأ مجاهد: بياء الغائب، يريد: فلا يقيم اللهُ عزَّ وجلَّ. وقرأ عبيد بن عمير: «فلا يقوم»، ويلزمه أن يقرأ: «وزنٌ»، وكذلك قرأ مجاهد: «فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنٌ»[٥]. قال عبيد بن عمير: يُؤتَى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة[٦].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤١٣ ، ومن طريقه الطبري ١٥/ ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٢٣ - ٤٢٤ ، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ١/ ١٩٥ - ١٩٦ .

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٢٦ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥ ، وقراءة ابن عباس ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٦٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٦ - ٥٤٧ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص٨٢ ، والبحر المحيط ٦/ ١٦٧ ، وذكرها العكبري في إملاء ما منّ به الرحمن ٣/ ٥٤١ دون نسبة.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٦٩ - ١٧٠ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٥/ ١٤٤٠ (٨٢٢٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٧٠ .

قلت: هذا لا يقال مثله من جهة الرأي، وقد ثبت معناه مرفوعاً في «صحيحي البخاري ومسلم»[١] عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنه ليأتي الرجلُ العظيم السمينُ يومَ القيامة لا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾». والمعنى: أنَّهم لا ثوابَ لهم، وأعمالهم مقابلة بالعذاب، فلا حسنةَ لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنةَ له فهو في النار. وقال أبو سعيد الخدريُّ: يُؤتَى بأعمال كجبال تِهامة، فلا تَزِنُ شيئاً. وقيل: يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة، كأنَّه قال: فلا قَدْرَ لهم عندنا يومئذ[٢]، والله أعلم.

وفي هذا الحديث من الفقه ذمُّ السِّمن لمن تكلَّفه؛ لما في ذلك من تكلُّف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدلُّ على تحريم الأكل الزائد على قَدْرِ الكفاية المبتغى به التَّرفُّه والسِّمن. وقد قال ﷺ: «إنَّ أبغضَ الرجال إلى الله تعالى الحبر السَّمين». ومن حديث عِمران بن حُصَين عن النبيِّ ﷺ قال: «خيركم قرني، ثم الذين يَلُونهم ـ قال عِمران: فلا أدري أَذَكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ـ ثم إنَّ من بعدكم قوماً يَشهدون ولا يُستشهدون، ويَخونون ولا يُؤتمنون، ويَنذرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السِّمن» وهذا ذمٌّ. وسبب ذلك أنَّ السِّمَنَ المكتسَب إنَّما هو من كثرة الأكل والشَّرَه، والدَّعَة والراحة والأَمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبدُ نفسه لا عبدُ ربِّه، ومن كان هذا حاله، وقَع لا محالةَ في الحرام[٣]، وكلُّ لحم تولَّد عن سُحتٍ، فالنار أولى به، وقد ذمَّ الله تعالى الكفَّار بكثرة الأكل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] فإذا كان المؤمن يتشبَّه بهم، ويتنعَّم بتنعُّمهم في كلِّ أحواله وأزمانه، فأين حقيقةُ الإيمان، والقيام بوظائف

---

(١) البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥ .

(٣) المفهم ٧/ ٣٥٩ - ٣٦٠ ، والحديث الأول سلف ٨/ ٤٥٥ ، وحديث عمران أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥): (٢١٥).

الإسلام؟! ومن كثر أكله وشربه، كثر نَهَمُه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهارَه هائماً، وليلَه نائماً. وقد مضى في «الأعراف» هذا المعنى[١]، وتقدَّم فيها ذكر الميزان[٢]، وأن له كفَّتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة.

وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حَمْش ساقِ ابنِ مسعود وهو يصعد النخلة: «تضحكون من ساقٍ تُوزَن بعمل أهل الأرض»[٣] فدلَّ هذا على أنَّ الأشخاص تُوزَن، ذكره الغزنويُّ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ «ذلك» إشارة إلى تَرْك الوزن، وهو في موضع رفع بالابتداء، «جزاؤهم» خبره، و﴿جَهَنَّمُ﴾ بدل من المبتدأ الذي هو «ذلك»، و«ما» في قوله: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ مصدريَّة، والهزء: الاستخفاف والسُّخرية[٤]، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قال قتادة: الفردوس رَبوة الجنَّة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها[٥]. وقال أبو أمامة الباهليُّ: الفردوس سُرَّة الجنَّة[٦]. وقال كعب: ليس في الجنان جنَّة أعلى من جنَّة الفردوس،

---

(١) ٩/١٩٦.

(٢) ٩/١٥٦.

(٣) أخرجه أحمد (٩٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٧)، وأبو يعلى (٥٥٥)، والطبراني في الكبير (٨٥١٦) من حديث علي بن أبي طالب بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٢٨٨ - ٢٨٩ بعد أن عزاه إلى أحمد وأبي يعلى والطبراني: رجالهم رجال الصحيح غير أم موسى، وهي ثقة.
وأخرجه أيضاً أحمد (٣٩٩١)، والبزار (٢٦٧٨)، وأبو يعلى (٥٣١٠)، والطبراني في الكبير (٨٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية ١/١٢٧ من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٢٨٩ : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق... وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح. اهـ. واستحمش الرجل حَمْشاً وحَمَشاً: صار دقيق الساقين.

(٤) المحرر الوجيز ٣/٥٤٦.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/٤٣١ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/١٦٧.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/١٤٨ ، والطبري ١٥/٤٣١.

فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر[١]. وفي «صحيح البخاري»[٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاةَ وصام رمضان، كان حقًّا على الله أن يُدخِله الجنَّة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله أفلا نبشِّر الناس؟ قال: «إنَّ في الجنَّة مئةَ درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتَيْن كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللهَ تعالى فاسألوه الفردوسَ، فإنَّه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال: ـ وفوقه عَرْشُ الرحمن، ومنه تَفجَّر أنهارُ الجنة».

وقال مجاهد: والفردوس: البستان بالروميَّة[٣]. الفرَّاء[٤]: هو عربي. والفردوس: حديقة في الجنَّة. وفردوس: اسمُ روضة دون اليمامة. والجمع فراديس، قال أميَّة بن أبي الصلت الثقفي:

كانت منازلُهم إذ ذاك ظاهرةً فيها الفَرَاديسُ والفومانُ والبصلُ

والفراديس: موضع بالشام. وكَرْمٌ مُفَرْدَس، أي: مُعرَّش[٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: لا يطلبون تحويلاً عنها إلى غيرها. والحِول: بمعنى التحويل، قاله أبو عليٍّ. وقال الزجَّاج[٦]: حال من مكانه حِوَلاً كما يقال: عَظُم عِظَماً. قال: ويجوز أن يكون من الحيلة، أي: لا يحتالون منزلاً غيرَها. قال الجوهريُّ[٧]: التحوُّل: التنقُّل من موضع إلى موضع، والاسم: الحِول، ومنه قوله تعالى: «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً».

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٣١ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٣٨٠ .

(٢) برقم (٢٧٩٠).

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٣٢ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٣١ .

(٥) الصحاح (فردس)، دون قول أمية، وهو في ديوانه ص٩٨ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣١٥ .

(٧) في الصحاح (حول).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ نفد الشيءُ: إذا تمَّ وفرَغ، وقد تقدَّم. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أي: زيادةً على البحر عدداً أو وزناً. وفي مصحف أبيٍّ: «مِدَاداً» وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد[1]. وانتصب «مدداً» على التمييز أو الحال[2].

وقال ابن عباس: قالت اليهود لما قال لهم النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] قالوا: وكيف وقد أوتينا التوراة، ومن أُوتيَ التوراة فقد أُوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ الآية[3].

وقيل: قالت اليهود: إنَّك أُوتيت الحكمةَ، ومن أُوتيَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً، ثم زعمت أنَّك لا عِلْم لك بالرُّوح؟! فقال اللهُ تعالى قل: وإن أُوتيت القرآنَ وأوتيتم التوراةَ، فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلةٌ[4]. قال ابن عباس: «كَلِمَاتُ رَبِّي» أي: مواعظ ربِّي. وقيل: عنى بالكلمات الكلامَ القديمَ الذي لا غايةَ له ولا منتهى، وهو وإن كان واحداً فيجوز أن يعبَّر عنه بلفظ الجمع؛ لما فيه من فرائد الكلمات، ولأنَّه ينوب منابَها، فجازت العبارةُ عنها بصيغة الجمع؛ تفخيماً، وقال الأعشى:

ووجهٌ نقيُّ اللونِ صافٍ يَزينُهُ مع الجِيدِ لَبَّاتٌ لها ومَعَاصِمُ[5]

فعبَّر باللَّبَّات عن اللَّبَّة. وفي التنزيل: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ [الحجر: ٢٣] وكذلك: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

(١) القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٥، والبحر المحيط ٦/ ١٦٩، وذكرها الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٢٣، وأبو الليث في التفسير ٢/ ٣١٥، والطبري ١٥/ ٤٣٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٦.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٨٦.

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٠٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣١٥ بنحوه.

(٥) ديوان الأعشى ص١٢٧، واللَّبَّة: المنحر. القاموس (لبب).

كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] لأنَّه ناب منابَ أمَّة. وقيل: أي ما نفدت العبارات والدلالات التي تدلُّ على مفهومات معاني كلامه سبحانه وتعالى[١]. وقال السُّدِّيُّ: أي: إن كان البحر مداداً لكلمات ربِّي لنفدَ البحر قبل أن تنفدَ صفاتُ الجنَّة التي هي دار الثواب. وقال عكرمة: لنفد البحرُ قبل أن ينفدَ ثوابُ من قال: لا إله إلا الله. ونظير هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقرأ حمزة والكسائيُّ: «قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ» بالياء؛ لتقدُّم الفعل[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: لا أعلم إلا ما يعلِّمني الله تعالى، وعِلْم الله تعالى لا يحصى، وإنَّما أُمِرت بأن أبلِّغكم بأنَّه لا إله إلا الله. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يرجو رؤيته وثوابَه، ويخشى عقابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ قال ابن عباس: نزلت في جُنْدَب بنِ زهير العامريِّ، قال: يا رسول الله إنِّي أعمل العملَ لله تعالى، وأُريد وجهَ الله تعالى، إلَّا أنَّه إذا اطُّلِع عليه سَرَّني، فقال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ طيِّبٌ ولا يَقبلَ إلا الطيِّبَ، ولا يَقبل ما شُورِكَ فيه» فنزلت الآية. وقال طاوس: قال رجل: يا رسولَ الله! إنِّي أحبُّ الجهادَ في سبيل الله تعالى، وأُحبُّ أن يُرى مكاني، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: جاء رجلٌ للنبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله! إنِّي أتصدَّق وأَصِلُ الرَّحِم ولا أَصنع ذلك إلا لله تعالى، فيذكر ذلك منِّي وأُحمَد عليه فيسرُّني ذلك وأُعجَب به، فسكت رسولُ الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٣].

قلت: والكلُّ مراد، والآية تعمُّ ذلك كلَّه وغيرَه من الأعمال. وقد تقدَّم في سورة «هود»[٤] حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أوَّل الناس. وقد

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٧.

(٢) السبعة ص٤٠٢، والتيسير ص١٤٦.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٨.

(٤) ١١/ ٨٤.

تقدَّم في سورة النساء[١] الكلامُ على الرياء، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية.

وقال الماورديُّ[٢] وقال جميعُ أهل التأويل: معنى قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» إنه لا يرائي بعمله أحداً. وروى الترمذيُّ الحكيم رحمه الله تعالى في «نوادر الأصول»[٣] قال: حدَّثنا أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثنا مكيُّ بن إبراهيم قال: حدَّثنا عبد الواحد بنُ زيد، عن عبادة بن نُسَيٍّ، قال: أتيت شدادَ بنَ أوس في مصلَّاه وهو يبكي، فقلت: ما الذي أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: حديثٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ يوماً، إذ رأيت بوجهه أَمْراً ساءني فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، ما الذي أرى بوجهك؟ قال: «أمراً أتخوَّفه على أمَّتي من بعدي» قلت: ما هو يا رسولَ الله؟ قال: «الشِّرك والشهوة الخفيَّة» قلت: يا رسولَ الله! وتُشرِكُ أمَّتك مِن بعدك؟ قال: «يا شدَّاد أما إنَّهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حَجَراً ولا وَثَناً، ولكنَّهم يُراؤون بأعمالهم. قلت: والرياء شِرْك هو؟ قال: «نعم». قلت: فما الشهوة الخفيَّة؟ قال: «يُصبِح أحدُهم صائماً فتعرض له شهواتُ الدنيا فيفطر». قال عبد الواحد: فلقيتُ الحسنَ، فقلت: يا أبا سعيدٍ! أخبِرني عن الرياء أَشِرْك هو؟ قال: نعم، أما تقرأ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدَّثنا محمد بن أبي بكر قال: حدَّثنا المعتمر ابنُ سليمان، عن ليث، عن شَهْرِ بن حوشب قال: كان عبادةُ بنُ الصامت وشدَّاد بن أوس جالسين، فقالا: إنَّا نتخوَّف على هذه الأمَّة من الشِّرْك والشهوة الخفيَّة، فأمَّا الشهوة الخفيَّة فمِن قِبَلِ النساء. وقالا: سمعنا رسولَ الله ﷺ يقول: «من صلَّى صلاةً يُرائي بها فقد أَشركَ، ومن صام صياماً يُرائي به فقد أشرك» ثم تلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ

---

(١) ٦/ ٢٩٩.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٥٠.

(٣) ص٤٠٠ بدون إسناد، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٧١٤٤)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٠، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣٠) من طرق، عن عبد الواحد بن زيد، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: عبد الواحد بن زيد متروك.

رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[١].

قلت: وقد جاء تفسير الشهوة الخفيَّة بخلاف هذا، وقد ذكرناه في «النساء»[٢].

وقال سهل بن عبد الله: وسئل الحسنُ عن الإخلاص والرياء فقال: من الإخلاص أن تحبَّ أن تُكتَم حسناتُك، ولا تحبَّ أن تُكتَم سيئاتُك، فإن أظهر اللهُ عليك حسناتك تقول: هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتذكر قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ الآية [المؤمنون: ٦٠]، يؤتون الإخلاصَ، وهم يخافون ألا يُقبَل منهم، وأما الرياء: فطلب حظِّ النفس من عملها في الدنيا، قيل له: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبينَ الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة، فهو رياء.

وقال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم: وقد يُفضِي الرياء بصاحبه إلى استهزاءِ الناس به، كما يُحكى أنَّ طاهرَ بنَ الحسين قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صرْتَ إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلتُ العراقَ منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائمٌ. فقال: يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين. وحكى الأصمعيُّ أنَّ أعرابيًّا صلَّى فأطال، وإلى جانبه قوم، فقالوا: ما أحسنَ صلاتك؟! فقال: وأنا مع ذلك صائم[٣]. أين هذا من قول الأشعثِ بنِ قيس وقد صلَّى فخفَّف، فقيل له: إنَّك خفَّفت. فقال: إنَّه لم يُخالِطها رياء[٤]. فخلص من تنقُّصهم بنفي الرياء

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢١٦)، وأحمد (١٧١٤٠)، والبزار (٣٤٨٢)، والطبراني في الكبير (٧١٣٩)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٩ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٨ - ٢٦٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٤٤) من طرق، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن شداد بن أوس بنحوه. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٠ - ٢٢١ : رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وثَّقه أحمد وغير واحد، وبقية رجاله ثقات.

(٢) ٦/ ٢٩٩ .

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٣١٩ ، والعقد الفريد ٣/ ٢١٦ .

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٣٣٤ ، والعقد الفريد ٣/ ٢١٦ ، عن أشعب بن جبير، واسمه أشعث، وهو الذي يضرب به المثل في الطمع. سمط اللآلي ٣/ ٩٥٨ ، وفوات الوفيات ١/ ١٩٧ .

عن نفسه، والتصنُّع من صلاته، وقد تقدَّم في «النساء»[١] دواء الرياء من قول لقمان، وأنَّه كتمان العمل.

وروى الترمذيُّ الحكيم[٢]: حدَّثنا أبي رحمه الله تعالى قال: أنبأنا الحِمَّاني قال: أنبأنا جرير، عن ليث، عن شيخٍ، عن مَعْقِل بنِ يَسَار قال: قال أبو بكر وشَهِدَ به على رسول الله ﷺ، قال: ذكَر رسولُ الله ﷺ الشِّرْكَ، قال: «هو فيكم أخفى من دَبيب النمل، وسأدلُّك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفركَ لما لا أعلم، تقولها ثلاث مرات».

وقال عمر بن قيس الكندي: سمعتُ معاويةَ تلا هذه الآيةَ على المنبر ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فقال: إنَّها لآخِرُ آيةٍ نزلت من السماء[٣]. وقال عمر: قال النبيُّ ﷺ: «أُوحيَ إليَّ أنَّه من قرأ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ رُفعَ له نورٌ ما بين عدن إلى مكَّة، حَشْوه الملائكة يصلُّون عليه ويستغفرون له»[٤].

وقال معاذ بن جبل: قال النبيُّ ﷺ: «من قرأ أوَّل سورة الكهف وآخِرها، كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلَّها، كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»[٥].

---

(١) ٦/ ٢٩٩.

(٢) في نوادر الأصول ص٤٠٠ بدون إسناد، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، والمروزي في مسند أبي بكر برقم (١٨) من طريق ليث، به.

وأخرجه أيضاً المروزي في مسند أبي بكر (١٧)، وأبو يعلى (٥٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٦) من طريق ليث، عن أبي محمد، عن حذيفة، عن أبي بكر الصديق بنحوه مطولاً. ووقع عند ابن السني: أبي مجلز، بدل: أبي محمد، وفي إسنادهما: ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف، والراوي عنه، وهو مجهول.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٤١ - ٤٤٢ ، والطبراني في الكبير ١٩/ ٣٩٢ (٩٢١).

(٤) أخرجه البزار (٢٩٧). وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٣٦٠) وقال: رواه البزار، ورواته ثقات إلا أن أبا قرَّة الأسدي لم يروِ عنه ـ فيما أعلم ـ غير النضر بن شميل.

(٥) أخرجه أحمد (١٥٦٢٦)، والطبراني في الكبير ٢٠/ ١٩٧ (٤٤٣)، والبغوي في شرح السنة (١٢٠٥) عن معاذ بن أنس ﷺ. وفي إسناده: زبَّان بن فائد الحمراوي، وهو ضعيف.

وعن ابن عباس أنَّه قال له رجل: إنِّي أُضمر أن أقومَ ساعةً من الليل فيغلبني النوم، فقال: إذا أردتَ أن تقوم أيَّ ساعةٍ شِئْتَ من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ إلى آخِر السورة، فإنَّ اللهَ تعالى يُوقِظك متى شئتَ من الليل، ذكر هذه الفضائل الثعلبيُّ ﷺ.

وفي «مسند الدارمي»[1] أبي محمد، أخبرنا محمد بنُ كثير، عن الأوزاعيِّ، عن عبدة، عن زرٍّ بن حبيش، قال: من قرأ آخِر سورة الكهف لساعة يُريد أن يقوم من الليل، قامها، قال عبدة: فجرَّبناه، فوجدناه كذلك. قال ابن العربي[2]: كان شيخنا الطُّرْطُوشيُّ الأكبر يقول: لا تذهب بكم الأزمانُ في مصاولة الأقران، ومواصلة الإخوان، وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

تمَّت سورةُ الكهف، والحمد لله وحده،
والصلاةُ والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعدَه.

---

(١) برقم (٣٤٠٩).

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٧